د. محمد عمارة

الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري



الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

طبعة دار الشروق الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. محمد عمارة

الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري

دار الشروق



تمهيد

بالإسلام خرج الانسان العربى من إطار القبيلة وضيقها وتشرذم القبلية وضياعها إلى رحاب الدولة والأمة والإنسانية ..

وبالإسلام انتقلت الجماعة العربية من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة وتنويرها ..

وبالإسلام تحولت هذه الأمة من طائر مهيض الجناح ، تتخطفه الجوارح والكواسر ، من الروم والفرس والأحباش ، إلى عملاق بهر الدنيا بالقوة والعقل والسيف والقلم على حد سواء ..

ولذلك ، فنحن لا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الأمة ، بتكوينها ، وحضارتها ، وعطائها التاريخى .. هى « هبة الاسلام » عندما تحول « بالايمان » و« الحركة » إلى طاقة خلاقة جعلت الأعرابى الأشعث الأغبر : راهب الليل وفارس النهار .. مناضلا ربانيا .. إذا أقسم على الله أبرَّهُ الله ؟ ..

ولا نبالغ إذا قلنا : إن هذه الأمة قد خرجت بالاسلام من « الموت » إلى « الحياة » ! .. فإحياؤها وحياتها قد ارتبطا ، صعودا وهبوطا ، بعلاقتها الحقيقية والصادقة والصحية بالاسلام .. فهو رسالتها الخالدة فى هذه الحياة ! ..

بل إننا إذا ذهبنا نستقرىء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فسنجدهما يستخدمان مصطلح « الحياة » و« الإحياء » فى وصف أثر الاسلام وفعله الذى خرجت به هذه الأمة من كفر الجاهلية إلى إيمان الاسلام ... فكما أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد ﴿ أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾[1].. كذلك يصنع « نور الحكمة » ، الذى جاء به الاسلام ، وكذلك صنع « الإحياء » لهذه الأمة بعد « الموات » ... وقديما أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال : « يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما

(١) النحل : ٦٥

يحيى الأرض الميتة بوابل السماء »[٢]! ..

وهذا « الإحياء » الذى صنعه الاسلام لهذه الأمة لم يقف عند حدود « الإحياء الروحى » الإيمانى الذى صنعته عقيدة التوحيد ، عندما حققت للمؤمن « الانتماء » ، وحالت بينه وبين « الاغتراب » .. ذلك أن التوحيد ، الذى تمثل فى ﴿ لا إله إلا الله ﴾ كان — فى الجانب الدنيوى — ثورة تحريرية ، متجددة العطاء ، عميقة الأغوار .. فلقد ألفت بين الناس عندما رفعت عنهم إصر الطواغيت ، وأحيت طاقاتهم الخلاقة والمبدعة عندما حررتهم من الضغوط والقيود والأغلال .. ثم قذفت بهم شهابا منيرا طريق العقل وحارقا قوى الطغيان التى تحول بين هذا العقل وبين حريته فى الاختيار ! ..

والقرآن الكريم يتحدث عن دعوة الإسلام ، ورسالة محمد ، ﷺ ، باعتبارها مصدر « الحياة » لهذه الأمة ، وسبيل خروجها من الضعف إلى القوة والنصر ، فى الصراع الذى كان قائما بين الانسان العربى وبين القوى التى فرضت عليه سيادتها وهيمنتها قبل الاسلام .. وخاصة الفرس والروم .. ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[٣].. فالإحياء الاسلامى يتعدى النطاق الروحى إلى حيث قد أصبح السبيل إلى حياة الأمة سياسيا وقوميا واجتماعيا ، الأمر الذى هيأ لها النصر على أعدائها التاريخيين ، الذين طالما ناشوها فنهشوها نهش الجوارح والكواسر مستضعَف الطير ذى الجناح المهيض ! ..

والإحياء بالإسلام ، كان السبيل الوحيد لصنع المعجزة .. معجزة الوحدة التى صنعت من القبائل المتناحرة والشراذم المتنافرة والأعراب الذين احترفوا الإغارة وقطع الطريق .. معجزة الوحدة التى صنعت من هؤلاء : خير أمة أخرجت للناس .. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... أشداء على الكفار ، رحماء بينهم .. تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود .. رقت ضمائرهم من خشية الله حتى بلغت درجة « التقوى » ؟! فى ذات الوقت الذى جعلوا فيه « الجهاد » رهبانيتهم لله ؟! .. ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف

---

(٢) رواه مالك فى الموطأ .

(٣) الأنفال : ٢٤ — ٢٦ .

بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴾[4] ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[5]

فالبعث والإحياء الذى حدث لهذه الأمة إنما كان بالإسلام ، بل هو [نعمة الله] ، وآية من آياته ، سبحانه وتعالى ، فيها ! ..

ولذلك ، فلم ولن يكون غريبا أن تتخذ هذه الأمة من الاسلام سبيلا للبعث والإحياء والنهضة والتجديد ، كلما طرأت عليها الطوارىء التى باعدت بينها وبين جوهر الاسلام فابتعدت بها عن فعاليات « الحياة والأحياء » ؟! ..

فهذه الأمة تدرك ، بالفطرة وبالتجربة التاريخية معا ، أن « حياتها وإحياءها » إنما كانا : هبة الاسلام وصنيع الذين آمنوا به عقيدة وحركة ... وأن هذا الاسلام قد كان السلاح الذى تسلحت به ، وانطلقت — تحت أعلامه — لتواجه ما فرضه عليها أعداؤها الكثيرون والمتنوعون من تحديات :

● فبالجهاد الإسلامى حررت أرض الشرق من سيطرة البيزنطيين الغزاة ، ومن الظلم الطبقى للأكاسرة الفرس ، ذلك الذى أعجز الإنسان عن أن يكتشف الطاقات التى أودعها الله فيه .. وبتحرير الأرض تحرر العقل والضمير من الضغوط ، فامتلك الانسان فى الامبراطورية العربية الاسلامية حرية الاختيار ﴿ لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ﴾[6]... ثم كان هذا الجهاد الاسلامى السبيل لمواجهة الموجات العاتية والعادية على هذه الأرض ، تاريخيا ، صليبية أو تترية كانت تلك الموجات ..

● وبالعقلانية الاسلامية ، التى وازنت بين « الحكمة » و« الشريعة » ، وآخت بين « الوحى » و« العقل » ، صنعت هذه الأمة فلسفتها المتميزة ، وأسمتها ، بحق : علم « التوحيد » ؟! .. فرفضت الجمود عند ظواهر النصوص ، والغرور بمعطيات العقل الانسانى وحدها ، وفى كل المجالات ، فسلمت فلسفتها ، بالعقلانية الاسلامية المتميزة ، من سلبيات الإفراط والتفريط ..

● وبالوسطية الاسلامية طبعت هذه الأمة حضارتها ، فميزتها عن غيرها من الحضارات ، وذلك عندما برئت ، بهذه الوسطية ، من النظرة الضيقة الأفق والوحيدة الجانب ، التى تقف

(٤) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) آل عمران : ١٠٣ .

(٦) البقرة : ٢٥٦ .

عند أحد أقطاب الظاهرة ، مغفلة الشمولية التى تؤلف وتوازن وتؤاخى بين كل الجوانب والعوامل والأقطاب لتخرج بمزيج جديد ومزاج متميز وموقف ثالث هو الحق بين باطلين والعدل بين ظلمين والاعتدال البرىء من التطرف ! ..

● وبالمضمون « الاسلامى ـ الحضارى » للعروبة ، الذى أرساه الرسول ، ﷺ ، عندما قال : « ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى »[٧].. بهذا المضمون الاسلامى للعروبة وللقومية برىء الأساس الذى رفعت عليه هذه الأمة قواعد قوميتها من « تعصب الشعوبية » ومن « العصبية القبلية » كليهما .. فهما مؤسستان على « العرق » المجافى لحقائق العلم ، وباعثتان لـ « دعوى الجاهلية » ، التى طلب منا الرسول ، ﷺ أن ندعها ونهجرها ، فقال : « دعوها فإنها منتنة »[٨] ! ..

بهذا الاسلام كانت « حياة » هذه الأمة .. وبه كان « إحياؤها » ! ..

* * *

لكن لله سننا فى الكون ، ونواميس فى حياة الأمم وتطور المجتمعات والظواهر الاجتماعية ، دائمة الفعل ، مستعصية على التوقف أو التبديل ... فالحياة والإحياء رهن بأسبابهما .. وعندما يوجد الضد تكون الثمرة هى النقيض ! ..

فالدولة العربية قد امتدت من « الأندلس » إلى « الصين » ، فضمت أمما وشعوبا وقبائل وجماعات وأجناسا شتى ، بينها شيء من الاتفاق وأشياء من الاختلاف ! .. وهذه الأمم والشعوب والجماعات قد تدينت بكل ديانات السماء والأرض ، بل وفيها من رفض أو جهل التدين بأى دين ! ..

والسنة الحميدة التى سنها الإسلام ، للمرة الأولى فى تاريخ تطور البشرية ومذاهب الفتح والفاتحين لخصتها آية القرآن الكريم : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[٩]، فتركت هذه الشعوب والجماعات ومالتدين به ، لم يجبرها الفتح العربى الاسلامى على توحيد هويتها فى الاعتقاد ... فكان « التنوع » فى المعتقد ثمرة من ثمرات هذه السنة الحميدة .. لكن الأهواء والأغراض ، والأحقاد والثارات قد دفعت هذا « التنوع » لتبلغ به درجة « الشقاق » !

وكما سن الاسلام سنة ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ، كذلك سن العرب سنتهم الحميدة

(٧) [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

(٨) رواه البخارى والترمذى .

(٩) البقرة : ٢٥٦ .

عندما لم يجبروا هذه الشعوب والجماعات على « التعريب » ، فتركوها لإغراء ميزات « التعريب » ومميزاته ، عندما توزن وتقارن بلهجاتها ولغاتها ومواريثها فى الفكر والآداب .. فكان « التعدد » فى القوميات شهادة يزهو بها الفتح العربى ورصيدا إيجابيا يفخر به الفاتحون ... لكن الأهواء والأغراض واختلاف المصالح .. وخاصة مصالح القوى التى دال سلطانها الظالم بالفتح العربى ـــ كان ذلك طاقة شريرة نفخت فى هذا التمايز القومى ليصبح « شعوبية » تسعى نارها للإتيان على قواعد الدولة من الأساس !..

وتجاه هذه « الشعوبية » المعادية لكل ماهو عربى ، جهارا نهارا .. والمعادية للإسلام ـــ لارتباطه بالعرب ، ولدور العرب فى مده ـــ فى السر والحقيقة والأساس .. تجاه هذه « الشعوبية » برزت ، ثانية ومن جديد ، « العصبية العربية » ، فنشرت صفحة طواها الاسلام .. بل لقد ذهبت هذه العصبية فأحيت مابين القبائل العربية من مفاخر وثارات وعصبيات دعا الرسول إلى تجاوزها وتركها ، لأنها « منتنة » ، كما قال عليه الصلاة والسلام !..

وإذا كانت « الشعوبية » قد أغرت غير العرب ، فى الدولة العربية ، بتقطيع أوصالها ، فبدأت حركة الاستقلال للأطراف ـــ كاملا أو منقوصا ـــ عن المركز ـــ الخليفة ـــ .. فإن « العصبية العربية » ، والاختلاف فى نهج الحكم وسياسة الأمة ، قد دفع تيارات فكرية وسلالات قبلية إلى حمل السلاح واشعال الثورات ضد المركز ـــ الخليفة ـــ .. فانضم إلى صراع « الشعوبية ـــ الأعجمية » ضد « العصبية العربية » ، صراع « الخوارج » ضد على بن أبى طالب [٢٣ ق.هـ . ٤٠هـ ٦٠٠ - ٦٦١ م] وضد الأمويين والعباسيين .. وصراع « العلويين » ضد بنى أمية وبنى العباس .. وهو صراع امتد بالتمزق إلى داخل الدولة ، فلم تعد الأخطار مقصورة عند حدود استقلال الأطراف ، بل امتدت ، فى شكل ثورات ، قطعت روابط الوحدة ، حتى على مقربة من المركز ـــ الخليفة ـــ ..

وأمام هذه الأخطار فكر الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ - ٢٢٧هـ ٧٩٥ - ٨٤١م] وقدر ، ثم أقدم على الخطأ المحورى والقاتل فى التطور الحضارى لهذه الأمة ، عندما ظن أن السبيل إلى مواجهة الصراعات بين أجناس الدولة هو تكوين القوة العسكرية الضاربة لهذه الدولة من عنصر غريب عن أجناسها ، مقدرا أن هذا العنصر ـــ الترك المماليك ـــ لغربته فى الجنس ، لن يكون طرفا فى هذه الصراعات ، إذ لامصلحة له فيها .. ولغربته فى الحضارة ، لن يكون طرفا فى المنطلقات القومية التى تغذى هذه الصراعات بمادة مستقاة من المواريث الحضارية لأطراف هذه الصراعات !..

لكن هؤلاء الجند الترك المماليك ، الذين بدأت مؤسستهم العسكرية فى صورة معسكر

« بسامراء » ، تابع لبغداد وخليفتها ، سرعان ما تضخمت مؤسستهم العسكرية هذه ، تبعا لاتساع مهام مواجهة الثورات والانشقاقات ، حتى أصبحت « سامراء » هى العاصمة ، فتبعتها بغداد ، وحتى تحولت الخلافة إلى لعبة بيد قادة هؤلاء الجند ، فرضوا عليها التسلط والسلطان ، منذ عهد الخليفة العباسى المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م] الذى استننوا بقتلهم له سنة سيئة طبعت العصر العباسى الثانى ، وغدت قسمة من أبرز القسمات فى عصر المماليك !..

ولقد كان هذا « التبدل » الذى طرأ على طبيعة السلطة الحقيقية والفاعلة فى الدولة العربية الاسلامية « **تحولا فى تطورنا الحضارى** » ، أصاب قسمات « العروبة » و« العقلانية » فى الصميم ... وبهذا التحول بدأ العد التنازلى — وإن فى بطء وتعرج ولولبية — لظاهرة الازدهار الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية ، ففيه تجسدت عوامل الضعف التى طرأت على هذا الازدهار الحضارى ، وبه أصيب هذا الازدهار فى الصميم .. فدخلنا ، حضاريا ، عصر « الجمود » ، « فالتراجع » ، « فالانحطاط » !..

ثم جاءت الأخطار الخارجية ، صليبية وتترية ، لتنضم إلى أخطار التمزق الداخلى ، فزادت من الضرورات التى أجبرت الأمة على تسليم المقود لهؤلاء العسكر الغرباء .. فأمام الخطر المدمر رجحت كفة « السيف » على « القلم » ، وغدت الأفضلية « للقوة » لا « للعقل » — وكان « السيف » وكانت « القوة » بيد هؤلاء العسكر الغرباء عن حضارة هذه الأمة — فاختل التوازن بين « السيف » و« القلم » ، وفقدت هذه الحضارة سمة « التوسط والوسطية » ، والجمع والتأليف الذى يثمر الموقف الثالث والجديد ... ثم كان امتداد هذه الأخطار الخارجية قرونا ، سببا امتد بهذه السلبيات ، التى نخرت فى روح حضارتنا ، لعدة قرون ، حتى وجدنا تلك « الظاهرة المأساوية » تمتد فى تطورنا الحضارى منذ سيطرة الترك المماليك التى بدأت [سنة ٢٢١هـ سنة ٨٣٦م] فى « سامراء » ، عبر كل دول العسكر المملوكية ، بل وعلى امتداد حكم الدولة العثمانية ، أى حتى عصرنا الحديث !..

هكذا تراجعت عوامل « الإحياء الاسلامى » — التى نهضت بهذه الأمة فأخرجتها من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة وتنويرها .. وعن هذا العامل المحورى فى هذا التراجع الحضارى يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] :

« انظر ، كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سببا فيما صار إليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة عباسى فى السياسة ... فظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ... فاتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم ... وأكثر من ذلك الجند الأجنبى ... فلم تكن

إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم ... هناك استعجم الاسلام والقلب أعجميا !.. »[10]

وعن هذا العامل أيضا يتحدث الامام الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] وهو يرصد « أهم عوامل التحلل فى كيان الدولة الاسلامية » فيقول : إن من أهم هذه العوامل « انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .... فهذا الاسلام الحنيف قد نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... وقد جاء فى الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ... فالعرب هم أمة الاسلام الأولى وشعبه المتخير ، ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتهم ... ولقد حدث التحلل فى كيان الدولة الاسلامية حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبة الاسلام وحراسه ... ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الاسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ... »[11]...

هكذا ــ ولهذه العوامل ــ تراجعت نهضتنا الحضارية ، وامتد هذا التراجع حتى القرن الثالث عشر الهجرى ــ الثامن عشر الميلادى ــ ..

---

(١٠) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢١٧ ، ٢١٨ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(١١) حسن البنا . رسالة « بين الأمس واليوم » و« رسالة المؤتمر الخامس » [مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا] ص١٣١ ، ١٧٦ . طبعة دار الشهاب . القاهرة .



الفصـــــل الأول

الصحوة الإسلامية



لكن أمة نشأت وتبلورت واشتد عودها فى بوتقة الصراعات مع التحديات ، ما كان لها أن تهجر ، نهائيا ، سبيل « الإحياء الاسلامى » ، وتستسلم ، أبدا ، لما طرأ على حياتها من « موات حضارى » ... خصوصا وأن إسلامها قد ظل ، رغم التخلف الحضارى ، هو فكرية جمهورها ، وموطن قداستها ، والمعيار الذى تزن به الصالح والطالح وتميز به ما بين النافع والضار ، والخطأ والصواب ...

صحيح أن البدع والخرافات قد تراكمت على جوهر الاسلام ، حتى استكن ، فغدا محتاجا إلى « التجديد » الذى يجلوه كى يعود إلى الفعالية المتناسبة مع ما يملك من طاقات ....

وصحيح أن سلطانه قد انسحب من دوائر « الفعل » إلى دوائر « الكمون » ، وبدت آثاره فى « الشكل » و« الشعائر » أكثر مما هى فى « المضمون » وتشكيل حياة المسلمين ...

وفى اللحظة التى بدأت فيها الدولة العثمانية [٦٩٩ - ١٣٤٢هـ ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م] تفقد ميزاتها وكفاءتها ـــ أى القوة التى جعلت منها جدارا أخر الاجتياح الاستعمارى لوطن العروبة وعالم الاسلام ـــ وعندما امتلأ هذا الجدار بالثغرات التى نفذ منها الغرب الاستعمارى ، بالامتيازات الأجنبية ، وبالتقليد لحضارته الذى سمى « تحديثا » ! ، عند ذلك اختلج ضمير هذه الأمة ، واستيقظت حواسها ، وتنبهت مشاعرها على وقع موجة جديدة وحديثة من موجات التحدى الحضارى التاريخى والقديم .. موجة الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة ، التى بدأت بحملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [سنة ١٢١٣هـ سنة ١٧٩٨ م] والتى امتدت بعد ذلك إلى الشام ..

وكما كان الاسلام هو باعث هذه الأمة وصانع يقظتها فى القديم .. كذلك رآه قادة اليقظة والصحوة الحديثة الباعث والصانع للصحوة المرجوة ، التى لابد منها كى لا تسقط

الأمة ــ بعد عجز العثمانيين وإفلاس قوتهم العسكرية ــ تحت أقدام الصليبية الأوربية الحديثة ...

ومنذ البداية ، كان واضحا لدى طلائع اليقظة الاسلامية العربية أن السبيل إلى الإحياء والصحوة والنهضة هو سبيل إسلامي ، يستهدف تجديد « دنيا » المسلمين بتجديد « دينهم » ، وأن هذا العمل التجديدى لابد وأن يواجه الخطرين ، المتعارضين فى الظاهر ، والقاتلين كليهما لعوامل الصحوة وطاقات الإحياء :

● **خطر التخلف « المملوكى ــ العثمانى »** الذى غدا قيدا على عقل الأمة وحركتها ، حتى جعلها فريسة سهلة تغرى الغازى الأوربى بالالتهام والاحتواء ..

● **وخطر « التقدم الأوربى »** : الذى جاء مسلحا بالحضارة الأوربية المادية وثورتها الصناعية وتقدمها العلمى وقوتها العسكرية .. يريد معاجلة هذه الأمة كى لاتستيقظ فتنجو من خطر التخلف العثمانى وخطر تقدم الأوربيين !..

ولقد حسب العثمانيون ، ومن نحا نحوهم فى النظر والتقدير والتدبير ، أن السبيل إلى تجنب شراك الغزوة الأوربية هو الانكفاء على الذات ــ التى كانت قد تشوهت حضاريا ــ والعض على الموروث بالنواجز ــ والموروث هنا كان ميراث عصر التراجع والانحطاط ــ ...

بينما حسب الذين انبهروا بانتصارات الحضارة الأوربية أن سبيل النجاة من التخلف العثمانى ، وتقليل مضار الغزوة الأوربية ، كامن فى أن نسعى لنكون أوربيين ، نفكر كما يفكرون ، ونحيا كما يحيون ، ونصيب كما يصيبون ونخطىء كما يخطئون ؟! ..

لكن الذين تمثلت فيهم خصائص هذه الأمة ، وتجسدت فى مسعاهم قسماتها ، وشرفوا بالتعبير عن ذاتيتها وأصالتها ، قد رأوا سبيل اليقظة والصحوة متمثلا فى التصدى للخطرين وللتحديين معا : التخلف « المملوكى ــ العثمانى » .. و« التقدم الأوربى » .. فبنفيهما ، وبالخلاص من آثارهما تستطيع الأمة أن تتخلص من « الوافد ــ الضار » ، ومن ثم تعود إلى خير ما فى ترسانتها الحضارية وكنوز تراثها ، فتبنى نهضتها الحديثة ، امتدادا متطورا لعصر الازدهار الحضارى الذى صنعه أسلافها العظام ...

لقد أدرك تيار الصحوة الإسلامية أنه أمام تحد حضارى ينوش ذاتية الأمة ويسعى للحيلولة بينها وبين الانعتاق والانطلاق ، وأحد جناحى هذا التحدى ماثل فى قيود التخلف المملوكى العثمانى ، التى طرأت على مسيرة الاسلام والمسلمين الحضارية فدفنت نارها المتوهجة وضوءها المتألق تحت الرماد .. فلابد ــ للبعث الإسلامى ــ من كسر هذه القيود .. أما الجناح الثانى لهذا التحدى فمتمثل فى « التغريب » الأوربى ، القادم فى

ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ، يعني سحق الشخصية القومية المتميزة للأمة ، وإفناء طابعها الحضارى الخاص ، أو تشويهه ، سعيا إلى تحويلها إلى « هامش حضارى » للمركز الأوربى ، ليس لمجرد العنصرية والاستعلاء ، وإنما ضمانا لتأبيد وتأبيد أهداف هذه الغزوة التى أرادت وتريد : نهب الثروات ، وجعل بلادنا سوقا لسلعهم ، وشعوبنا أيد عاملة رخيصة ، وتحويل الأرض إلى قواعد عسكرية تحمى هذا الاستنزاف والاستغلال .. أى جعلنا هامشا لأوربا فى الاقتصاد والأمن ... وهم ، بهذا « التغريب » ، قد أرادوا تفادى مصير غزوتهم الصليبية الوسيطة [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] يوم انتهت آثارها بتحرير أرضنا من حصونهم وقلاعهم وكياناتهم الاستيطانية .. فأرادوا ، هذه المرة ، « بالتغريب » تأبيد تبعيتنا لهم حتى بعد اضطرارهم إلى الجلاء عن بلادنا ؟!..

وأمام هذا التحدى الحضارى المزدوج أدرك تيار الصحوة الاسلامية أن الأمة فى منعطف تاريخى يشبه كثيرا ذلك الذى واجهته عندما ظهر الاسلام .. فالعرب ، بالاسلام وتحت أعلامه ، قد واجهوا الغزوة البيزنطية ، التى استفادت من ضعف الفرس وعجزهم عن قيادة الشرق وحمايته فبسطت سلطانها وتسلطها على أغلب أجزاء الشرق ... وفى ذات الوقت واجهوا الجاهلية الفارسية ، التى تحولت بالجهالة والظلم والعجز إلى قيود وأغلال فى أعناق الذين أصابهم تسلطها وسلطانها .. واجهوا هذا التحدى الحضارى بجناحيه ، وكان لواء القيادة معقودا للعرب ، كى يقودوا الشرق ، بالاسلام وتحت راياته ، لمواجهة هذا التحدى .. فكان انجازهم العسكرى والسياسى والحضارى العملاق ..

أدرك تيار الصحوة الاسلامية تلك الحقيقة التاريخية ، وآمن أن هذا « القانون » الذى حكم نهضة هذه الأمة قديما لابد وأن تتاح له سبل العمل لإنهاضها اليوم من جديد .. فلن يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به ماضيها .. فبالاسلام ، وبالعرب طليعة لأممه وشعوبه يمكن ويجب التصدى لهذا التحدى الحضارى — « الجديد — القديم » — بجناحيه :

● التخلف « المملوكى — العثمانى » ... الذى أصبح قيدا فى أقدام الأمة وأغلالا فى أعناقها .

● والتقدم الأوربى ... الزاحف ليحتوى ذاتيتها الحضارية ، ويمسخ هويتها القومية كى يؤبد ما أراد لأرضها وإنسانها من نهب وسيطرة واستغلال .

* * *

وعلى امتداد قرنين من الزمان — هى عمر تيار الصحوة الإسلامية هذا — يستطيع الباحث عن رموز هذا التيار ومعالمه ، وعن فصائله ومدارسه ، وعن تنظيماته وجمعياته ، أن يميز ويصنف العديد من الفصائل والجماعات ، وأن يرصد تمايزا فى الفكر بداخل تيار

الصحوة الإسلامية هذا ... **وهو مبحث على جانب كبير من الأهمية ، لأنه يتجاوز بقيمته « الدرس التاريخى » إلى حيث يصبح « درسا للحاضر » و« توجيها للمستقبل » ، مستقبل تيار الصحوة الاسلامية ، الذى لم يبلغ هدفه حتى هذا التاريخ ؟!..**

إن أمتنا مازالت تواجه التحدى الحضارى ... صحيح أن التخلف العثمانى قد زال من طريقها .. ولم يبق من آثار فكرية العصور المملوكية العثمانية إلا بقايا تعشش فى عقول أفراد ومناهج مؤسسات وصفحات كتب هى أشبه ما تكون بأحجار متلكئة ــ شذوذا ــ من زمن مضى فى مجرى تطور التاريخ !... لكن الخطر الحقيقى والرئيسى هو خطر السيطرة الاستعمارية « والتغريب » الذى وضع أمتنا فى قيود التبعية لأعدائها التاريخيين ... بل إن هذا الاستعمار وذلك التغريب هو الذى نهض بالدور الرئيسى فى إزاحة التخلف العثمانى من الطريق ، ليرث مكانه ، وليملأ فراغه ، وليحل « تغريبه » محل الفكرية التى تميز بها عصر المماليك والعثمانيين .. أى أن الاستعمار وتغريبه هو الذى انتصر فى السباق الذى قام بينه وبين تيار الصحوة الاسلامية .. السباق على وراثة عصر وتركة دولة « الرجل المريض » ، فكانت الغلبة فى هذا السباق وذلك الرهان لسيطرة الاستعمار وتيار « التغريب » ... ومن ثم فالمعركة مازالت قائمة ، بل ومحتدمة ، بين الصحوة الإسلامية وبين التحدى الحضارى . وهو غربى فى الأساس ــ وسواء أكان ليبراليا أو شموليا ــ ... ومن هنا تبرز أهمية الدراسة لمعالم ورموز وفصائل تيار الصحوة الإسلامية ، باعتبارها **دراسة تتعدى حدود « الدرس التاريخى » لتصبح زادا للفصائل الحاضرة لهذه الصحوة يعين على تعميق الفهم ، واكتشاف الأخطاء ، وتبين المخاطر ، والرؤية الواضحة التى تجعل الاسلام دليل عمل للحركة الاسلامية ينير لها الطريق إلى تجديد حياة الأمة وإنهاضها من المأزق الذى هى فيه ..**

* * *

وإذا كانت الصحوة الاسلامية اليوم تواجه تحديا حضاريا غربيا ، فى الأساس ــ ليبراليا كانت قسمته أو شموليا ــ .. فلقد كانت بدايتها الأولى مواجهة مع التخلف العثمانى فى الأساس .. إذ لم يكن فى موطن هذه البداية ــ « نجد » بشبه الجزيرة العربية ــ حيث ظهرت الدعوة والحركة الوهابية ــ لم يكن هناك من خطر غربى بارز أو ملحوظ ....

● فالوهابية : التى اشتهرت تسميتها هذه نسبة إلى داعيتها وشيخها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] قد كانت طليعة دعوات اليقظة الإسلامية العربية ، وأول إرهاصات عصر أمتنا الحديث ...

تبلورت « دعوة دينية سلفية » ، تدعو للعودة إلى الاسلام كما فهمه العرب الأوائل من

نصوص قرآنه الكريم ... صحيح أن نطاق سلفيتها هذه ، بسبب من بساطة البيئة وبداوتها ، وبسبب من المنهج النصوصى الذى ورثته عن الحركة السلفية التى تبلورت من حول الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] وفكره ، قد كان نطاقا ضيقا ، جعلها تسقط من تراثنا الإسلامى والحضارى المنهج العقلى علومه وما تأسس عليها من تمدن — وتلك واحدة من أبرز سلبياتها التى حصرت تأثيرها الحقيقى فى بيئتها البدوية البسيطة — ... لكننا عندما نتدبر الواقع الذى مثل التحدى الذى استنفر هذه الدعوة واستنهض همة شيخها ودعاتها ومقاتليها ، لا نجد بذلك الواقع تيارا عقلانيا قامت الوهابية لتتحداه .. فالذى كان هناك ، والذى نهضت الوهابية لتجاهد ضده كان البدع والخرافات والشعوذة التى غطت بركامها الغريب على جوهر الاسلام ، حتى لقد كادت أن تطمس أعظم ما يتميز به هذا الدين ، وهو نقاء عقيدة التوحيد ... وهذا الركام الوافد والطارىء على عقائد الاسلام ، كان يمثل ، يومئذ ، قسمة من قسمات « الفكرية العثمانية » .. والذين يراجعون سيل الكتب التى صنفت يومئذ للرد على تجديد الوهابية يدركون جيدا أن صراعها الرئيسى قد كان ضد التخلف العثمانى ، المتمثل ، أولا ، فى الفكرية التى كرست ، بل وقدست ما طرأ على جوهر عقائد الاسلام من بدع وخرافات وإضافات[1].. فالسلفية الدينية التى سلكتها الوهابية سبيلا لتجديد عقائد الاسلام الدينية ، كانت تعنى تحريرالضمير المسلم من ذلك الوافد الغريب والضار ، ومن ثم العودة بالدين — وبالذين يؤمنون به — إلى موقع التميز الحضارى ... وإذا كان المفكر السلفى ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] قد جعل من عبارة : « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » عنوانا لأحد كتبه فإن « الصراط المستقيم » الذى دعا إليه ابن عبد الوهاب كان يعنى مخالفة الفكرية السائدة فى الدولة العثمانية ، بل ومجابهتها بالتحدى !..

ثم إن الوهابية لم تقف عند حدود « الدعوة التجديدية » ، بل ذهبت فأقامت لها « دولة » إسلامية عربية ، فكان ذلك — على الجبهة السياسية — تحديا آخر لما يمثله العثمانيون فى واقع الأمة بذلك التاريخ ...

والذى يزيد من أهمية هذا « التحدى السياسى » ، أن الوهابية ، كحركة سلفية ، كانت تتبنى الموقف السلفى الذى يرى فى « قرشية » الإمام والخليفة شرطا ضروريا .. ذلك هو موقف إمامها أحمد بن حنبل ، الذى يؤكده فقيهها أبو يعلى الفراء [٣٨٠ - ٤٥٨هـ

(١) أنظر — على سبيل المثال -: [كتاب مصباح الأنام وجلاء الظلام فى رد شبه البدعى النجدى التى أضل بها العوام] تأليف علوى بن أحمد بن حسن بن قطب الحداد . وكذلك [رسالة فيما يتعلق بأدلة التوسل بالنبى وزيارته] تأليف أحمد بن زينى دحلان — وهى مطبوعة بهامش الكتاب الأول — طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

٩٩٠ - ١٠٦٦ م] عندما يشترط أن يكون الخليفة « قرشيا فى الصميم »[٢]؟!.. وموقف فكرى كهذا لا يمكن إلا أن يكون تحديا لمشروعية خلافة آل عثمان على المسلمين ، وعلى العرب منهم على وجه الخصوص !..

هكذا كانت الوهابية طليعة فصائل الصحوة الاسلامية ، عندما تصدت بالسلفية الدينية المجددة ، وبالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، تحديا لنمط الفكرية العثمانية المتخلف ، الذى مثل — فى أقدام الأمة واعناقها وعقولها — قيودا وأغلالا تغرى الغزاة الأوربيين بالزحف على ديارها .. كما كانت بالتوحيد الخالص ، الذى دعت إليه وبشرت به ، إسهاما طيبا فى إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضارى لأمتنا على جبهة العقائد والشعائر الدينية ... فهى واحدة — بل وطليعة — فى تيار الصحوة الاسلامية الحديثة[٣]..

● والسنوسية : التى كونها إمامها : محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩م] كانت الثانية فى فصائل الصحوة الاسلامية الحديثة ... ولقد تميزت عن الوهابية بصراعها ضد المد الاستعمارى الغربى ، الذى كان يزحف على موطنها — فى ليبيا وفى جنوبها — من الشمال والغرب والجنوب .. وشاركت الوهابية فى الدعوة إلى عروبة الخلافة ، وهى وإن لم تقاتل العثمانيين — كما صنعت الوهابية ، لتغاير الظروف والدواعى — إلا أنها كانت تحديا لنمطهم الفكرى وعجزهم المسيطر ، كما كانت تحديا للوافد الغربى الاستعمارى ، احتلالا ونهبا وتغريبا ..

كما تميزت السنوسية عن الوهابية بتميز قسمة الاجتهاد فيها ، فلقد مزجت السلفية النصوصية بشىء من براهين العقل ، واتخذت من التصوف سبيلا لتهذيب النفوس !..

وبـ « الزوايا » التى أقامتها السنوسية خلقت مجتمعها المتميز ، فكانت العقيدة سبيلا للحركة ، صنعا معا مجتمعا جديدا ..

ونحن عندما نقرأ كلمات السياسى الاستعمارى الفرنسى جابرييل هانوتو **G. Hanotaux** [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] عن السنوسية ، نجده يتحدث — فى حقد غاضب — عن كفاحها للمد الاستعمارى الغربى .. فهو يراها — بمنطقه وبتعبيره — « مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين » .. أى أن كفاح الاستعمار الأوربى هو « مبدأ تأسست عليه السنوسية » !.. حتى

---

(٢) انظر أبو يعلى الفراء : [الأحكام السلطانية] ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م . و[كتاب الإمامة] ص٣٤٠ ، ٣٤١ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م — ضمن مجموعة عنوانها [نصوص الفكر السياسى الاسلامى — الإمامة عند السنة] نشرها الدكتور يوسف أيبش — .

(٣) انظر ما كتبناه عن الوهابية فى كتابنا [تحديات لها تاريخ] ص١٤٩ — ١٥٦ طبعة بيروت سنة ١٩٨٢ م . وكتابنا [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

لقد اتخذت موقف الحذر ، بل والمقاطعة أحيانا ، للدولة العثمانية بسبب انصياع هذه الدولة لدول الاستعمار الغربى ، بالعجز والقصور .. كما يتحدث هانوتو عن « كراهية السنوسية للمدنية الحاضرة » التى حملها المستعمرون الأوربيون إلى بلاد الإسلام[٤]!..

عندما نقرأ كلمات هانوتو هذه ندرك مكان السنوسية ـــ فى مراحل شبابها وعطائها وثوريتها ـــ فى تيار الصحوة الإسلامية الذى عبر عن حيوية الأمة أمام التحدى الحضارى الذى واجهته على أعتاب عصرها الحديث[٥]..

● **والمهدية** : هى تلك التى أسسها ، بالسودان ، إمامها محمد بن أحمد ـــ « المهدى » ـــ [١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] .. كانت ثالثة فصائل تيار الصحوة الإسلامية ، التى مثلت ، فى بيئتها المحلية أساسا وبالدرجة الأولى ، التصدى الفكرى والنضالى للتحدى الحضارى لأمتنا ، بجناحيه : التخلف العثمانى .. والتقدم الأوربى باستعماره وتغريبه ..

ولقد كان صراع المهدية ضد الاستعمار الغربى حادا وشاقا وطويلا .. ووضوحه وشهرته يغنيان عن التفصيل فى مثل هذا المقام ..

وكذلك كان صراعها ضد الأتراك العثمانيين .. فعداء المهدية للنظام الخديوى بمصر هو اثر من آثار عدائها للأتراك .. لأن تضامنها مع المد الوطنى المصرى ، المتمثل فى الثورة التى قادها أحمد عرابى باشا [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ - ١٩١١ م] واضح لكل دارسيها .. بل إن المهدى ليذهب فى عدائه للترك العثمانيين إلى الحد الذى يجعل منه دينا أوصاه به النبى ، ﷺ ، فى الرؤيا ، فيقول : « لقد حرضنى الرسول ، ﷺ ، على قتال الترك .. وجهادهم .. فالترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لا يطهرهم إلا السيف ! »[٦]

كذلك كانت المهدية حركة تجديد سلفية ، دعا إمامها قومه إلى إسقاط « ترهات فايت الزمان » ! وإلى « اتباع كلام الله فى القرآن » و« اقتفاء آثار من سلف من المهتدين السالفين ، على نهج محمد ، ﷺ » .. وقال لهم : « لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين ، فلكل وقت ومقام حال ، ولكل زمان وأوان رجال ! »[٧]..

---

(٤) انظر كتاب [الاسلام والرد على منتقديه] ص١٨ ـــ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

(٥) انظر ما كتبناه عن السنوسية بكتابنا [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م . وكتابنا [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

(٦) [منشورات المهدية] ص٧٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ . تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٧) المصدر السابق . ص٣١ ، ٢٢٨

فعلى بساطة إبداعها الفكرى ومحدوديته ، كانت سلفيتها تجديدا يتحدى التخلف العثمانى ، ويعود بالأمة إلى حصنها العتيد ـــ الاسلام ـــ لتواجه التحدى الحضارى ، بجناحيه : العثمانى المتخلف ، والاستعمارى الغربى التغريبى[8]..

لقد كانت هذه الدعوات والحركات الثلاث : الوهابية .. والسنوسية .. والمهدية ـــ رغم بساطة فكرها السلفى التجديدى ، واختصاصها ـــ عمليا ـــ بالبيئة المحلية التى نشأت فيها ـــ طلائع المد الاسلامى الحديث وبواكير الصحوة الاسلامية التى نهضت لتواجه التحدى الحضارى ، بجناحيه : التخلف العثمانى .. والتقدم المادى الأوربى ... بل لقد رأت هذه الدعوات تلك الخيوط التى تربط هذين الجناحين ، فتؤلف منهما تحديا حضاريا واحدا ؟!.. ولنتأمل كلمات الإمام الثانى للسنوسية ، وابن مؤسسها أحمد الشريف السنوسى [١٢٨٤ – ١٣٥١ هـ ١٨٦٧ – ١٩٣٣ م] التى تقول : **إن الأتراك قد أصبحوا « مقدمة النصارى »** ـــ [أى المستعمرين الأوربيين] ـــ .. أما والده فهو القائل : « **الترك والنصارى ، إلى أقاتلهم معا ؟!** »[9].. « فالتخلف العثمانى » قد جرد الأمة من إسلامها الثورى ، فلما أضيف إليه « العجز العثمانى » عن مواجهة الغرب الاستعمارى ، أصبح العثمانيون « مقدمة الغرب » ـــ وياللمفارقة المأساوية ـــ كما قال السنوسيون ، ومن ثم وجب التصدى لهذا التحدى الحضارى الذى « تألف » من هذين « النقيضين » معا ؟!..

وإذا كان النطاق المحلى قد حد من فعاليات دعوات وحركات اليقظة هذه ، فحجب تأثيرها عن أن يعم فيتحول إلى تيار إسلامى عربى عام ، وذلك لبداوة « الوهابية » التى جعلت تأثيرها الأفعل فى « نجد » وما حولها مما شابه ظروفها ... ولاستغراق « السنوسية » فى مناهضة التحديات التى أثقلت كاهلها حتى أعجزتها .. ولاتخاذ « المهدية » من « الأسطورة » سبيلا ألفت به وحدة شعب لم يتوحد قبل هذا التاريخ .. إذا كان هذا هو الطابع العام لها ـــ والذى لا تنفيه تأثيرات محدودة لها هنا أو هناك ـــ فإن الأمر لم يكن كذلك مع تيار اليقظة والتجديد الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ – ١٣١٥ هـ ١٨٣٨ – ١٨٩٧ م] .. وهو التيار الذى مثل أبرز فصائل الصحوة الاسلامية الحديثة .. والذى عرف بتيار [الجامعة الاسلامية] .

(٨) انظر دراستنا عن المهدية بكتابنا [العرب والتحدى] ص١٧٥ – ١٩٤ . وبكتابنا [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

(٩) د . أحمد صدقى الدجانى [الحركة السنوسية] ص٢١٦ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م . ولوثروب ستودارد [حاضر العالم الاسلامى] بتعليق شكيب ارسلان ـــ ترجمة عجاج نويهض . جـ١ ص٢٩٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

الفصـــل الثانـــى

الجامعة الإســـلامية



فى النصف الثانى من القرنين : الثالث عشر الهجرى والتاسع عشر الميلادى نشأ وتبلور تيار « الجامعة الاسلامية » ، الذى قدر له أن يكون أكثر تيارات الصحوة الاسلامية خطرا وفاعلية فى عصرنا الحديث ..

فهو قد تبلور من حول فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغانى .. وكان الرجل جواب آفاق ، بحكم صداماته التى لا تنتهى مع رموز التحدى الحضارى الذى تواجهه الأمة ، استعمارية كانت تلك الرموز أو عثمانية .. ومن ثم فلقد امتد تأثير هذا التيار فشمل ساحة الأمة الإسلامية ، ولم يقف عند حدود رقعة خاصة ، كما كان حال الوهابية ، مثلا ..

وكان الأفغانى صاحب عقل متميز ، لا نبالغ إذا قلنا إنه فى الصف الأول من عقول النوابغ الذين ازدان بهم تاريخ حضارتنا بعد أن صنعوا هذا التاريخ .. عقل صنفه فيلسوف مثل إرنست رينان Renan [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] مع ابن رشد وابن سينا والفارابى ! .. وهو قد استوعب تراث الاسلام فى عصر ازدهار حضارته ، ووضع يده على عوامل التخلف التى طرأت على هذه الحضارة ، ثم نهض بعزم حديدى ، كان مضرب الأمثال ، يدعو الأمة إلى نهضة إسلامية . تقهر بها التحدى الحضارى المفروض عليها ، وتتجاوز بها المأزق الذى وضعها فيه أعداؤها ، وتصل بها الحاضر والمستقبل بعصر عطائها الحضارى العظيم ..

وكان الأفغانى يرى أن عبقرية حضارة الاسلام وامتيازها إنما يكمنان فى تميزها عن غيرها من الحضارات ، تميزها « بالوسطية » التى وازنت وألفت بين ما يحسبه الآخرون فى الحضارات الأخرى متناقضات لا سبيل إلى تعايشها ، فضلا عن التأليف بينها فى منظومة فكرية وحضارية وسلوكية واحدة .. والموازنة بين « العقل » و« النقل » ، بين « الغيب » و« الشهادة » ، بين « الحكمة » و« الشريعة » ، بين « الدين » و« الدنيا » ، بين « الدنيا » و« الآخرة » ، بين « الفرد » و« الجماعة » ، بين « المادية » و« الايمان » ، بين « الشك »

و« اليقين »، بين « السلم » و« الحرب » ، بين « السيف » و« القلم » .. الخ .. الخ ... الخ ..

وكان الأفغانى يدرك أن التحدى الحضارى الذى تواجهه الأمة ، بجناحيه :

- العثمانى .. الذى استعصى على الإصلاح ، والذى فرض فكرية متخلفة ــ انتسبت إلى الاسلام زورا ــ على الأمة ، فغدت قيدا يعجزها عن المقاومة والنهضة ..
- والاستعمارى الغربى « الزاحف كالسيل الجارف والمدمر ، يسلب الأمة الأرض والثروة والأمن والهوية ..

كان يدرك أن هذا التحدى ، بجناحيه ، قد استقطب جمهور الأمة .. فعامتها قد استناموا ، بالتقليد والتواكل ، لفكرية عصر المماليك والعثمانيين ، وأصبحت بضاعتهم الفكرية هى بضاعة عصر الانحطاط الحضارى ... أما الصفوة التى انبهرت بحضارة الغازى المنتصر فلقد تملكها الوهم بأن سبيل النهضة هو تقليد الغرب ... فالكل مقلد ، والنموذج الذى يقلدونه لا صلة له بما يميز هذه الأمة وما تمتاز به حضاريا ؟! ... ولذلك كانت عبقرية الأفغانى ، وتيار « الجامعة الاسلامية » ، أن دعا الأمة إلى الموقف الثالث ، الرافض لجمود مقلدى فكرية عصر الانحطاط .. والرافض للذوبان الحضارى بتقليد حضارة الغزاة ...

أمام هذا الاستقطاب دعا الأفغانى إلى « الوسطية » « **فكل المذاهب والمبادىء لها طرفان ، وخير الأمور أوساطها** .. »[1]... وهذه الدعوة إلى هذه « الوسطية » ــ كما يقول الإمام محمد عبده : « **قد خالفت رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم** .. »[2]... فهى تختلف مع ــ بل وتتحدى ــ :

- الذين عكفوا على « الموروث العثمانى » ، حاسبين أن فيه النجاة من « التغريب » ..
- والذين اندفعوا إلى « التغريب » ، متوهمين أنه السبيل إلى النهضة والانطلاق ..

* * *

نقد التخلف العثمانى :

لقد حاولت « الجامعة الاسلامية » نقد أوضاع الدولة العثمانية بهدف إصلاحها ، والاستفادة بإمكانياتها فى الصراع ضد الخطر الرئيسى ، خطر الاستعمار والتغريب .. فلما

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٤١٧ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص٣١٨ . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

يئست من الاصلاح لهذه الدولة ، علقت الآمال على قيادة العرب للصحوة والنهضة المرجوة .. وبعبارة الأفغانى : « لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع — [المتعلقة بإصلاح الدولة] — فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له .. **فحولت وجهى عن مالا يمكن إلى مايمكن ، وفيه وقاية مابقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوربا ..** »[٣]

ولقد ارتبط نقد تيار « الجامعة الاسلامية » للتخلف العثمانى بإبراز أهمية قيادة الأمة العربية للنهضة الاسلامية المرجوة .. فالمسار التاريخى لهذه الحضارة شاهد على أن التراجع قد بدأ عندما استعجمت « السلطة » فأصابت « الحضارة » بسهام هذه العجمة ، ولمكان العربية من الدين ، ولدور العرب فى تلقيه وفقهه ونشره ، وأيضا لإمكانياتهم الحاضرة ، بالقياس إلى بقية أمم الاسلام ، بل ولمكانتهم فى نفوس هذه الأمم ، لابد من دور متميز ، بل وقائد للأمة العربية فى هذه النهضة الاسلامية التى تستهدف النهوض بكل عالم الاسلام ..

إن استيلاء غير العرب — رغم إسلام هذا الغير — على السلطة قد كان ولا يزال عامل تراجع وتخلف واضمحلال ، يستوى فى ذلك أن يكون هذا الغير « الأتراك المماليك » ، أو « الديلم » أو « الأتراك العثمانيين » ! ..

وعن بدء هذه الظاهرة السلبية فى تاريخنا ، وما أحدثته فى تطورنا الحضارى ، يقول الامام محمد عبده عن سيطرة الترك فى العصر العباسى : « انظر ، كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار إليه أهله : **كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة عباسى فى السياسة ... فظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ... فاتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم ... وأكثر من ذلك الجند الأجنبى ... فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم ... هناك استعجم الإسلام والقلب أعجميا !..** »[٤]

أما الأتراك العثمانيون فلقد تشبثوا بعجمتهم ، ورفضوا الاستعراب .. بل وأمعنوا فى غرور العجمة إلى الحد الذى توهموا فيه إمكانية « تتريك » الأمة العربية ، فحاولوا ؟! .. « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة .. ولو أن الدولة

---

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٢٣٧ .

(٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٢١٧ ، ٢١٨ .

العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة .. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين ـــ [العربية والتركية] ـــ النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية . بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الاسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات ... كيف يعقل تتريك العرب ؟! وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ؟! .. وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر .. إن الأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب ! .. »[(٥)]

لقد شذ العثمانيون عن سلوك سبيل كل « الدول » غير العربية التى حكمت العرب ، فالكل قد تعرب ما عدا العثمانيين « فإنهم لم يقبلوا أن يستعربوا . والمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا » بتقليدهم للغرب ، فى الوقت الذى « يفتخرون فيه بمحافظتهم على غيرية رعاياهم ! » كما يقول أحد أعلام « الجامعة الاسلامية » عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ – ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ – ١٩٠٢ م][(٦)]... بل لقد أمعنوا فى هذا الخطأ القاتل حتى توهموا إمكانية « تتريك العرب » « وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى ؟! » كما يقول الأفغانى .

لقد انتقص موقف العثمانيين إزاء العروبة والاستعراب من قيمة إسلامهم ، إذ حرمهم مما أعطاه الاسلام للأمة العربية عندما اعتنقت هذا الدين .. فعدم الاستعراب قد أبقاهم بمعزل عن روح الحضارة الاسلامية ، وهو عربى ، وعن جوهر الحضارة العربية ، وهو إسلامى ، ففقدوا ميزة التحضر بهذه الحضارة التى هى « عربية ـــ إسلامية » معا ؟! .. وهكذا ظلوا « على بداوتهم الصرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم يبقلوا سواها للبلاد التى فتحوها ... ولم يحسنوا من أعمال الدنيا غير « الحرب » ، وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص فى شئون العمران ، أقل روية وعملا من سواهم ! .. »[(٧)]

لقد افتقدوا ، برفض الاستعراب ، الجانب الحضارى فى الاسلام ، وبقى تدينهم بالاسلام فى إطار « الشكل » أساسا ، ولم يدخل بهم إلى رحاب « مضمون » التدين بالاسلام ؟! .. وذلك لما بين « الاسلام » الدين و« العروبة » من رباط عضوى وثيق ... « نعم ، إنهم تدينوا بالاسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ، **لكن على بعد سحيق فى فهم معانى القرآن وآداب اللسان** . والعرب لو كانوا مثلهم ، لما استطاعوا أن يكونوا

(٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٦) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص٣٢٤ . دراسة وتحقيق : محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٢٢٤ ، ٢٣٦ .

أحسن أثرا منهم ، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الأموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف ! »[٨].. « إن الأتراك لم يخدموا الاسلامية بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم ؟! » كما يقول الكواكبى[٩]..

وإذا كانت هذه هى العلاقة العضوية بين « العروبة » وبين « الاسلام » .. وهى العلاقة التى جعلت « محمدا » ﷺ ، رسول الانسانية .. ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، فى آن واحد » والتى جعلت « الأمم التى تدين بالاسلام وتقبل هدايته ، تتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلم لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الاسلام » — كما يقول قطب « الجامعة الاسلامية » عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ – ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ – ١٩٤٠ م][١٠].. إذا كانت تلك هى علاقة « العروبة » « بالاسلام » فإن الدور المتميز والقيادى للعرب فى النهضة المرجوة — عند تيار « الجامعة الاسلامية » — أمر لا ريب فيه « فالعرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . إنهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا .. »[١١]

لكن العثمانيين ، الذين رفضوا الاستعراب طريقا للتحضر ، وتلافيا للعجز عن الابداع فى العمران ، وخروجا من البداوة الصرفة التى غلبت عليهم ، فأورثتهم الضعف أمام الغزوة الأوربية الشرسة ، هؤلاء العثمانيون قد وقعوا فى حبائل الغرب ، بالضغط أو بالإغراء ، فالتقطوا « طعم التحديث الغربى » ، على حين رفضوا « الصورة العربية للتمدن الاسلامى » ! .. فمنذ شروعهم فى « التنظيمات » ، التى اتجهوا إليها قبيل منتصف القرن التاسع عشر اتجهوا « لتقليد التحديث الغربى » ، لكن فقر الجسم العثمانى فى الحضارة ، جعله أشبه ما يكون بالجسد المحتضر ، العاجز عن تمثل الطعام ، أيا كان هذا الطعام ، فلم يفده « التقليد » فى الوقت الذى كان عاجزا فيه عن « الابداع » ! . وبعبارة الكواكبى : فلقد « اندفعت الدولة لتنظيم أمورها ، **فعطلت أصولها القديمة ، ولم تحسن التقليد ولا الابداع ، فتشتت حالها !** » فلما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته كانت قد فقدت ، أمام الغزوة الأوربية ، ثلثى أملاكها ، بينما أشرف الثلث الباقى على الضياع[١٢].. **وبتزايد اتجاه العثمانيين**

---

(٨) المصدر السابق . ص ٢٢٤ .

(٩) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٣٢٥ .

(١٠) [كتاب آثار ابن باديس] ج٣ ص ١٩ ، ٢١ . إعداد وتصنيف د . عمار طالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

(١١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٣٥٨ .

(١٢) المصدر السابق . ص ٣٢٠ .

« للتحديث الغربى » ، تزايد تداخل الغرب فى شئون الدولة .. فبقى « الواقع » متخلفا ، يعيش فى العصور الوسطى ، بينما « تغربت » نخب اندفعت بعصبية « القومية الطورانية » لتضرب رباط الملة والدين الذى يجمع الأتراك بالعرب ، فاستفز ذلك العرب فابتلعت نخب منهم ذات الطعم ، وشب حريق الصراع الذى حذر منه الأفغانى عندما دعا إلى استعراب الأتراك .. فكان انهيار الامبراطورية لحساب الغرب أساسا ، أما فتات المائدة فكان للنخب المتغربة فى تركيا والدول العربية ! ..

لقد ارتبط « التخلف العثمانى » بـ « التغريب » ، بعضهما ببعض ارتباط وجهى العملة الواحدة .. فالأول قد أتاح للثانى التسلل .. والثانى قد حرس الأول وحافظ عليه حتى تحين ساعة الوفاة فيرث ما خلّف من أملاك ! .. والامام محمد عبده يربط بين جناحى هذا التحدى ، حتى ليجعل من الثانى عقوبة لمن رضى بالأول ! .. « فالمسلمون بسبب ابتداعهم فى دينهم ، وخطئهم فى أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، تسلط عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لاقبل لهم بدفعه ، إلا إذا تداركهم الله بلطفه . وقد ابتلاهم الله بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه ـــ إذا ذكره ـــ بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده نبع شقائهم وسبب فنائهم ! »[١٣]

نعم .. لقد اتهم « المتغربون » إسلامنا هذه الاتهامات .. لأن صورة الاسلام ، التى قدمها الجامدون المتخلفون ، لم تكن تمت بصلة إلى الاسلام الحقيقى ، الذى بلور الأمة وأبدع حضارة هى إحدى مفاخر الانسان عبر تاريخه الطويل !..

هذا عن نقد تيار « الجامعة الاسلامية » لـ « التخلف العثمانى » ، كأحد جناحى التحدى الحضارى الذى واجهته الأمة فى ذلك التاريخ ..

والتصدى للتغريب :

أما تصدى تيار « الجامعة الاسلامية » للمد « التغريبى » ، الذى زحف على بلادنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فلقد شغل الحيز الكبير فى فكر هذا التيار ...

فالأفغانى ـــ رائد هذا التيار ـــ قد كان حربا على المد الاستعمارى الغربى أينما حل أو

---

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٣١ .

ارتحل .. بالسلاح ، وبالقلم ، وبالتنظيم ... فى الأفغان ، والهند ، ومصر ، وفارس ، والحجاز ، والسودان ، وتركيا ، والعراق .. الخ .. الخ ... وتنظيم [الحزب الوطنى الحر] ، الذى أقامه ، سريا ، بمصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادى .. ثم تنظيم [العروة الوثقى] ، السرى ، الذى تزعمه فى الثمانينيات ، والذى امتدت فروعه ـ [عقوده] ـ من مصر والسودان إلى الهند ... كل ذلك كان بعضا من جهود هذا التيار ، تصديا لهجمة الاستعمار على ديار الاسلام ..

وإذا كان الرجل قد قاد القتال ضد الانجليز فى أفغانستان .. ومهد للثورة المصرية التى قادها أحمد عرابى فى مطلع الثمانينيات .. ودعا المصريين للعصيان المدنى ، وللثورة المسلحة ضد الاحتلال الإنجليزى ... فإن كتاباته فى كشف أهداف الاستعمار ووسائله تشكل واحدة من أعمق وأخلص وأرق صفحات أدبنا السياسى الحديث ... إنه القائل : « **أنرضى ، ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ؟! .. وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولايرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولاذمة ؟! بل كل همه : أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها ، بعدنا ، أبناء جلدته ، والجالية من أمته ؟!! ..** »(١٤)

والخائن ـ عنده ـ ليس من يسلم بلاده للعدو ، وحده ، بل ومن يركن للدعة حيث يستطيع زلزلة أقدام الغزاة .. « **فلسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس ـ وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس ! ـ بل خائن الوطن : من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها !** »(١٥)

والاستعمار الذى حاربه الأفغانى لم يكن الاحتلال العسكرى وحده ، ولا السيطرة الإدارية والحكومية فقط .. فالرجل قد أبصر المضمون الاقتصادى لهذه الهجمة الاستعمارية .. وأدرك دور الامتيازات الأجنبية التى منحها ويمنحها الحكام المسلمون للدول الاستعمارية ، دورها فى التمهيد للغزو العسكرى ، وفى تأييده وإطالة أجله .. فكتب يقول : « **إن مصدر الشقاء ومنبع البلاء فى الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات الأجنبية ؟!** »(١٦).. وعندما منح الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٦ - ١٣١٣ هـ ١٨٣١-

---

(١٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٥٦ .

(١٥) المصدر السابق . ص ٥٠٢ .

(١٦) المصدر السابق . ص ٢٠٠ .

١٨٩٦م] المستعمرين الانجليز امتيازات أجنبية ، منها الأراضى ، والمبانى ، والمياه ... ومنها إنشاء « بنك » يمسك زمام الحركة المالية فى إيران ، أثار الأفغانى الشعب وعلماءه ضد هذه الامتيازات ، وتحدث عن « البنك » ودوره فى السيطرة الاستعمارية التى تسلب الأمة مقدراتها ، فقال : « ... **والبنك ! وما أدراك ما البنك ؟! هو إعطاء الأهالى كلية بيد عدو الإسلام ، واسترقاقه لهم ، واستملاكه إياهم ، وتسليمهم له بالرياسة والسلطان ؟! ..** »[١٧]

وصراع الأفغانى ونضاله من أجل تحرير مصر — لما أبصر من دورها القائد — يحتل مكانا متميزا وبارزا فى كفاحه العملى وكتاباته السياسية[١٨].. وكذلك متابعاته لقضية السودان الوطنية[١٩].. وقس على ذلك ما صنع لتحرير الهند[٢٠].. وإيران .. وأفغانستان[٢١].. الخ .. الخ ..

أما فى المغرب العربى فإن نضال تيار « الجامعة الاسلامية » — الذى تمثل فى [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] بقيادة ابن باديس — هو الذى أنقذ هذه البلاد من « الفرنسة » ، وصد عن ذاتيتها الحضارية ذلك السحق الذى مارسه الفرنسيون بوحشية فاقت كل التصورات .. ثم تصاعد هذا النضال حتى حمل الثوار السلاح فحرروا الأرض وأعادوا الأمة إلى أحضان العروبة والإسلام[٢٢]..

أما « التغريب » و« التحديث الغربى » ، اللذين تمثلت فيهما « روح الحضارة المادية الغربية » ، واللذين حملهما الاستعمار إلى بلادنا فى ركاب غزوته الحديثة ، فزرعهما فى « العقل » وفى « الواقع » ، وساعد على تبلور تيار من « الصفوة » يؤمن بهما ، ويبشر بطريقهما سبيلا وحيداً للنهضة .. أما هذا « التغريب » وذلك « التحديث » ، فلقد كان لهما نصيب ملحوظ فى فكر تيار « الجامعة الإسلامية » ، كشفا وتعرية وتحذيرا وتفنيدا ..

فحضارة الغرب — كما يقول الكواكبى — حضارة مادية ، والانسان « الغربى :

(١٧) المصدر السابق . جـ٢ ص ٢٧٤ — من الطبعة الثانية لأعماله الكاملة . بيروت سنة ١٩٨١ م .

(١٨) المصدر السابق . جـ٢ ص ٩٥ - ٢٠١ .

(١٩) المصدر السابق . جـ٢ ص ٢٠٥ ٢٦١ .

(٢٠) المصدر السابق . جـ ص ٢٨٩ - ٣٠٨ .

(٢١) المصدر السابق . جـ٢ ص ٢٦٥ - ٢٨٥ .

(٢٢) انظر الفصل الذى كتبناه عن « ابن باديس » بكتابنا [مسلمون ثوار] ص ٢٣٥ - ٢٧٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

مادى ، لادين له غير الكسب »[٢٣].. فبينها وبين حضارتنا « الوسطية » خلاف بين .. فحضارتنا ، والاسلام جوهرها ، قد جمعت ووازنت ما بين « المادة » و« الروح » .. وكما يقول الامام محمد عبده : « .. **فلقد ظهر الاسلام ، لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل إنسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة** ، وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدوه : المدرسة الأولى التى يرق فيها البرابرة على سلم المدنية ! . »[٢٤]... فطريقنا إلى النهضة الحضارية ليس طريق الغرب و« التغريب » !..

وإذا كانت الحضارة الغربية قد قدمت ، وتقدم — فى الفكر الاجتماعى :

● « **الليبرالية — الرأسمالية** » : التى تغلب جانب « الفرد » على « المجموع » إلى الحد الذى أثمر ذلك الحقد المدمر بين الطبقات ..

● « **والشمولية — الاشتراكية** » : التى هى رد الفعل الحاقد على المظالم الاجتماعية « للبراليتهم — الرأسمالية » — الأمر الذى يهدد المجتمعات الغربية بالكوارث ...

فإن تيار [الجامعة الاسلامية] قد قدم عدل الاسلام الاجتماعى ، المركوز فى الدين والمتسق مع طبيعة الأمة ، والبرىء من تطرف « الإفراط » و« التفريط » كليهما ..

« **فالاشتراكية الغربية — [برأى الأفغانى] — ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة « الانتقام » من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ،** الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم .. واستعملوا ثروتهم فى السفه ... **وهى الآن محض ضرر ، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .. فكل عمل يكون مرتكزا على الافراط لابد وأن تكون نتيجته التفريط ؟!** » ...

ثم يمضى الأفغانى ليعرض للفكر الاجتماعى الاسلامى المتميز ، فيقول : « **أما الاشتراكية فى الاسلام ، فهى ملتحمة مع الدين الاسلامى ، ملتصقة فى خلق أهله ، منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية ! ..** »

ثم يضرب الأمثلة على تطبيقات الاسلام بميدان « الاشتراك » فى الثروة ، دون تجريد الناس منها بـ « إخاء ومؤاخاة » الرسول ﷺ ، بعد الهجرة ، بين المهاجرين والأنصار ... ويخلص إلى أن تطرف الفكر الغربى ، قد جعل الاشتراكية هناك « كلمة حق يراد بها باطل » ! .. بينما **هى فى الاسلام وسط .. وخير الأمور أوساطها** .. ولذلك « **فهى عين**

(٢٣) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٢٠٨ .

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٢٥ .

الحق ، والحق أحق أن يتبع ! .. »[٢٥]

أما معالم هذه « الوسطية الاسلامية » فى الفكر الاجتماعى ، لدى تيار [الجامعة الاسلامية] فيمكن تحديدها فى :

- أن الاسلام يجعل المال ملكا لله .. والناس مستخلفون فى هذا المال .. أى أن « ملكية الرقبة » لله .. وللناس فيه « ملكية المنفعة » ، التى هى « الوظيفة الاجتماعية » للمال ..
- أن تكافل الأمة الإجتماعى هو البديل والعاصم من الصراع الطبقى المدمر لوحدة الأمة وتضامنها .. فعندما يلمح الامام محمد عبده إضافة القرآن المال لضمير الجمع فى سبع وأربعين مرة ، على حين أضيف لضمير الفرد سبع مرات فقط .. يقول : « إن الله ينبه بذلك على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها ، فكأنه يقول : « إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم »[٢٦] ؟! ..

والكواكبى يرى أن المال مستمد من « فيض الله ، أودعه فى الطبيعة ونواميسها .. » والعمل هو السبيل للاختصاص بشىء منه « فالمال هو قيمة الأعمال ، ولا يجتمع فى يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع .. والأرض الزراعية ملك لعامة الأمة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط .. »[٢٧] ! ..

فتميز فكر الجامعة الاسلامية عن « فكرية التغريب » على هذه الجبهة أيضا ! ..

وإذا كانت الحضارة الغربية لم تعرف « الوسطية الاسلامية » التى ألفت بين ماعد هناك متناقضات لا سبيل للتأليف بينها .. وإذا كانت قد اختارت « المادة » دون « الروح » ، وانحازت إلى « الكسب » دون « القيم » ، فإن حضارتنا قد أقامت « العلاقة الجدلية » بين « الفكر » و« الواقع » — وكذلك بين سائر الأقطاب فى الظواهر — .. وعن العلاقة بين « الفكر » وبين « الواقع » يتحدث جمال الدين الأفغانى فيقول : « إن الأفكار العقلية ، والعقائد الدينية ، وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية ، وإن كانت **هى الباعثة على الأعمال** ، وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، **لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس عليها** ، حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .. نعم ، **إن الانسان إنسان بفكره وعقائده** ، إلا أن ما ينعكس إلى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه ، يؤثر فيه أشد التأثير ، **فكل شهود يحدث فكرا ، وكل**

---

(٢٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ .

(٢٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] حـ٥ ص ٢٠١ .

(٢٧) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ١٧٠ ، ١٧١ .

فكر يكون له أثر فى داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار ، ما دامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبل هو للآخر عماد [٢٨]

فحضارتنا ، قبل كل شيء ، « حضارة مؤمنة » ، إنسانها « إنسان بفكره وعقائده » قبل كل شيء .. و« الأفكار » فيها « هى الباعثة على الأعمال » ، لكن « الفكر » يقوى ويتدعم « بالواقع والعمل » ، لأن انعكاسات « الواقع » هى « فكر » يغنى ويطور ويدعم ، بل ويعدل ، « الفكر » الذى بدأ منه الانطلاق ! .. فهى لا تعرف « الثنائية » التى تميزت بها الحضارة الغربية ، عندما أقامت التناقض بين « الفكر » و« المادة » ، بين « الدين » و« الواقع » ، بين « الانسان » و« الطبيعة » ... ثم انحازت الى « المادية » و« العلمانية » انحيازا مطلقا ! ..

وإذا كان « التغريب » قد باض وأفرخ فى « المدارس المدنية » الحديثة ، وفى روح علومها التى قلدت الروح المادى للحضارة الغربية ، ثم استوى فى عقول « الصفوة » التى تعلمت فى هذه المدارس ، تعليم تقليد خلا من الحس المميز والنظرة النقدية ، لافتقار أصحابه إلى الوعى بالروح البديل الذى تقدمه حضارتهم العربية الاسلامية .. إذا كان هذا هو دور « المدارس المدنية » الحديثة ، وأهلها فى تيار « التغريب » ، وما يمثله فى التحدى الحضارى لأمتنا ، فلقد انتقد تيار « الجامعة الاسلامية » ما أصاب حياتنا التعليمية من ازدواج ، قسمها بين أهل الجمود ، الذين يمثلون التخلف العثمانى .. وأهل « التغريب » ، الذين يمثلون روح الحضارة الغربية .. دون أن يكون لحضارتنا نحن فى هذا الميدان الحيوى مكان ولا نصيب ؟! ..

والأفغانى يوجه النقد الى حصون « التغريب » هذه ، فى الدولة العثمانية وفى مصر ، فيقول : « لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية . ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » . وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى !.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟!.. نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ـــ [القومية] ـــ وماشاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ... فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! .. وأماتوا أرباب

(٢٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٦٠ .

الصنائع من قومهم .. وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! .. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ؟! .. »[٢٩]

فهذا « التحديث الغربى » ليس هو « تمدننا الاسلامى » .. بل إنه ليس حقيقة « التمدن الغربى » ، لأن التمدن نبت طبيعى يرتبط بالمناخ الذى نما فيه ، فإذا استعير إلى مناخ مغاير — كما هو الحال مع مناخ حضارى مغاير كمناخنا الحضارى — لم يبق منه سوى « الشكل » .. إنه سيكون أشبه ما يكون بالعود الجاف الذى لا حياة فيه ... يستوى فى ذلك ان يكون « روحا » فى العلوم الانسانية تجعل العلم الإنسانى ماديا يشيع الإلحاد ... أو شعارات ودعوات لامعنى لها فى غير البيئة التى أثمرتها وافرزتها ... أو أنماطا للعمارة والبناء والمأكل والملبس وطرائق العيش ... فجميع ذلك داخل فى « تقليد الأشكال واستعارة القشور » ، بعيد عن معنى « التمدن » الصحيح ...

والأدهى من ذلك أن هذا التقليد — [التحديث الغربى] — يربط الأمة بسلاسل التبعية لغزاتها وأعدائها ، سواء فى الفكر أو فى الاقتصاد .. فتموت حرفنا وصناعاتنا ، وتنتقل ثرواتنا إلى الذين يصدرون لنا سلع حضارتهم ... وباعتياد التبعية تتسع شرائح الذين ربطوا عقولهم ونمط حياتهم واستهلاكهم بالغرب الاستعمارى ، حتى ليدافعون عن حضارته ونمطه فى العيش والتفكير إلى الحد الذى يصبحون فيه طابورا خامسا يتطوع كى يكون الطليعة للجيش الغازى ، يمهد له السبيل ، ويفتح له الأبواب ، ثم يثبت أقدامه فى أرض الوطن !

تلك هى مخاطر التغريب ، كما تمثل ويتمثل فى « التحديث » على النمط الغربى ، دونما تمييز بين ما ينفع منه وما يضر . ودونما اتخاذ روح حضارتنا ميزانا نزن به عند الاختيار ..

لقد أدرك تيار « الجامعة الاسلامية » خطر « المتغربين » على استقلال الأمة ومستقبلها .. وقال الأفغانى عنهم : إنهم « أشد وطأة على الشرق وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم وتثبيت أقدامهم ! » .. إنهم يعرفون من تاريخ الآخرين ما لايعرفون من تاريخ أمتهم ، ويرددون من آداب الغرب ما لايعلمون عشر معشاره من آدابهم ، وتعى ذاكرتهم من أسماء عظماء الغرب مالا تعى من أسماء أبطال العرب والاسلام .. وياليتهم قد وعوا ما عرفوا وعى الناقد المستفيد .. ولكنهم وقفوا عند « الترديد » و« التقليد » ، ثم أكبروا الغرب واحتقروا ذاتيتهم الحضارية ؟! « فهؤلاء الناشئة ، الذين

---

(٢٩) المصدر السابق . ص ١٩٥ - ١٩٧ .

بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلموه من اللسان ، على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير من قطع مراحل ، من الغربيين ، فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته ، بدون أن يسبروا من ذلك غورا ، أو يفهموا لتدرجهم معنى ! . ويعتقد الناشيء الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه ، فيجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه وأهل بلده ، ويأنف من أى عمل لم يشارك فيه الأجنبى ؟! .. »[30]

ذلك هو خطر « التغريب » ، وهذا هو خطر « المتغربين » .. الجناح الأخطر فى « التحدى الحضارى » الذى يواجه العرب والمسلمين ..

* * *

ونهضة حضارية متميزة :

وإذا كان « التخلف العثمانى » يقف بتراثنا عند حدود « فكرية عصر الانحطاط » ، ولا يزكى نهج التفاعل الراشد والخلاق مع الحضارات الأخرى ، عجزا ، أو جهلا أو جمودا ... وإذا كان « التغريب » يدعو إلى الانسلاخ عن « التراث » ... فإن تيار « الجامعة الاسلامية » قد دعا إلى بناء النهضة على :

- **الأصول الصالحة من تراثنا الحضارى ...**
- **وما هو ضرورى ومناسب ومفيد لنهضتنا من إنجازات الآخرين ...**

« ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في إحدى اليدين ، وماقرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم ! »[31]

ذلك أن التفكير للعصر لا يعنى الانقطاع عن التراث ، كما أن السعى للنهضة لا يستلزم البدء من حيث انتهى الأوربيون ، « **فالظهور فى مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض من الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ... ولا ضرورة ، فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية**

---

(٣٠) المصدر السابق . ص ١٩٠ .

(٣١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

الأخرى ، ولا ملجيء للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته . بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر[٣٢] نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها ؟! .. »[٣٣]

وإذا كان « التخلف العثمانى » قد تنكر « للعقل » وبراهينه ، وسادت فى فكريته الخرافة والشعوذة .... وإذا كان « التغريب » يدعو إلى « عقلانية » تهمل « الوحى » أو تنكره وتتنكر له .... فإن تيار « الجامعة الاسلامية » قد صدر فى هذه القضية من الموقف الأصيل لحضارتنا الاسلامية العربية ، موقف الموازنة والمؤاخاة بين « العقل » و« النقل » ، بين « الحكمة » و« الشريعة » ، باعتبارهما دليلان مخلوقان لخالق واحد ، صاغهما ، سبحانه وتعالى ، لهداية الانسان ...

● فالسلفية الدينية ـــ التى هى ثورة تجديدية ـــ ترفض إلحاد الغرب ، وتنكر تنكره للتراث .. وتتخطى الطارىء والوافد المتمثل فى فكرية عصر الانحطاط ـــ هذه السلفية الدينية تعنى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى »[٣٤]... ولذلك فإن « التجديد » هو سبيلها الذى لا سبيل سواه .. تجديد الدين « بإعادة نواقصه المعطلة ، وتخليصه من زوائده الباطلة ..»[٣٥].... وأداة هذا « التجديد » هى العقل « فالعقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته ، والتصديق بالرسالة .... أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة والعبادات ... » بل إن « العقل هو جوهر إنسانية الانسان ، وهو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة ! .. »[٣٦].... بل إنه « محور صلاح الانسان وفلاحه »[٣٧] ، إن فى أمور الدنيا أو أمور الدين ..

وفى ذلك رفض لموقف جناحى التحدى الحضارى ـــ التخلف العثمانى ، والتغريب الأوربى ـــ كليهما ..

(٣٢) أوقر نفسه : أثقلها بالحمل الثقيل حتى أعجزها .

(٣٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ .

(٣٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣١٨ .

(٣٥) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ص ١٨٧ .

(٣٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣٢٥ ، جـ٥ ص ٤٢٨ ، جـ٣ ص ٢٩٨ .

(٣٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ .

وإذا كانت « الفكرية العثمانية » قد توهمت وأوهمت بوجود « كهانة » و« سلطة دينية » فى فكر الاسلام السياسى ، على النحو الذى عرفته وحبذته الكاثوليكية الأوربية فى العصور الوسطى .. ثم جاء « التغريب » يدعونا إلى « علمانية » تفصل الدين عن الدولة والمجتمع .. فإن تيار « الجامعة الاسلامية » ـــ فى هذه القضية ـــ يرفض هذين الموقفين كليهما .... « **فالإسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ... وللإسلام دولة** ... لأنه لا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة ... **وهذه الدولة إنما تقوم بالأمة** ... »[٣٨]... فهى ، إذن ، ليست « الحكومة الالهية ـــ الثيوقراطية » ولا « السلطة الدينية » ، التى عرفتها أوربا ، والتى نشأت « العلمانية » لمناهضتها ... « **فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه** ... والسلطة الدينية فيه هى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ... **وما للخليفة أو القاضى أو المفتى أو شيخ الاسلام من سلطة فهى سلطة مدنية** ، إذ لم يجعل الاسلام لأحد من هؤلاء سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ! .. »[٣٩].. ولذلك كانت دولة الاسلام مدنية شورية ، الأمة فيها هى مصدر السلطات ، شريطة ألا تحل ماحرمه الله أو تحرم ما أحله الله .. **فالحكم يجب أن يكون بالأمة** ، **أى « الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح .. ذلك أن القوة النيابية لأى أمة لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة** ... »[٤٠].... « والحكمة والعدل فى أن تكون الأمة ، فى مجموعها ، حرة مستقلة فى شئونها ، كالأفراد فى خاصة أنفسهم ، فلا يتصرف فى شئونها العامة إلا من تثق بهم من أهل الحل والعقد ، المعبر عنهم فى كتاب الله بأولى الأمر ، لأن تصرفهم ، وقد وثقت بهم ، هو عين تصرفها ، **وذلك منتهى ما يمكن أن تكون به سلطتها من نفسها** ! .. »[٤١]

ثم ... إذا كان « التغريب » قد جاء ليبشر بنهضة تقتفى أثر النهضة الأوربية ، التى ناهضت الدين ، أو أهملته وهى تجدد شئون الدنيا .. فإن تيار « الجامعة الاسلامية » قد حدد بجلاء ووضوح ان تمايز حضارتنا عن الحضارة الأوربية ، وتميز ديننا ـــ بنظرته الشمولية ـــ عن المسيحية .. لا يجعل للعلمانية مكانا فى نهضتنا المرجوة .. فهى نهضة إسلامية ، ينهض فيها « تجديد الدين » بدور السبيل إلى « تجديد الدنيا » ! .. وتيار الجامعة الاسلامية ، بأعلامه

---

(٣٨) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٨٧ ، جـ٤ ص ٦٨٢ ، ٦٨٣ .

(٣٩) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٨٦ ، ٢٨٥ .

(٤٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٣ ، ٤٧٧ .

(٤١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص ٢٥٨ .

الذين غطوا ساحة الأمة ، وبالتنظيمات التى ضمت صفوة الأمة ـــ [العروة الوثقى] و[أم القرى] و[جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر] .. الخ ـــ إنما « ينحصر مقصدهم فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه . ويمكن أن يقال : إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو : تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ ، فى فهم نصوص الدين . حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الإصلاح منهم إلى الأمة »[42]

وهذه الغاية ـــ أو الغايات ـــ التى تبدأ بتصحيح عقيدة الانسان ، اى تجديد دينه ، لتتجدد وتصلح حياة الفرد ، ثم حياة الأمة ... سبيلها هو الإسلام ، فهو فكرية الأمة ، وموطن قداستها ، ولسلطانه على ضمائرها ما يجعل الإصلاح بواسسنه الأكثر أمنا والأسرع نفعا ، فضلا عن أنه الطبيعى ، بل والبديهى ، إذا نحن ذهبنا نختار بين سبل الاصلاح ... فالاسلام « سبيل لمريد الإصلاح ، فى المسلمين ، لا مندوحة عنها ، ذلك أن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوج المصلح إلى بناء جديد ليس عنده من مواده شىء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟! »[43]..

* * *

هكذا كان تيار « الجامعة الاسلامية » ... أبرز تيارات الصحوة الاسلامية وأخطرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والعقد الأول من القرن العشرين ....

وهكذا كان تصديه للتحدى الحضارى الذى واجهته الأمة ، بجناحيه :

- التخلف العثمانى ...
- والتغريب الأوربى ...

فلقد تصدى بالإسلام ـــ ومن خلال جهد تجديدى عملاق ـــ لهذا التحدى ، الذى مثل « الوافد الضار » على خصوصية حضارتنا الاسلامية العربية وأصالتها .

(٤٢) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٣١ .

(٤٣) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٣١ .

الفصـــل الثـالـث

جمـاعـة الإخوان المســلمين



لقد بلغت الحرب العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م] بالوطن العربى والعالم الإسلامى قمة المأساة ؟! ..

فالوطن العربى قد سقط بأكمله ، تقريبا ، تحت الاحتلال الاستعمارى الغربى .. و« الخلافة » العثمانية قد أزالتها « العلمانية » التركية التى تزعمها كمال أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ ١٩١٤ - ١٩٣٨ م] فطويت صفحتها [سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م] ... وهكذا ضاع « الرمز » و« الشكل » الذى كان قد بقى « للتيار الاسلامى » ، يرجو له الإصلاح ويحاول فى بنائه الترميم !... كما ضاع أمل « التيار القومى » العربى فى الدولة العربية القومية المستقلة ، ووضحت خديعة الاستعمار لهذا التيار ، فلقد استعان به فى الحرب ضد العثمانية ، فى ذات الوقت الذى كان يوزع فيه وطنه ، وفق معاهدة « سيكس ــ بيكو » [سنة ١٣٣٤ - سنة ١٣٣٥ هـ سنة ١٩١٦ - سنة ١٩١٧ م] بين أطراف المد الاستعمارى .. ويمهد السبيل « بوعد بلفور » [سنة ١٣٣٦ هـ سنة ١٩١٧ م] لقيام كيان صهيونى عنصرى استيطانى ، يقطع امتداد أرض الأمة العربية ، فيحول دون وحدتها ، ويكون بمثابة القوة الضاربة لأحلام هذه الأمة ومساعيها فى التقدم والوحدة والانعتاق !..

ولقد زاد من الخطر والمخاطر على الذاتية الحضارية المتميزة للعرب والمسلمين ، وأثقل من كاهل التيار الاسلامى ، أن التيار القومى ، الذى عزل الفكرة القومية عن الرابطة الاسلامية ، وعن جذورها الدينية ــ عربيا كان أو « طورانيا ــ تركيا » ــ رغم فجيعته فى الاستعمار الغربى ، بعد اقتسامه البلاد ، وخلفه للوعود .. **ورغم تحول هذا التيار من محالفة الدول الاستعمارية إلى الثورة عليها .. إلا أن ولاءه الفكرى قد ظل معقودا للحضارة الغربية ، يرى فيها : الحضارة الوحيدة ، وفى طريقها : طريق التحديث والقوة الوحيد ! .. لقد كان « تيارا وطنيا ــ قوميا ــ مدنيا » ، اعتقد أن طريق الحضارة الغربية**

هو طريق « التمدن » الوحيد !..

وبعد أن فرض الغرب سيطرته الاستعمارية الكاملة على الوطن العربى ، وما وراءه من بقاع العالم الاسلامى ، زادت محاولات الغرب الجادة لاحتواء العرب والمسلمين حضاريا ، وتصاعدت مخاطر « التغريب » مجسدة « التحدى الحضارى » الرئيسى فى تلك المرحلة التاريخية .. لقد تحولت البلاد إلى « هامش لاقتصاد الغرب » ــ بعد أن تحولت إلى « هامش لأمنه » ــ يقدم العمالة الرخيصة ، والمواد الخام بأثمان رمزية ، وأصبحنا مجرد سوق لسلع الحضارة الصناعية الغربية وأدواتها .. ولقد بدأت تلك السلع والأدوات تلعب دورها فى تحويل الشرائح التى تسكن المدن ، وخاصة المثقفين منهم إلى الحياة على النمط الغربى الأوربى ، وساندتها فى ذلك الأفكار والقيم الوافدة مع الغزاة المنتصرين .. وزاد من فعالية تيار « التغريب » هذا التألق وتلك العظمة والهالة التى أحاطت بالحضارة الأوربية ، ذات التقدم الذى بهر الأبصار والبصائر فى بيئة متخلفة أخذ بنوها يقارنون هذه الحضارة وإنجازاتها الضخمة ، فى الصناعة والزراعة والتجارة والعلم والفكر والأدب والفن ، بالتخلف والركاكة والبؤس الفكرى الذى عاشوا فيه قرونا طويلة تحت حكم المماليك والعثمانيين .. ولقد أسهمت فى زيادة الدهشة والانبهار لدى الصفوة المثقفة :

١ - أن هذه الصفوة لم تعرف من تراثها الاسلامى سوى صورته « المملوكية ــ العثمانية » ، لأن الصلة كانت قد انقطعت بتراث « الإسلام : الحضارة » ، بل وبجوهر تراث « الاسلام : الدين » فى نقائه وصفائه ، منذ أن تراجعت حضارتنا عن النمو والعطاء ..

٢ - أن حركة الاستشراق ــ فى مجملها ــ قد تعمدت بث روح الهزيمة فى عقول الأمة وقلوبها ، بإبراز الجانب السلبى والمظلم من تراث أمتنا ، وبرد كل إيجابيات هذا التراث إلى تراث أوربا اليونانى ، الأمر الذى رسب فى عقول الصفوة المتغربة أن أمتنا لم تصنع مجدا حقيقيا غابرا ، متميزا وخاصا ، فأنى لها أن تصنع شيئا من ذلك ، وهى على ماهى عليه من الضعف الذى وصل بها إلى حد الهزيمة أمام الأوربيين ، أبناء الحضارة الفريدة الوحيدة المنتصرة ؟!..

٣ - أن مراكز التبشير بحضارة الغرب ، دينية وفكرية وتعليمية ، قد سارت على درب حركة الاستشراق ، فى نزع ثقة أمتنا بذاتها ... ولقد كانت تلك المراكز ــ كما كانت حركة الاستشراق ــ إلا قليلا منها ــ طلائع للمد الاستعمارى الغربى ، نازلت عقول الأمة بالأسلحة الفكرية منازلة الجيوش الاستعمارية لجيوشنا الوطنية سواء بسواء !..

٤ - أن جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت « المصنع » الذى هيأ وصنع القيادات السياسية والفكرية الوطنية التى أخذت « تشارك » السلطة المحتلة فى إدارة مرافق البلاد .. حتى أصبحنا ندرس على يدى أعداء العروبة والاسلام ــ ووفق

مناهجهم — كل شيء ، بما فى ذلك اللغة العربية وعقائد الاسلام ؟!..

فكانت الثمرة : « تيار التغريب » ، الذى علا صوته حتى انفرد بالساحة ، فى المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب والديوان .. وفى طرائق العيش ، ومناهج التفكير .. بل وفى القيم والمعايير والأخلاق !.. الأمر الذى أجبر التيار الإسلامى — وخاصة ذلك الذى وقف به الجمود عند فكرية العصر العثمانى — على التقوقع والانزواء .. وكادت المقولة التى تزعم : أن تقدمنا رهن بأن نصبح غربا فى الحضارة ، وأن هذا هو الطريق لنكون شركاء للغرب ، بدلا من أن نظل مجرد هامش تابع له .. كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات !..

ومع وضوح خطر « التغريب » واشتداده وانتشاره ، وضحت مخاطر « العلمانية » على شمولية الاسلام ... فالعلمانية واحدة من قسمات الحضارة الغربية الرئيسية ، ولقد تعلقت بها الصفوة المثقفة ، سواء منها من تعلق « بليبرالية » الغرب أو « بشموليته » !.. ولقد زاد من اقتناعهم بهذه العلمانية ، توهمهم أن « الاسلام السياسى » قد يشق الوحدة الوطنية والقومية فى وطن تتعدد فيه الأديان ، وتمتلىء ربوعه بالجاليات الأجنبية غير المسلمة ، ودعم من هذا الوهم أن صورة الاسلام عند هذه الصفوة المتغربة كانت هى صورته فى عصور الانحطاط ، تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين .. وهى صورة مثقلة بمظاهر التخلف ومشوهة بالشعوذة والخرافة التى غطت جوهر الإسلام الأصيل ... فهى لم تتعرف على « الاسلام : الحضارة » ، لأن المستشرقين كانوا أعلم منها بالتراث !.. كما لم تتعرف هذه « الصفوة المتغربة » ، بشكل كاف على الإسلام كما قدمه تيار « الجامعة الاسلامية » ، لأن فكر هذا التيار كان مضطهدا من الاستعمار ، ومن تيار « التغريب » ، فلم يحتل المواقع فى « المؤسسات الحديثة » ، وكان مضطهدا كذلك من أهل الجمود ، الذين ظلوا قابعين فى فكرية العصور الوسطى مع المماليك والعثمانيين !.. فلم يأخذ مكانه فى « المؤسسات التقليدية القديمة » .. ومن هنا انفرد بريق « العلمانية » بالصفوة المتغربة فزاد من خطر تغربها على شمولية الاسلام والذاتية الحضارية المتميزة للمسلمين .. ومن هنا كان النجاح الذى تحقق « للعلمانية » عندما اكتسبت لها المواقع فى دوائر الفكر والسياسة ذات النفوذ والتأثير ..

وأمام هذا النجاح الذى حققه تيار « التغريب » ، لاح الخطر فى الأفق واضحا وعظيما ... فالوطن الذى تحول إلى « هامش » لاقتصاد الغرب الاستعمارى وأمنه ، يوشك أن يتحول إلى « هامش لحضارته » ، ولو تم ذلك فستتأبد التبعية ، وتذوب الهوية ، وتمسخ الشخصية الحضارية والقومية ، ويستحكم الاستغلال !..

وهنا ، وفى هذا المنعطف التاريخى ، عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد[1]..... فتطلعت الأمة ، بالفطرة والوعى معا ، إلى حصنها العتيد ، إلى الإسلام ... وكان أن برز وتعاظم تيار الصحوة الاسلامية ، الذى تبلور هذه المرة « منظما ــ وجماهيريا » ، والذى بدأ بتأسيس الإمام الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] لجماعة [الاخوان المسلمين] [سنة ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م] .. وهى الجماعة التى أصبحت أوسع حركات الإصلاح الاسلامى وتنظيماته انتشارا وتأثيرا بعالمى العروبة والاسلام فى عصرنا الحديث ...

ونحن نستطيع أن نلمح فى « صورة الاسلام » لدى هذه الجماعة عددا من السمات ، منها :

١ - أن [الاخوان المسلمين] ، كحركة إحياء إسلامى ، لم يكن الاسلام عندها كما هو عند « المؤسسات الدينية التقليدية » ، تلك التى ظلت واقفة عند « المتون » و« الحواشى » و« التعليقات » و« التهميشات » التى أفرزها عصر المماليك والعثمانيين .. بل تقدم [الإخوان] خطوات ، فتجاوزوا فهم هذه المؤسسات للإسلام .. ومن هنا كانوا فصيلة من فصائل تيار التجديد ..

٢ - لكن [الإخوان المسلمين] لم يبلغوا فى فهمهم للإسلام وتجديدهم له ولفكره ، وفى طرحهم الحلول الاسلامية لمشكلات العصر الفكرية ما بلغته حركة « الجامعة الاسلامية » ، التى بلور فكرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وعبد الحميد بن باديس .. الخ .. الخ .... فدرجة « العقلانية » لدى تيار [الجامعة الاسلامية] لانجدها عند [الاخوان المسلمين] ، كما لا نجد عندها الجرأة فى تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما عرضت لهذه القضايا ... **وربما كان فى مقدمة أسباب ذلك أن « الجامعة الاسلامية » لم تكن تنظيما جماهيريا ، ينخرط فيه « العامة » وينهض بنيانه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية فى الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيلاً بلغ فى « العقلانية » درجة إن تلائم « الصفوة » فقد لا تلائم « العامة » ولا « الجمهور » ؟!..** وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث فى المجتمعات المختلفة ، وفى أية مرحلة من مراحل التاريخ .. وفى تراثنا أمثلة تشهد لذلك ... [فالمعتزلة] ، مثلا ، وهم فرسان « العقلانية الاسلامية » فى تراثنا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر « الفلسفى » فى بنائهم النظرى !..

---

(١) انظر كتابنا [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م . وبيروت سنة ١٩٨٢ م . والقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

٣ - وكما لم يكن [الاخوان المسلمين] على مستوى فكر حركة « الجامعة الاسلامية » ، عمقا وجرأة وحسما ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا — فى هذا الميدان — متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده [الوهابية] أو[السنوسية] أو[المهدية] ، وذلك لنشأة [الإخوان] فى المجتمع المصرى ، الذى بلغ فى التحضر والتقدم مستويات لا تلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم بيئات بسيطة أو بدوية ، لا حاجة لها إلى الفكر المركب ، إذ باستطاعتها حل مشكلات تلك البيئة البسيطة بظواهر النصوص !..

لقد وقف تيار [الإخوان] ، فكريا ، بين بين .. فلا هو بلغ « عقلانية » الأفغانى ومحمد عبده .. ولا هو وقف عند بساطة محمد بن عبد الوهاب !.. كما أن دعاته لم يكونوا ، أبدا ، من « وعاظ الأمراء والسلاطين » ، الذين يبررون للواقع الظالم والبائس الذى تعيشه الأمة !.. فلقد كانوا : **الشكل الجماهيرى للبعث الاسلامى الحديث ، والرد الاسلامى على التحدى الحضارى ، الذى تمثل ، أساسا فى « تيار التغريب »** ..

* * *

التصدى للتغريب :

فى الوقت الذى كانت تتفتح فيه وتنضج « المشاعر الاسلامية » لحسن البنا ، كانت ساحة العالم الاسلامى تشهد أحداثا بلغت ، فى الوقع ، على الاسلام والمسلمين ، مبلغ الزلازل والكوارث والنذر التى تهز الضمير من الأعماق ، وتستفز عوامل المقاومة للحفاظ على الذات !..

● ففى [٢٢ رجب سنة ١٣٤٢هـ ٣ مارس سنة ١٩٢٤م] ألغيت الخلافة العثمانية ، ونفى آخر خلفائها السلطان عبد المجيد الثانى [١٢٨٦ - ١٣٦٤هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٤م] ، فزال « الرمز » — ولو الشكلى — الذى حافظ على وحدة الأمة ، والذى أبقت عليه الأمة منذ ظهر الاسلام !..

والذين يعلمون عداء أوربا الاستعمارية لهذا « الرمز » ، وفرح الدوائر « الصليبية » و« اليهودية — الصهيونية » لهذا الحدث ، يستطيعون تقدير وقعه على الاسلاميين !..

● وفى [رمضان سنة ١٣٤٣هـ ابريل سنة ١٩٢٥م] نشر الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] كتابه : [الإسلام وأصول الحكم] .. فكان أول كتاب يكتبه مسلم ، بل وشيخ أزهرى ، يتولى منصب قاض شرعى .. يزعم أن الاسلام « دين » لا « دولة » .. فهو ، إذن ، « ينظّر » ويشرع لإلغاء الخلافة الاسلامية ، عندما ينفى عن نظامها أى علاقة بـ « الاسلام الدين » !..

ولقد وقع هذا الكتاب على العقل المسلم وقع الصاعقة .. ولم يخفف من شدة وقعه إلا « ملابسات سياسية » جعلت منه موقفا ضد ملك مستبد هو الملك أحمد فؤاد [١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ ١٨٦٨ - ١٩٣٦ م][٢]

● وفي [ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ يونيه سنة ١٩٢٥ م] عزل الانجليز الشريف حسين بن علي [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ ١٨٥٦ - ١٩٣١ م] ونفوه إلى جزيرة « قبرص » .. فجسدوا بهذا القرار غدرهم بالحركة العربية والفكرة القومية العربية ، التى استعانوا بها واستخدموها خلال الحرب العالمية الأولى ضد الفكرة الاسلامية والخلافة الاسلامية والعثمانية ...

لقد بلغ الاستعمار ما أراد ، وضاع من يد المسلمين — إسلاميين كانوا أو قوميين — كل شيء ؟!..

● وفي [سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦ م] نشر الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] كتابه [فى الشعر الجاهلى] ، الذى استخدم فيه « الشك الديكارتى » للتشكيك في « الشعر الجاهلى » .. ثم تجاوز نطاق « الشعر » فشكك في بعض قصص القرآن الكريم ، من أمثال قصة إبراهيم الخليل ، عليه السلام !..

فكان هذا الكتاب — بعد كتاب [الاسلام وأصول الحكم] — ثانى عمل فكرى — يكتبه شيخ أزهرى — يمثل اقتحام « التغريب » لمقدسات المسلمين ، واستفزاز « الروح المادية » ؟! للحضارة الغربية لمشاعر المسلمين ؟!..

حدثت هذه الأحداث التى هزت كيان الاسلاميين ، فاستنفرتهم للمقاومة ، على حين كانت « المشاعر الاسلامية » للشيخ حسن البنا تتبلور ويكتمل نضجها ، فكانت العامل الحاسم الذى دفعه إلى تكوين جماعة [الإخوان المسلمين] ، بمدينة « الاسماعيلية » أولا ، حيث كان يدرّس اللغة العربية بإحدى مدارسها الابتدائية ، وفي [ذى القعدة سنة ١٣٤٧ هـ إبريل — مايو سنة ١٩٢٩ م][٣].... والرجل يتحدث عن وقع هذه الأحداث —

(٢) انظر دراستنا عن المعركة التى أثارها صدور هذا الكتاب فى [كتاب الاسلام وأصول الحكم — لعلى عبد الرازق — دراسة ووثائق] ص٥ - ١١٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣) هناك خطأ شائع أن [الاخوان] قد نشأت سنة ١٩٢٨ م . انظر : ريتشارد . ب . ميتشل [الاخوان المسلمون] ص٢١ ، ٣١ — ترجمة عبد السلام رضوان . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م — فهو يجعل هذه النشأة فى مارس سنة ١٩٢٨ م . وانظر كذلك : د . زكريا سليمان بيومى [الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨] — طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م — ص ٨١ . فهو يجعلها فى ابريل — مايو سنة ١٩٢٨ م . والحق هو الذى ذكرناه . فالشيخ البنا يحدد نشأة الجماعة فى ذى القعدة سنة ١٣٤٧هـ — [رسالة المؤتمر الخامس — مجموعة الرسائل — ص١٥٢] — والمقابل لهذا التاريخ الهجرى هو إبريل — مايو سنة ١٩٢٩ م . انظر [كتاب التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية] لمحمد مختار باشا المصرى . دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

وما ماثلها ــ على نفسه ، فيقول : « ... **وليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالى كنا نقضيها ــ [هو وثلاثة رفاق جالت فى أذهانهم الفكرة] ــ نستعرض حال الأمة ، وماوصلت إليه فى مختلف مظاهر حياتها ، ونحلل العلل والأدواء ، ونفكر فى العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء ؟!.** وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا فى مثل هذه **المشغلة النفسانية العنيفة** ، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهى ويترددون على أندية الفساد والإتلاف ؟!.. »

ثم يمضى الرجل فيحدد مكان هذه الفواجع ، التى هزت ضمير المسلمين ، واستنفرت عزائم الإسلاميين ، من قرار تكوين الجماعة ، فيقول : « **ثم كانت ، فى مصر وغيرها من بلدان العالم الاسلامى ، حوادث عده ، ألهبت نفسى ، وأهاجت كوامن الشجن فى قلبى ، ولفتت نظرى إلى وجوب الجد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس !** »[(٤)]

لقد كانت هذه الأحداث إيذانا باقتحام الحضارة الغربية المادية قدس أقداس الاسلام والمسلمين ، لقد احتلت الديار ، ونهبت الثروات ، ثم اقتحمت ميدان الفكر ، والفكر الدينى ، بل وبواسطة عدد من « الشيوخ ــ العلماء » .. فلم يكن هناك بد ــ طالما فى الأمة أصالة ونفاسة معدن وبقية من روح وحياة ــ لم يكن هناك بد من تنبه المشاعر : « القومية » ، ردا على « الغزو السياسى » ، و« الاسلامية » ، ردا على هذا « الطغيان الفكرى والاجتماعى » !.. وبعبارة الأستاذ البنا : « .. **إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الاسلامية ، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا ، فى أرض الاسلام نفسه ، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى ... وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الاسلامية ..** »[(٥)]

هكذا ، نشأت جماعة [الإخوان المسلمين] .. موقفا مناضلا ، ضد التحدى الغربى الحضارى ، أولا ، باعتبار أن الانتصار الاسلامى على جبهة الصراع هذه ، هو السبيل لإنقاذ النفس المسلمة ، وتسليحها بالاسلام ، كى تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية فى ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد ..

لقد كانت لمظاهر السيطرة الغربية ــ على اختلاف ميادينها ــ على مقدرات الأمة ،

---

(٤) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥١ ، ١٥٠ .

(٥) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٠ .

أوثق الصلات بنشأة هذه الجماعة ، التى مثلت أبرز مظاهر البعث الاسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى .. وهذه قضية — رغم وضوحها — تحتاج إلى تأكيد ، لما يثار حولها من غبار بعض التيارات السياسية والفكرية فى بلادنا ؟!..

فحتى النشأة المبكرة ، والمحلية ، لجماعة [الإخوان المسلمين] ، بمدينة « الاسماعيلية » ، يحدثنا الأستاذ البنا عن تأثير مظاهر السيطرة الاستعمارية ، عسكرية واقتصادية — وما أحدثته من بؤس ومذلة على الجانب الوطنى — تأثير ذلك فى نشأة [الاخوان] ، وكيف كان العداء لهذه السيطرة والكره لمظاهرها والعزم على التحرر منها « غذاء ومددا » لهذا الوليد الاسلامى الجديد !.. يقول الإمام المرشد : « **إن الدعوة نشأت بالإسماعيلية .. يغذيها وينميها مانرى كل صباح ومساء من مظاهر الاحتلال الأجنبى والاستئثار الأوربى بخير هذا البلد . فهذه قناة السويس[٦] علة الداء وأصل البلاء ، وفى الغرب : المعسكر الانجليزى بأدواته ومعداته ، وفى الشرق : المكتب العام لإدارة شركة القناة بأثاثه ورياشه ومرتباته ، والمصرى غريب بين كل هذه الأجواء فى بلده ، محروم وغيره ينعم بخير وطنه ، ذليل والأجنبى يعتز بما يغتصبه من موارد رزقه . كان هذا الشعور غذاء ومددا لدعوة الإخوان ، فبسطت رواقها فى منطقة القناة ، ثم تخطتها !..** »[٧]

وكما أشرنا ، فلم تكن نشأة [الاخوان] مجرد تصدى للتحدى الاستعمارى فى جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية — فتلك كانت حال التيار القومى والاجتماعى — أما التيار الاسلامى — وفى مقدمته جماعة [الاخوان المسلمين] — فلقد كانت الجوانب الحضارية فى الغزوة الاستعمارية هى تحديها الرئيسى ، وفيها تمثل الخطر الأكبر ، من وجهة نظرها ، وعن طريق التصدى لها رأت السبيل إلى هزيمة الغزوة الاستعمارية فى كل جنباتها وجميع مخاطرها ..

لقد كانت المواجهة مع « الحضارة الأوربية » ، لامع احتلالها العسكرى ونهبها الاقتصادى لبلادنا ، وحدهما ... ولم يكن عداء الاسلاميين للحضارة الأوربية ، فقط ، بسبب عدوانها على ذاتيتنا الحضارية المتميزة عنها ، وبسبب سعيها لتذويب شخصيتنا القومية والحضارية . بتحويلنا إلى « هامش » تابع لها — ولو وقف الأمر عند ذلك لكان كافيا لمشروعية العداء والتصدى ! — ولكن الاسلاميين قد رأوا مخاطر وأخطار هذه الحضارة الأوربية المادية حتى على الانسان الأوربى نفسه .. فهى قد غدت خطرا على « الانسان » ! .. أيا كان وطن هذا « الانسان » ! .. وذلك لطابعها المادى ، الذى جعلها تقف على ساق واحدة ،

---

(٦) اى قبل تأميمها فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٧٥ هـ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ م .

(٧) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

فتبدع فى العلوم الطبيعية ، وتحقق الوفرة فى الانتاج المادى .. ولكنها تفتقر إلى « القيم » ، لمغالاتها فى « التطور » إلى الحد الذى جعلها تنسخ الماضى ، بما فيه من « قيم » لها طابع « الثبات » .. ولارتكازها على مبدأ « الصراع » ، إلى الحد الذى جعلها تؤمن بأن « البقاء » هو حق « الأقوى » فقط ، فبررت لنفسها إبادة الشعوب والحضارات التى نكبت باستعمارها .. فإن لم تستطع الابادة فلا أقل من تجريد هذه الشعوب من خيرات أرضها ومقاليد السيادة عليها ، وتشويه حضاراتها القومية ومعتقداتها الروحية !! .. وهذا الوقوف على الساق الواحدة — ساق المادة — هو الذى أشاع فى فكرها روح « الكم » و« النفعية » و« اللذة » و« الإلحاد » ، فحرمت الانسان — رغم وفرة الانتاج المادى — نعمة الانتماء — بالايمان — إلى الكون .. وأوقعته فى درك « الاغتراب » ، وجعلت منه هيكلا متخما بالطعام ، مدججا « بمظاهر » القوة ، لكنه أجوف ، لخلوه من « الروح » ولافتقاره إلى إدراك « الغاية » من وراء هذا « الكم المادى » الذى حققه ، الأمر الذى أوقعه ، لا فى « اللا أدرية » فقط ، بل وفى « العبثية » أيضا ؟!..

لقد فصلت الحضارة الأوربية « العلم والإنتاج » عن « الغاية والحكمة » ، فأطلقت العنان « لإنسانها » كى ينهب — بالاستعمار — ثروات الأمم والشعوب ، مسلحا بالاستعلاء والعنصرية ، بل وبـ « البلادة » الناشئة عن غياب « الضمير .. والغاية .. والحكمة » .. فلما أتخم هذا « الانسان » بـ « الكم » الذى جمعه ، وبرز إلى جانب تخمته « بؤس » الشعوب التى نهبها ، بدأت معاناة، هذا « الانسان » ، لا شفقة على الشعوب البائسة ، وإنما من جنون قوته وفائض إنتاجه ، اللذين تحولا إلى شقى رحى يهددان ذاته وحضارته بحروب كونية فيها دماره ، ودمار الكوكب الذى عليه نعيش !..

لإفلاس هذه الحضارة المادية .. وللمأزق الذى جرت إليه « إنسانها » — بل والانسانية كلها ، بعد السيطرة الاستعمارية التى حققتها — كان عداء الاسلاميين لها ، ونهوضهم لدفع آثارها وتأثيراتها على عقول « الصفوة » المتغربة فى ديار الاسلام ..

ونحن نقرأ للأستاذ البنا الكثير من النصوص التى تكشف أسباب عدائه للطابع المادى للحضارة الأوربية ... فهو يرى أن من أمراض هذه الحضارة ما هو مزمن .. وذلك مثل :

١ – الإلحاد والشك فى الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والوقوف عند حدود الكون المادى المحسوس ...

٢ – والاباحية والتهافت على اللذة والتفنن فى الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها..

٣ – والأثرة فى الأفراد ...

٤ - والربا ..... »

ثم يمضى فيقول : « ولقد أثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع وإقرار الطمأنينة والسلام فيه ، وفشلت فى إسعاد الناس ، رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء وما مكنت لدولها فى الأرض من قوة وسلطان . ولما يمض عليها قرن كامل من الزمان .. »

ثم يتحدث عن انتقال هذا الخطر ــ بالاستعمار ــ إلى بلادنا ، وتهديده لمصيرنا بذات الخطر الذى أصاب « نفس » الانسان الأوربى ، فيقول : « وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية ، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة ، جميع البلاد الاسلامية التى امتدت إليها ايديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم ، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة .... ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم ــ بالمدارس العلمية والثقافية فى عقر ديار الاسلام ــ والتى ضمت أبناء الطبقة العليا ــ فعلمتهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ماهو غربى ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة ــ نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قوى الأثر ، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف ؟!.. »[٨]

ولقد أبصر الأستاذ البنا أن أخطر ما فى هذه الحضارة الأوربية المادية ــ وهو روحها المادية الملحدة ــ هو أكثر ما يغرى « الصفوة » المتغربة بالتتلمذ على يديها ؟!.. فنحن ــ كمسلمين ــ قد عانينا تاريخيا من سلطان الكنيسة الكاثوليكية الأوربية ، التى عبأت شعوبها ضدنا فى حروب صليبية احتلت أجزاء من بلادنا قرابة القرنين [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] واستنزفت قوانا ، وأسهمت فى تكريس التخلف والانحطاط الذى نعانى منه حتى الآن ... كما نعانى من قهر محلى واستبداد داخلى ، ستر قسوته وجهله وتخلفه « بمباركة دينية » من فقهاء احترفوا التبرير للسلاطين ، وباعوا آخرتهم بفتات موائد الاستبداد والمستبدين .... فكان عداء الحضارة المادية الأوربية لكنيستها ، ولهيمنة كهانتها على الدولة والمجتمع مما حبب « الصفوة » المتغربة فى هذه الحضارة ، حتى لقد انحازوا إلى « العلمانية » ، ظنا منهم أنها السبيل إلى رفع وصاية « فقهاء السلاطين » عن الحياة ، الأمر الذى سيجلب لنا « الحرية » و« التقدم » ، فنتقدم كما « تقدم » الأوربيون !...

---

(٨) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٧ - ١٣٩ .

ولقد « جهلت » هذه « الصفوة » المتغربة ، و« غفلت » عن الفروق الجوهرية التى تفرق ما بين الاسلام والمسيحية فى هذا الميدان ... فإسلامنا لا يعرف : سلطة دينية إلهية لبشر .. ولا يقر « كهانة » تفرض سلطانها على شئون المجتمع والدولة .. بل لا يعرف وصاية لـ « رجل الدين » ، لأنه ينكر تميز فئة خاصة « كرجال دين » !... ومن ثم فإن سلاحنا لرفع وصاية الذين نصبوا أنفسهم « كهنة » — إذا وجدوا — هو « الاسلام » ، وليس نفى « الاسلام » بـ « العلمانية » ، كما صنع الأوربيون !...

لكن « التقليد » للحضارة الغربية ، بل ولسير التطور فى النهضة الأوربية ، قد جعل هذه « الصفوة » المتغربة تتوهم إسلامنا : مسيحية ؟!... وترى فى « علماء » الاسلام « أكليروسا » !... لقد استوردوا « مشكلة أوربية » .. ثم استوردوا لها « حلا أوربيا » كذلك !..

وعن هذه القضية يتحدث الإمام المرشد فيقول : « **من الأسباب التى دعت بعض الأمم الشرقية إلى الانحراف عن الاسلام ، واختيار تقليد الغرب : دراسة قادتها للنهضة الغربية ، واقتناعهم بأنها لم تقم إلا على تحطيم الدين وهدم الكنائس والتخلص من السلطة البابوية ، وإلجام القساوسة ورجال الكهنوت ، والقضاء على كل مظاهر السلطة الدينية فى الأمة ، وفصل الدين عن سياسة الدولة العامة فصلا تاما .. وذلك إن صح فى الأمم الغربية فلا يصح فى الأمم الاسلامية ، لأن طبيعة التعاليم الاسلامية غير طبيعة تعاليم أى دين آخر ، وسلطة رجال الدين المسلمين محصورة محدودة ، لا تملك تغيير الأوضاع ولا قلب النظم ، مما جعل القواعد الأساسية فى الاسلام ، على مر القرون ، تساير العصور ، وتدعو إلى الرقى ، وتعضد العلم وتحمى العلماء ، فما كان هناك لايصح هنا ..... بل إن هذه التعبيرات التى سرت إلينا تقليدا ، ومنها : [رجال الدين] ، لا تنطبق ولا تتفق مع عرفنا ، فإنها وإن كانت فى الغرب خاصة بـ [الأكليروس] ، فإنها فى العرف الإسلامى تشمل كل مسلم ، فالمسلمون جميعا ، من أصغرهم لأكبرهم ، [رجال دين]..**(٩) »

فهنا .. يعيد إلينا الأستاذ البنا — وفى حسم وصفاء ووضوح — موقف تيار « الجامعة الاسلامية » ، الذى تنبه إلى خطر الغزو الحضارى الغربى على الذاتية الحضارية المتميزة لأمتنا — ويثبت ، فى تألق لا يدع سبيلا لشك ، أن دعوة [الاخوان] وحركتها ، إنما كانت — فى جانب أساسى من جوانبها — إن فى المنطلقات أو الملابسات أو الأفكار أو الممارسات — تصديا « للتغريب » ، كجناح من جناحى « التحدى الحضارى » الذى فرضه عليها أعداؤها .... وفى الظروف التى صاحبت نشأة [الاخوان] كان هذا الجناح — « التغريب » — هو الأشد خطرا على ذاتيتنا الحضارية الاسلامية وشخصيتنا القومية العربية

---

(٩) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٧١ ٧٣ .

وعقائد ديننا الاسلامى الحنيف !...

* * *

والتخلف الموروث :

لقد كان « التغريب » أخطر جناحى « التحدى الحضارى » ، الذى نهضت لمواجهته دعوة [الإخوان المسلمين] وحركتها ... لكنه لم يكن هو كل « التحدى » .. فلم يكن عداؤهم « للتغريب » نابعا من رضائهم عن الواقع الفكرى المتمثل فى تصورات المسلمين للإسلام ، أو تطبيقاتهم لتعاليمه ... بل كان هذا الواقع وهذه التصورات وذلك السلوك ، فى رأى [الاخوان] إنما يمثل « تخلفا » ذاتيا ، وانحرافا عن الجادة الاسلامية .. فالتخلف الذى انحدر إلى الواقع المعاصر من القرون التى سيطر فيها المماليك والعثمانيون — والذى نسميه : « التخلف العثمانى » — كان هدفا تواجهه دعوة [الاخوان] ، وتسعى لتغييره ، بالتجديد الدينى ، وبإعادة الأمة إلى إسلامها الصحيح ، إيمانا بأن تجديد « دنيا » المسلمين إنما هو رهن بتجديد « دينهم » !..

إنهم لم يحاربوا « التغريب » دفاعا عن الفكرية السائدة للإسلام فى أذهان العامة أو فى تصورات وتطبيقات « المؤسسات الدينية » التقليدية ، بل كانوا فصيلة داعية للتجديد الدينى ، وإن يكن فى حدود !.. ولذلك وجدناهم ، عند التحليل « للموروث » عن السلف يميزون بين « **الدين** » ، كما تمثل ويتمثل فى منابعه النقية ، قرآنا وسنة ، وبين « **الفكر** » الذى مثل « لون عصره » و« قضايا المجتمع الذى نشأ فيه » .. فـ « **الدين** » ملزم .. أما هذا « **الفكر** » فهو غير ملزم ، ثم إن فيه « النافع » وفيه « الضار » الذى يجب تجاوزه بالتجديد ..

وهم فى تحليلهم لما أصاب « الاسلام السياسى » والدولة الاسلامية عبر مسيرتها التاريخية ، لم يدافعوا عن « الموروث » الذى ساد فى العصور « المملوكية — العثمانية » ، ذلك الذى أتاح الفرص وفتح الثغرات « لوافد التغريب » !.. بل قالوا إن الانقطاع قد أصاب ازدهار الدولة الاسلامية ، فتحللت عوامل قوتها .. ثم رصدوا — على لسان الأستاذ البنا — « أهم عوامل التحلل فى كيان الدولة الاسلامية » فى هذه الأسباب :

« ا — الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ...
ب — الخلافات الدينية والمذهبية ....
جـ — الانغماس فى ألوان الترف والنعيم ...

د ــ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

هـ ــ إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..

و ــ غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة .

ز ــ الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ... »[10]

ونحن عندما نتأمل فى هذه العوامل ، التى حددها الإمام المرشد ، لتحلل كيان الدولة الاسلامية ، نجد فيها « النقد » بل « والإدانة » للنمط « المملوكى ــ العثمانى » ، ومن ثم ندرك لماذا كان فى نهج [الاخوان] مواجهة « التخلف العثمانى » ، بالتجديد الدينى ، وصولا إلى هدف : تغيير الواقع الموروث ، بتغيير وإصلاح مافسد من العقائد والتصورات ، لتصح الممارسات بصحة المعتقدات !...

لقد كان واضحا لدى [الإخوان] أنهم ليسوا « كالمؤسسات الدينية » التقليدية ــ الشرعية منها والصوفية ــ المنكفئة على الذات ، والمتشبثة بالموروث ، والمدافعة عن « كل الواقع » .. وكان واضحا لديهم كذلك أنهم دعاة تجديد ... وبعبارة الأستاذ البنا : « **فالإخوان ... دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب** .. »[11]...

وهذا النهج التجديدى ، كما هو واضح ، لم يكن مجرد « تجديد فكرى » ترق به أذهان « الصفوة » أو تستمتع به عقول « النخبة » ، وإنما كان تجديد « حياة الأمم والشعوب » ، فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير والعامة ، تبغى خلق الفرد المسلم .. والأسرة المسلمة .. والأمم المسلمة[12]، انطلاقا من العقيدة الاسلامية والحركة التى تضع هذه العقيدة فى الممارسة والتطبيق ...

وبسبب من توجه الدعوة إلى « الجمهور » و« العامة » ، لا « للصفوة » أساسا ــ كما كان الحال فى تيار « الجامعة الاسلامية » ــ تميزت دعوة [الإخوان المسلمين] بمرونة

---

(١٠) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١١) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل ص ١٢٢ .

(١٢) [إلى أى شيء ندعو الناس] مجموعة الرسائل ص ٤٥ .

وشمولية و« توفيقية » ـــ لا تعيبها كثيرا ـــ أضفتها على نهجها شخصية مرشدها العام ، وما تميزت به هذه الشخصية من مرونة تجمع ولا تفرق ، و« توفيقية » تبلغ الذروة فى الذكاء ؟!.. فكان [الاخوان] ـــ كما يقول الأستاذ البنا ـــ : « **١ - دعوة سلفية** ... **٢ - وطريقة سنية** ... **٣ - وحقيقة صوفية** ... **٤ - وهيئة سياسية** : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل ، وتعديل النظر فى صلة الأمة الاسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج ، وتربية الشعب على العزة والكرامة ، والحرص على قوميته إلى أبعد حد .. **٥ - وجماعة رياضية** .. **٦ - ورابطة علمية ثقافية** ... **٧ - وشركة اقتصادية** ... **٨ - وفكرة اجتماعية** ... »[١٣]... كانوا كل ذلك فى وقت واحد ، لأنهم توجهوا إلى جمهور تربطه خيوط بهدف أو أكثر من هذه الأهداف .

و[الاخوان] إذا كانوا قد استعانوا « بالنهج الصوفى » فى تربية الأعضاء ، والارتقاء بهم فى مراتب العضوية بالجماعة ، فإن نهجهم « السلفى ـــ السنى » يصنفهم فى الدعوات التجديدية التى نهضت تنفض غبار العصور « المملوكية ـــ العثمانية » الذى تراكم على عقائد الاسلام وتصورات المسلمين ـــ .. فالسلفية ، فى مثل موقفهم ، قد عنت : إسقاط ركام الخرافات والشعوذة والاضافات ، التى غدت تكون « الفكرية العثمانية » ، والعودة ، بشجاعة ثورية ، إلى المنابع الأولى والأصلية والنقية للإسلام ...**لقد كان « التجديد » فى الدين ، وسيظل ، موقفا سلفيا .. وكان ، وسيظل ، موقفا ثوريا ، لأنه يعنى الرفض للزوائد التى أفقدت الدين ثوريته وفاعليته ، والعودة إلى الينابيع النقية حتى تعود لعقائد الدين طهارتها ووضاءتها ، الأمر الذى يحرر « حركة » المسلمين من القيود التى طرأت ، فى شكل بدع وخرافات وإضافات ، على المعتقدات** ...

وحتى تكون هذه « السلفية » تحريرا للعقل ، وللحركة .... فلقد التزمت التمييز بين « الثوابت » وبين « المتغيرات » .. واحتضنت « المنبع » ، لنقائه ومرونته ووقوفه عند « الكليات » واجتنابه « التفاصيل والجزئيات » المقيدة للحركة ، والمعاكسة لمقتضيات التطور والجديد ...

وفى نص من النصوص الهامة يحدد الأستاذ البنا النهج السلفى لدعوة [الاخوان المسلمين] فيقول : « **يعتقد الاخوان أن أساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة رسوله ، ﷺ ... وأن كثيرا من الآراء والعلوم التى اتصلت بالاسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقى النظم الاسلامية ، التى تُحْمَلُ عليها الأمة ، من هذا المعين الصافى ، معين**

(١٣) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

السهولة الأولى ، وأن نفهم الاسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لانقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه ، والاسلام دين البشرية جمعاء »[١٤]!؟...

فهذه السلفية التجديدية ، كما عبر عنها الأستاذ البنا فى كلماته هذه تحاكى ذات السلفية التى دعا إليها مجددو تيار « الجامعة الاسلامية » ، عندما دعوا إلى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. »[١٥]

وإذا كانت « سلفية الاخوان » لم تبلغ فى انحيازها إلى « العقل والعقلانية » مبلغ « سلفية تيار الجامعة الاسلامية » ، لتوجه دعوة [الاخوان] إلى « العامة » و« الجمهور » ــ لا « للصفوة » ، كما كان حال تيار « الجامعة الاسلامية » ــ فإنها لم تتنكر للعقل والعقلانية ، كما قد يظن .. فهى لم تقف عند ظواهر النصوص ، كما صنعت « السلفية الوهابية » ، التى اتخذت من « العقل » وطرائقه ــ كالرأى والقياس والتأويل ــ موقفا غير ودى .. بل كان « للعقل والعقلانية » فى نهج [الاخوان] مكان إن لم يكن بارزا فهو ملحوظ !..

لقد قطع الأستاذ البنا باستحالة الخلاف والصدام بين « النظر العقلى » و« النظر الشرعى » فى الأمور « القطعية » .. ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر .. كالإلهيات ، مثلا .. « فذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة ... فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء .. »[١٦] فى مثل هذه الميادين .. ولذلك فإن « الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ، فقال تعالى : [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا][١٧] وقال تعالى : [وقل رب زدنى علما][١٨]... »

---

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣١٨ .

(١٥) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٦ .

(١٦) الاسراء : ٨٥ .

(١٧) طه : ١١٤ .

(١٨) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٤ .

وإذا كانت « طبيعة المبحث » هى التى تحدد أداة النظر فيه ، وهل الأولى أن تكون : « العقل » أو « الشرع » ، فإن خلافهما إنما يكون فى « الظاهر » وفيما هو « ظنى » لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة « اليقين » ... « فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى مالا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، **فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منها ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار** .. »[19]

وإذا كان الاسلام قد رفض « غرور العقل » و« انفراده بالنظر » فى كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى .. فإنه « **لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول**[20]... **بل جاء يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء . « والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها »**[21] ... »[22]

وهذا الموقف الاسلامى الوسط ، إزاء « العقل والعقلانية » ، نابع من التمييز بين مجالات البحث وطبائع الأشياء موضوع النظر .. فمن هذه المجالات ماتكون السيادة فيه للنظر العقلى ، ومنها ماتكون السيادة فيه للنظر الشرعى . هذا الموقف الاسلامى هو الذى يرفض الخرافة ، المتنكرة للعقل .. كما يرفض المادية المنكرة لعالم الغيب والمجهول .. فيتميز عن « الايمان الأسطورى » وعن « العقلانية اليونانية ـــ الأوربية » ، التى أنكرت الوحى ، ووقفت عند النظر العقلى وحده .... وإذا كان تاريخ « العقل البشرى » يشهد على تذبذبه « بين :

١ - طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب ...
٢ - وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول ....

وكلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح ، وغلو فاحش ، وجهالة من الانسان بما يحيط بالانسان ، **فلقد جاء الاسلام الحنيف يفصل القضية فصلا حقا ... فجمع بين الايمان بالغيب والانتفاع بالعقل ... إن المجتمع الانسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله ... فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء ، وتنتفع بما فى الوجود**

(١٩) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧١ .

(٢٠) [العقائد] مجموعة الرسائل . ص ٢٩٤ .

(٢١) حديث نبوى رواه الترمذى وابن ماجة .

(٢٢) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٠ .

من خيرات ومميزات .... فإلى هذا اللون من التفكير ، الذى يجمع بين العقليتين : الغيبية والعلمية ، ندعو الناس ... »[٢٣].. كما يقول الأستاذ البنا ..

البراءة من الغلو :

لكن هذه الدعوة التجديدية ــ دعوة [الاخوان] ــ التى واجهت « التخلف المملوكى ــ العثمانى » بهذه « السلفية ــ المجددة » ، لم تبلغ فى نقدها لواقع المسلمين حد الغلو الذى بلغته دعوات اسلامية عاصرتها أو لحقتها ، عندما حكمت « بالجاهلية » أو« بالكفر » ، أو بهما معا على هذا الواقع الذى يعيش فيه المسلمون ...

لقد عمل [الاخوان] ، من خلال المجتمع ، لا من موقع الذى يدينه وينعزل عنه فى استعلاء !.. وكما سلطوا الضوء على « الوافد » غير الاسلامى ، « موروثا » كان أو « غربيا حديثا » ، كذلك احتضنوا ما حفظ المسلمون من إسلامهم .. فقط طلبوا استكمال الناقص ، وتكامل المتفرق ، وتصحيح الخاطىء ، وأخذ الاسلام ، بجد ، كنظام شامل للدنيا والآخرة ، والفرد والأسرة والأمة جميعا .. لقد رفضوا « تكفير » « الفرد » « بالمعصية » حتى ولو كانت « كبيرة » ، وكتب الأستاذ البنا يقول : إننا « **لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ــ برأى أو معصية ــ إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر** .. »[٢٤]

كذلك هم لا يكفرون « المجتمع » بسبب ابتعاد نظمه الحياتية ، فى كثير من جوانبها ، عن شريعة الاسلام ، بل يرونه « ناقص الاسلام » ، لكنه « النقص » الذى لايدخله فى « الكفر » أو « الجاهلية » ؟!.. والامام المرشد يتحدث عن المجتمع المصرى ، فيبرز ــ فى حنو الداعية ــ ما فيه من إيجابيات ، ثم يدعو ــ فى لين وهوادة ــ إلى استكمال النواقص وتلافى السلبيات ، فيقول : « **لقد اندمجت مصر بكليتها فى الإسلام بكليته ، عقيدته ولغته وحضارته ، ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين ... وليس الهدامة المدمرة . ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية : فأسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم**

(٢٣) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٠ - ١١٢ .

(٢٤) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧١ .

الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء ، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء إهتزازها للإسلام ومايتصل بالاسلام . كل ذلك حق .. »

ثم يمضى الأستاذ البنا فيركز النقد على « الوافد الغربى » ، الذى شوه بروحه المادية إسلامية المجتمع وانتقص منها .. فيقول : « ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزوا قويا ، بالعلم والمال ، وبالسياسة والترف والمتعة واللهو وضروب الحياة الناعمة العابثة المغرية التى لم نكن نعرفها من قبل . فأعجبنا بها ، وركنا إليها . وأثر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر ، **والحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية ، وحصرنا سلطان الاسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية ، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة ، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة !! »**[٢٥]

إنه لا يدين المجتمع بالارتداد إلى « الجاهلية » أو « الكفر » بعد الايمان !.. وإنما يدعو إلى استكمال الاسلام الناقص ، وإلغاء « الثنائية » التى أثمرتها الغزوة الحضارية الغربية .. إنه يستنهض همة الأمة إلى استكمال إسلامها بتحقيق « استقلالها الحضارى » عن الأعداء ؟!..

* *

الاستقلال الحضارى :

ونحن لا نبالغ إذا قلنا : إن الاسلاميين ، الداعين إلى العودة إلى الاسلام ، فى شموله ، عقيدة وحركة ، عبادة وشريعة ، دينا ودولة ، سياسة وحضارة — وفى مقدمتهم جماعة [الإخوان المسلمين] — قد امتلكوا أكثر التصورات تحديدا وعمقا ووضوحا فى قضية : « استقلال الوطن والأمة » وتحريرها من آثار الغزوة الاستعمارية الحديثة !..

● لقد اشتركوا مع جمهرة الأحزاب والجماعات الوطنية والقومية فى الدعوة إلى « الاستقلال السياسى » ، والنضال فى سبيله .. وزادوا عن هذه الأحزاب والجماعات عندما اتسعت رؤيتهم لحدود « الوطن » ، « ليشمل : القطر الخاص أولا ، ثم يمتد إلى الأقطار الاسلامية .. [عبر وطن الأمة العربية] — ثم يرق إلى الامبراطورية الإسلامية الأولى ... »[٢٦]؟!..

ولقد أعلنوا — بصدد الدعوة « للاستقلال السياسى » ، والجهاد فى سبيله رفض

(٢٥) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢٦) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٢ .

« الشعوب الشرقية لما أصابها من إساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمها .. فهى تتألم من هذا النير الغربى الذى فرض عليها فرضا .. »[27]

ودعوا إلى الجهاد ضد الدول الاستعمارية « فكل دولة اعتدت وتعتدى على أوطان الاسلام دولة ظالمة ، لابد أن تكف عدوانها . ولابد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها .. لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال »[28]

ولقد مارس [الاخوان] الجهاد العملى ، والمسلح ، كلما سنحت لهم الفرصة لممارسته .. فى فلسطين [١٣٦٦ - ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م] ضد الصهيونية ومن وراءها .. وفى [١٣٧١ هـ ١٩٥١ - ١٩٥٢ م] ضد الانجليز فى مصر ..

هذا عن « الاستقلال السياسى » ..

● وكانت قوى وطنية عديدة تقنع ، فى مجال « الاستقلال الاقتصادى » . بما يحقق مجرد « مشاركة » قواها الاجتماعية والطبقات التى تمثل مصالحها .. مجرد « مشاركة » هذه القوى الاجتماعية للاستعمار فى استثمار ثروات البلاد .. لكن جماعة [الاخوان] — كحلفات اليسار — قد امتلكت رؤية واضحة فى هذا الميدان ، جعلتهم دعاة تحرير كامل لاقتصاديات الأمة من قبضة السيطرة والاستغلال الاستعماريين ، وامتاز الاخوان فكانوا دعاة اعتماد على الذات فى بناء الاقتصاد الوطنى والقومى المستقل ، ودعاة إقامة الروابط مع أجزاء العالم العربى والأمة الاسلامية ، لاقامة التكتل الاقتصادى الذى يدعم امكانيات المستضعفين فى صراعهم الاقتصادى ضد سيطرة المستعمرين الأغنياء الأقوياء ..

لقد امتلك الاسلاميون وضوح الرؤية فى الجهاد لتحقيق هذا « الاستقلال الاقتصادى » منذ دعوة « الجامعة الاسلامية » التى أعلنت أن « غايتها الاقتصادية هى :
● ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامى هى لهم ، يتنعمون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى : ● نفض اليد من رؤوس المال الغربية ، والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية . وفوق جميع هذا ، هى : ● تحطيم نواجذ أوربة ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد

---

(٢٧) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ .

(٢٨) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

المسلمين ، تلك الموارد التي مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامى فسيظل عالة على الغرب »[٢٩]؟!..

فبدون تحرير الثروات الاسلامية .. والاستقلال الاقتصادى ، ستظل التبعية للغرب قيدا يجعل « استقلالنا السياسى » عنه شكليا ، ويحرمنا ، من ثم ، المضمون الحقيقى للاستقلال !.. هكذا قرر الاسلاميون ، منذ « تيار الجامعة الاسلامية » ، الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى ، وبقيادته .. وعلى هذا الدرب سارت جماعة [الاخوان المسلمين] :

ا — فالاستاذ البنا يحدد أن المجتمع — حتى «بعد تحرير الوطن .. وإقامة الدولة الإسلامية» — « لن يصير مجتمعا إسلاميا كاملا إلا بتحقيق » الاستقلال الاقتصادى !.. وهو يضرب المثل بالسيطرة الاقتصادية الاستعمارية على مصر .. وكيف أن « المرافق العامة ، وكل المنافع العامة فى جميع أنحاء البلاد ، ودولاب التجارة والصناعة ، والمنشآت الاقتصادية كلها فى أيدى الأجانب المرابين .. تسيطر عليها أكثر من ٣٢٠ شركة أجنبية[٣٠]... والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدى الوطنيين إلى أيدى هؤلاء الأجانب ... فالبلد ليس فقيرا » .. ولكن النهب الاقتصادى الاستعمارى جعل « الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه !.. »[٣١]

ب — وهذا الغنى الذى يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة ، يقابله فقر مدقع على الجانب الوطنى .. « فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان ، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس .. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة ، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية .. وهى من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات .. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصرى مهدد بضعف البنية ، وفقد الحواس ، ومختلف العلل والأمراض .. وهى لازالت جاهلة ، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس .. والجرائم تتضاعف ، حتى ان السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس !.. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة فى الجيش كاملة المعدات !.. » وهى ليست وحدها فى هذا البؤس ، الذى أثمره النهب الاقتصادى الاستعمارى ، بل معها فى « هذه المعانى والصور .. كل بلد من بلدان العالم الاسلامى ؟!.. »[٣٢].

(٢٩) لوثروب ستودارد [حاضر العالم الاسلامى] المجلد الاول . جـ١ ص ٣٢٨ . ترجمة : عجاج نويهض . تعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م

(٣٠) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤١ .

(٣١) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٣١ .

(٣٢) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤١ .

جـ ــ فإذا ما أردنا ــ حقا ــ « إصلاح التعليم ، ومحاربة الفقر والجهل والمرض والجريمة ، وتكوين مجتمع نموذجي يستحق أن ينتسب إلى شريعة الاسلام »[٣٣].. فلابد ــ كما يقول الاستاذ البنا ــ من تحقيق الاستقلال الاقتصادى للوطن والأمة ، بتحرير الثروة أولا ، وبالعدل الاسلامى فى التوزيع ، وبالتنمية الاقتصادية المناسبة ، التى نعتمد فيها على الذات ، وفى ارتباط وثيق بين أوطان الأمم الاسلامية ...

فالهدف هو : تحقيق : « نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد ، أساسه قوله تعالى : [ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما][٣٤]....][٣٥] ولابد ، لذلك من أن نحقق « استقلال نقدنا »[٣٦] عن فلك الاستعمار ... ولابد كذلك ، من « تمصير الشركات ، وإحلال رؤوس الأموال الوطنية محل رؤوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة ــ وهى أهم شىء للأمة ــ من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية ، تبلغ رؤوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، ولا يصيب الجمهور الوطنى ولا العامل الوطنى منها إلا البؤس والشقاء والحرمان ؟! .. »

وهذا التحرير للثروة لن يثمر الثمرة المرجوة فى رخاء الأمة وقوتها ، مالم تصحبه تنمية اقتصادية قومية مستقلة ، تلبى احتياجات الأمة ، ونعتمد فيها على الذات ... ولذلك « نجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهملة ، التى طال عليها الأمد !... ويجب التحول إلى الصناعة فورا ... فهذا التحول هو روح الاسلام !.. مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية ... وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار ؟! .. »

وهذه التنمية ــ حتى تتوافر لها إمكانيات الاستقلال والنجاح ــ يجب أن تتم فى تعاون مع العرب والمسلمين ، ذلك « أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والاسلام ... تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادى ، وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما ؟!... »[٣٧].. كما يقول المرشد العام !...

---

(٣٣) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٢ .

(٣٤) النساء : ٥ .

(٣٥) [الاخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ١٠٠ .

(٣٦) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٣٨ .

(٣٧) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ولابد من تنمية مشاعر « الجهاد الاقتصادى » ضد الأعداء !!.. ولذلك كان الشيخ البنا يهيب بالأخ المسلم قائلا : يجب « أن تخدم الثروة الاسلامية ، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الاسلامية ، وأن تحرص على القرش ، فلا يقع فى يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال ، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامى !.. »[٣٨]

أما العدالة فى التوزيع للثروة ، والتى لابد منها كى تعم خيرات تحرير الثروة وتنميتها جمهور الأمة ، فمن ملامحها :

١ – إصلاح الواقع القائم ، والمتمثل فى «التفاوت العظيم ، والبون الشاسع ، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب » والذى أدى إلى وجود « ثراء فاحش وفقر مدقع ، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة ... » ... إصلاح هذا الواقع « بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع ... »

٢ – « محاربة الربا ... وجمع الزكاة ... وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى ـــ بحسب المال لا بحسب الربح ـــ يعفى منها الفقراء طبعا ، وتجبى من الأغنياء الموسرين ، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[٣٩]... والتوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين ، بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد ؟!... »[٤٠]

٣ – إصلاح الخلل المتمثل فى التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية فى الريف ، ذلك أن « روح الاسلام الحنيف وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى ، توجب علينا أن نعيد النظر فى نظام الملكيات فى مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه ... وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار !... »[٤١]

فذلك هو الطريق لتحرير الثروة الاسلامية من يد ناهبيها الاستعماريين ... والطريق إلى التنمية الاقتصادية المستقلة ، وإلى عموم الخير أبناء الأمة ، حتى يشعروا بفائدة « الاستقلال الاقتصادى » ، عندما « يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه ! » .. كما قال مرشد [الاخوان] ...

---

(٣٨) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٩ .

(٣٩) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ،

(٤٠) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٣ .

(٤١) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢٤٢ .

... هذا عن « الاستقلال الاقتصادى » ...

● وإذا كان الاسلاميون . وفى مقدمتهم جماعة [الاخوان المسلمين] — قد تنبهوا قبل الآخرين ، أو أكثر منهم ، فاستهدفوا « الاستقلال الاقتصادى » .. وانفردوا دون الآخرين بالدعوة للتنمية الاقتصادية المستقلة ، المعتمدة على الذات ، والملبية للاحتياجات الحقيقية ، والمتكاملة مع عالمى العروبة والاسلام ... فلقد تميزوا وامتازوا عن القوى الوطنية والقومية الأخرى بالدعوة إلى « الاستقلال الحضارى — الاجتماعى » !...

لقد كانت التيارات والأحزاب « العلمانية » ، سواء منها « الليبرالية ـالرأسمالية » أو « الشمولية — الاشتراكية » ، تحتذى النموذج الحضارى الأوربى ، غربيه الرأسمالى أو شرقيه الاشتراكى .. أما [الاخوان] فكانت صيحتهم : « إسلامية قرآنية .. لا شرقية ولا غربية » ، إعلانا عن دعوتهم الأمة كى تعود إلى نموذجها الحضارى المتميز ، والمختلف ، فى الجوهر والروح ، عن الحضارة الأوربية ... ومن ثم فلقد كانوا — عند التأمل — دعاة « الاستقلال الحقيقى » عن الاستعمار ، إذ بدون « الاستقلال الحضارى » ستظل التبعية للمركز الاستعمارى قائمة حتى لو حققنا « الاستقلال السياسى » ، بعلمه ونشيده .. وأصبحت لنا مؤسسات اقتصادية خاصة ، ذلك **أن نمط الحياة وطريقة العيش وأسلوب التفكير ، وخصائص الانتاج والاستهلاك إذا ظلت هى تلك التى غزانا بها الغرب ، فسنظل أسرى له ، تربطنا قيودها إلى مراكز توجيه فى هذه الميادين** !..

وفى الوقت الذى كان الكثيرون مبهورين فيه بالحضارة الغربية ، يتخذونها النموذج المحتذى ، والقبلة التى تتجه إليها قلوبهم وعقولهم فى شئون الدنيا والعمران .. كان [الاخوان] ينبهون إلى « أزمة » الحضارة الغربية و« إفلاسها » ودخولها « الطريق المسدود » ؟!.. فيكتب الشيخ البنا : « **إن مدنية الغرب** ، التى زهت بجمالها العلمى حينا من الدهر ، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه ، **تفلس الآن وتنتحر** !.. **فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات ... وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادىء الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان . وقد حار الناس فى علاج شأنها وضلوا السبيل** !.. »[٤٢]

لكن هذا « الافلاس والانتحار » لم ينبه « المتغربين » إلى ضرورة الانصراف عن اقتفاء طريق « المفلس » الساعى إلى « الانتحار » !.. لأن هؤلاء « المتغربين » قد غدوا أسرى الفكر الذى رضعوه من ثدى هذه الحضارة ، ونمط العيش الذى اعتادوه فتقيدوا به إلى أوتادها !.. **فهؤلاء « حكامنا جميعا قد تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم**

(٤٢) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٥٩ ، ٦٠ .

يهرعون ، وفى مرضاتهم يتنافسون . ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشئون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم !.. »[٤٣].

وليت الأمر قد وقف عند « الحكام » وحدهم .. بل إن البلوى توشك على العموم !.... « فالتقليد الغربى يسرى فى مناحى حياة الأمة سريان لعاب الأفاعى ، فيسمم دماءها ، ويعكر صفو هنائها[٤٤]..... وأكبر ما يخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الاسلامية فى تيار التقليد ، فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها !.. »[٤٥]

وأمام هذا الخطر ... خطر الغزو الحضارى والتبعية الحضارية ، التى جعلت « أبناء الطبقة الراقية ينتقصون أنفسهم ، ويحتقرون دينهم ووطنهم ، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ماهو غربى ، ويؤمنون بأن مايصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة !.. » .. أمام هذا « الغزو الاجتماعى المنظم .. والمحبب إلى النفوس ، واللاصق بالقلوب » والذى يتميز ، لذلك ، بطول العمر ، وقوة الأثر ، حتى ليصبح « أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف !.. »[٤٦]... أمام هذا الخطر دعا [الاخوان] إلى الجهاد ، وإلى الاعتصام بحضارة الاسلام ، نحييها ، وإلى التصدى لآثار الغزوة الحضارية الأوربية ، نميتها باقتلاعها من العقول والقلوب والنفوس ، وإحلال البدائل الاسلامية محلها ...

فمن واجبات « الأخ المسلم » ــ وفق تعاليم الأستاذ المرشد ــ : « القضاء على الروح الأجنبية فى البيوت .. وبخاصة بيوت الطبقات الراقية[٤٧]... وإماتة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة . وأن تعمل مااستطعت على إحياء العادات الاسلامية .. ومن ذلك : التحية ، واللغة ، والتاريخ ، والزى ، والأثاث ، ومواعيد العمل والراحة ، والطعام والشراب ، والقدوم والانصراف ، والحزن والسرور .. الخ .. وأن تتحرى السنة المطهرة فى ذلك !... »[٤٨].

---

(٤٣) [الاخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ١٠٥ .

(٤٤) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ٢٧ .

(٤٥) [إلى أى شىء ندعو الناس] مجموعة الرسائل . ص ٤٦ .

(٤٦) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٩ .

(٤٧) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٧٧ .

(٤٨) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٩ .

فلكي يتحقق استقلالنا الحقيقي لابد من « الاستقلال الحضارى » ، وفصم عرى التبعية للاستعمار ... بل إن هذا « الاستقلال الحضارى » ، الرافض للتبعية والتقليد ، هو الشرط الذى لابد من تحقيقه كي يكتمل لأمتنا إسلامها ، وبدونه سيظل إسلامها منقوصا ، مثلها فى ذلك كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب دون بعضه الآخر ؟!... فما دام « الاسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل ، فواجب أن يهيمن على كل شئون الحياة ... **أما إذا أسلمت الأمة فى عبادتها ، وقلدت غير المسلمين فى بقية شئونها ، فهى أمة ناقصة الاسلام** ، تضاهىء الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟! فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾[49]... »[50]... ولذلك ، فإنه « لا عذر لنا إن جانبنا طريق الحق : طريق الاسلام ، واتبعنا طريق الشهوات والزخارف : طريق أوربا !.. »[51] ــ كما يقول الأستاذ البنا ــ ..

وهذا الاستقلال : « السياسى » ، و« الاقتصادى » ، و« الحضارى ــ الاجتماعى » ، ستكون من ثمراته : « الشخصية الحضارية المسلمة » « المستقلة فكريا » !.. والتى لا تستعبدها نظريات الغرب الاستعمارى ... فالتفكير المستقل ، هو الآخر ، هدف من أهداف الاسلاميين .. وبعبارة الأستاذ البنا : **فنحن « نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا ، يعتمد على أساس الاسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد !.. »**[52]

هكذا بلغ الإخوان القمة فى وعى المضامين الحقيقية، والتى لاغنى عنها ، لتحقيق الاستقلال الحقيقى للأمة ، وتحريرها تحريرا كاملا من آثار الغزوة الاستعمارية التى أصاب بها الأوربيون ديار العروبة وعالم الاسلام ... ولا نعتقد أن تيارا آخر ، غير تيار « الاسلام الشامل » قد بلغ ما بلغوا فى هذا الميدان !..

ويزيد من خطر هذه الحقيقة ، ويرفع من قدرها وشرفها .. أن الدعوة إلى هذا « الاستقلال الكامل .. والحقيقى » ، لم تكن دعوة حزب يحصر رؤيته ودعوته وحركته فى إقليم من الأقاليم ، أو حتى قومية من القوميات .. وإنما كانت دعوة جماعة تنطلق من الوطن

---

(٤٩) البقرة : ٨٥ .

(٥٠) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٤ .

(٥١) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٧٣ .

(٥٢) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ .

الخاص .. إلى وطن الأمة القومية .. إلى وطن الملة والدين ... ثم إنها لم تبغ من وراء ذلك مجرد الاستقلال الكامل لأمتها ، بل لقد رأت في ذلك سبيلا لعودة هذه الأمة ، ثانية ، لمركز الصدارة والقيادة والعطاء عالميا ... فتلك هي مؤهلات السبق في الرهان والسباق الذى يجب أن يقوم على قدم وساق لوراثة القيادة من الحضارة الأوربية « المفلسة » المنحدرة في طريق « الانتحار » !!.. « لقد كانت قيادة الدنيا ، في وقت ما ، شرقية بحته ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة .. فورث الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم تبق إلا أن تمتد يد « شرقية » قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الايمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هانئة ، وإذا بالعوالم كلها هاتفة : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾[٥٣] !... »[٥٤].

* * *

والتفاعل الحضارى :

ولقد حسب ويحسب الكثيرون ، ممن لم يقتربوا من فكر الأستاذ البنا ــ بل ومن الذين زعموا ويزعمون التتلمذ على فكره ــ لمجرد أنهم قد انخرطوا في عضوية [الاخوان] ــ حسب هؤلاء ويحسبون أن التشديد الذى تميز به فكر الرجل عن « الاستقلال الاجتماعى ــ الحضارى » إنما يعنى التحفظ إزاء مبدأ « التفاعل الحضارى » بين المسلمين وغيرهم من أهل الحضارات الأخرى ، أو الانغلاق على الذات ، ورفض التفتح والانفتاح على التيارات الحضارية المغايرة ، بدعوى أن لدينا في حضارتنا الاسلامية كل شيء ؟!..

ولقد دعم هذا الوهم في أذهان أصحابه حسبانهم أن « سلفية » دعوة [الاخوان المسلمين] تعنى الرفض للتفاعل الحضارى مع الحضارات غير المسلمة .. أليس هذا هو موقف « السلفية » التى تبلورت في تاريخنا الفكرى من حول الامام أحمد بن حنبل ؟! .. ألم ترفض تلك الحركة « السلفية » كل ماأضافته «العقلانية» الاسلامية إلى الفكر الاسلامى ، وطلبت في البلاد التى فتحوها ، والاستجابة للضرورات التى جدت بعد هذه الفتوحات ؟!.. ألم ترفض تلك « السلفية » « علم الكلام » فضلا عن « الفلسفة » ؟!.. ثم .. ألم تتحفظ ضد « التمدن الاسلامى » الذى نهض على « عقلانية المعتزلة » وعلى التفاعل مع الحضارات

(٥٣) الأعراف : ٤٣ .

(٥٤) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٠ .

والمواريث الحضارية لغير المسلمين ؟! .. ثم .. أليس هذا هو موقف « السلفية الوهابية » ، الذى التزمته إلى حد كبير ؟!.. فلم لا يكون هذا هو موقف الشيخ حسن البنا ــ وهو « سلفى » ــ وبعد هذا الذى رأينا من تشديده وتشدده فى نقد الحضارة الغربية ، وتأكيده على أن الاسلام منظومة حضارية شاملة ومتميزة ، وتسليطه الأضواء على خطر الغزو الاجتماعى والحضارى الأوربى ، ودعوته إلى تخليص عقل الأمة ونفوسها من آثار هذا الغزو ، والاعتصام بالاسلام فى هذه الحرب الضروس ؟!..

على هذا النحو ، أو قريبا منه ، تصور كثيرون موقف الأستاذ البنا وفكره فى هذا الموضوع .. موضوع : الموقف من « التفاعل الحضارى » بين حضارتنا الاسلامية وغيرها من الحضارات ..

وهذا هو التصور الخاطىء ، الذى لابد من تفنيده ، ليكتمل الحق فى الموقف الحق [للإخوان] فى هذا الميدان ...

وبادىء ذى بدء نلفت النظر إلى أن « السلفية » ليست فصيلة فكرية واحدة ، بل هى تيار عريض ، تتمايز فيه فصائل ومدارس متعددة ... فجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ــ وكل تيار « الجامعة الاسلامية » ــ سلفيون ، لكن « مقام العقل » عندهم ــ كما سبق وأوضحنا ــ يميز سلفيتهم عن سلفية ابن حنبل ، ويباعد بينها وبين سلفية الوهابيين ... بل إننا نجد للإمام محمد عبده نقدا للوهابية قويا ، يقول فيه : « إن هذه الفئة أضيق عطنا[55] ــ [أفقا] ــ وأحرج صدرا من المقلدين ، وهى وإن أنكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه ، **فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء ؟!.. »**[56].

إذن فنحن أمام أكثر من « سلفية » !.. « سلفية نصوصية » ــ كسلفية الوهابيين ومن نحوا نحوه ونحا نحوهم ــ تقف عند « النص » ، ولا تعطى ثقتها « للعقل » ، وهى لذلك تنكر « الرأى » و« القياس » و« التأويل » .. و« سلفية عقلانية » ــ كسلفية تيار « الجامعة الاسلامية » ــ يقف فى « الدين » عند « النصوص » ، لكنه يعلى من مقام « العقل » فى فقهها وفى التوفيق بينها .. أما فى « الدنيا » فإنه يطلق العنان « للعقل » ، باعتباره دليل الله الأول للإنسان فى هذا الميدان ؟!.. ويثق بأن هذا العقل لايمكن أن ينقض ماهو ثابت وقطعى الدلالة والثبوت من « نصوص الوحى » وما هو معلوم من دين الفطرة بالضرورة أبدا ..

---

(٥٥) أصل العطن : مبرك الجمل ، ومربض الغنم .. أى المجال والإطار والأفق .

(٥٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣١٤ .

« فالاسلام — [كما يقول الامام محمد عبده] — لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الذى يجرى على نظامه الفطرى .. »[٥٧].. وصاحب « النظر العقلي » الباحث فى سنن الله وشرائعه ونواميسه وقوانينه فى الكون « مهما بحث ونظر وفكر وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لاتتجافى عنه ، ولا تنفر منه !.. »[٥٨]

وإذا كانت « السلفية النصوصية » قد اتخذت من « العقل » ومن « التمدن » المؤسس على علومه ، وكذلك من التفاعل مع الحضارات الأخرى ، موقفا غير ودى ، لوقوفها عند ظواهر النصوص ، حتى لقد أنكرت « الرأى » و« القياس » و« التأويل » .. فليس موقفها هذا هو موقف الشيخ البنا — كما سبق وأشرنا — .. فكما يعترف الرجل بـ « النظر الشرعي » ، يعترف بـ « النظر العقلي » ، ويرى أن كلا منهما قد يتناول « مالا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى » من الأمور .. والاسلام عنده « يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون[٥٩].. ويطلق للعقول — فى شئون الدنيا — العنان ..»[٦٠].. فهو لم يكن — كما قد يحسب البعض — من « السلفيين النصوصيين » ، الذين « لم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء ؟! » ..

ثم ... إذا كان فى هذا الذى قدمناه مايسهم فى « زعزعة » وهم تحفظ الأستاذ البنا إزاء « مشروعية » التفاعل الحضارى بين المسلمين وغيرهم ... فإن للرجل أفكارا واضحة ، ضمنها نصوصا حاسمة تأتى على هذا الوهم من الأساس !..

فإذا كانت « السلفية النصوصية » قد ارتابت فيما تم — فى تاريخنا الحضارى — من تفاعل بين العرب المسلمين وبين المواريث الحضارية لليونان والفرس والهنود ، ورفضت ثمرات هذا التفاعل .. فإن الشيخ البنا يرى فى هذا التفاعل الحضارى وثمراته — بالنسبة لذلك العصر — ظاهرة صحية ، ومبعث فخار لأمتنا .. لقد كان جسم الأمة صحيحا وعقلها راشدا .. فنظرت فى مواريث الآخرين وتأملت وقدرت ، ثم تمثلت ماهو ضرورى لها ومفيد ، فازداد بذلك جسمها صحة وعقلها رشدا ؟!.. وبعبارة الرجل : « فلقد اتصلت هذه الأمم الاسلامية بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على

---

(٥٧) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٧٩ .

(٥٨) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٨٤ .

(٥٩) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٦٠) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١١ .

لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، **ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية .. »**[٦١]

والموقف المبدئى والمنطلق الفكرى الذى يوجد الاتساق بين « الموقف السلفى » وبين تقبل « التفاعل الحضارى » ، هو « التمييز » بين « ثوابت الدين » وقواعده وأصوله ، وبين « متغيرات الدنيا » والفروع والجزئيات ... فثوابت الدين وقيمه وقواعده وعباداته : وضع إلهى ، لا مجال فيها للزيادة أو النقص ، ومن ثم فلا ضرورة بها لتفاعل حضارى ، اللهم إلا فى نطاق ما يثمره التمدن والرقى من زيادة الاقتدار فى فهم الدين وفقه مراميه ... أما فى « متغيرات الدنيا » وفى التفاصيل والجزئيات ، فهناك المجال واسع وفسيح لإضافات وإبداعات يفيد فيهما التفاعل الحضارى ، خصوصا وأن « ثوابت الدين » قد اقتصدت اقتصادا شديدا فى هذا الميدان ، واكتفت بالمبادىء والأطر والمقاصد والغايات والفلسفات .. وتركت الباب واسعا للإبداع والجديد ، فعلى حين كانت النصوص الدينية ، فى شئون الحضارة والعمران متناهية ، فإن قضايا الحضارة والعمران ومشكلاتهما لا تتناهى .. وفى هذا الابداع المتجدد ، يأتى دور العقل والتجربة والواقع المتجدد والمصالح المتغيرة ... وأيضا يأتى دور « التفاعل الحضارى » بين المسلمين وغيرهم من الأمم صاحبة الحضارات !..

والأستاذ البنا لا يكتفى بالموافقة على مقولة : إن الاسلام لم يقيد تطورنا بالتشريع فى « الجزئيات » ، بل يذهب إلى حد « إجلال الاسلام وتنزيهه » عن ذلك ؟!.. فيقول : « يعتقد الاخوان المسلمون أن الاسلام ، كدين عام انتظم كل شئون الحياة ، فى كل الشعوب والأمم ، لكل الأعصار والأزمان ، **جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة ، وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة ، فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشئون ، ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها**[٦٢]... **لقد جاء الاسلام للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا ، وتضع القواعد الأساسية ، وتتناول المسائل الكلية ، ولا تتورط فى الجزئيات ، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشىء منها ... »**[٦٣]

ولقد غدت هذه الفكرة عن الاسلام والنظرة لموقفه الذى « يميز » بين « الثوابت الدينية الكلية » وبين « المتغيرات الدنيوية الجزئية » .. غدت بديهة فى تراثنا الاسلامى .. فلقد « فرق الفقهاء ، فى النظرة التشريعية ، بين ماهو من **قواعد أحكام العبادات ، وشئون الحياة**

---

(٦١) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٠ .

(٦٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٥ .

(٦٣) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٩ .

الاجتماعية ، فأفسح للنظر والاجتهاد فى الثانية ماليس فى الأولى ، حتى لايكون على الناس حرج ولا مشقة ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[٦٤]. وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ... فليست فى الدنيا شريعة تقبل التطور ، وتساير مقتضيات التقدم ، وتتمتع بمعانى المرونة والسلاسة والسعة كشريعة الاسلام .. »[٦٥]... إن الاسلام « لذلك ، هو شريعة كل زمان ومكان .. »[٦٦]

وهذا الجديد ، الذى تفتح له الشريعة صدرها وتفسح أمامه الطريق ، كما يكون إبداعا ذاتيا للأمة الإسلامية ، يكون ، كذلك ، استفادة ، بواسطة التفاعل الحضارى ، من حضارات الآخرين ، شريطة أن تتسق هذه « الاستفادة » مع روح الشريعة ومنطق « ثوابت الدين».. « فطبيعة الاسلام ، التى تساير العصور والأمم ، وتتسع لكل الأغراض والمطالب .. لا تأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة[٦٧]... إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء أحسنه ، وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الاسلامية الخير من أى مكان . فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ماهو نافع مفيد عن غيرنا ، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا .. »[٦٨]

وإذا كانت هذه الأفكار والمعانى ، قد استقرت فى تراثنا الحضارى الاسلامى كبديهيات ، فبعد الانغلاق والتقوقع اللذين أصيبت بهما الأمة خلال العصور « المملوكية — العثمانية » ، احتاج الأمر إلى الحديث عن هذه الأفكار والمعانى ، من جديد ، بل وإلى تكرارها — كما صنع الأستاذ البنا فى الكثير من كتاباته — فهنا مواجهة مع أنصار « التخلف — الموروث » !..

وأمام الهجمة التغريبية احتاج الأمر ، كذلك ، إلى التفرقة بين « التفاعل الحضارى » و« الاستفادة » ، التى ينهض بها « السليم — الراشد » ، وبين « التقليد والتبعية » ، اللذين يفرضهما الغالب على المغلوب ... فالأولى تزيد « السليم » سلامة ، و« الراشد » رشدا .. أما الأخرى فهى مسخ للشخصية الحضارية المتميزة ، وقهر يمارسه الغالب للمغلوب ! « فالاسلام لا يأبى أن نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ،

---

(٦٤) البقرة : ١٨٥ .

(٦٥) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٦٦) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ .

(٦٧) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٥٥ .

(٦٨) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢١ ، ١٢٢ .

ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه ، فى كل شىء ، بمن ليسوا من دين الله على شىء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه ، لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين !.. »[٦٩]

وفى هذا الاطار .. ومن هذا المنطلق .. وبهذا المنطق .. وبعد أن أوضح الاستاذ البنا هذا المعيار للتفاعل الحضارى وحدده ، كى يتبين « خيط التفاعل الأبيض » من « خيط التبعية الأسود » ... ضرب الرجل « للتفاعل المقبول » الأمثال :

● فلتحقيق العدل الاجتماعى الاسلامى .. علينا أن نجتهد .. وأن ننظر فى تجارب الأمم ، وأن نستفيد .. « وأى نظام اقتصادى **فاضل** يرحب به الاسلام ، ويدعو الأمة إلى تشجيعه ، ولا يقف أبدا فى سبيله .. »[٧٠] .

● ولتحقيق الشورى الاسلامية ، باعتبارها « فلسفة الحكم الاسلامى » ، علينا أن نجتهد لنبدع النظم والتراتيب التى تضع فضائل الشورى فى التطبيق .. وفى هذا الاطار لا بأس ولا حرج من الاستفادة بما انجزت أوربا فى مجال « النظام النيابى » — تمثيل الأمة — .. « **فليس فى قواعد هذا النظام النيابى — الذى نقلناه عن أوربا — ما يتنافى مع القواعد التى وضعها الاسلام لنظام الحكم ، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدا عن النظام الاسلامى ولا غريبا عنه !.. »**[٧١]..

وكذلك الحال مع « مبادىء الحكم الدستورى » — التى استعرناها من الديمقراطية الأوربية — بما تعنى من : كفالة الحريات الشخصية ... والشورى السياسية ... واعتبار الأمة مصدر السلطة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ... وتنظيم حدود السلطات ، وعلاقاتها .. الخ .. الخ ... لا حرج فى الاستفادة من هذه « الانجازات الديمقراطية الأوربية » ، لأنها ، بالعرض على الاسلام وموازينه ، نجدها « متفقة معه ، بل مستمدة من نظامه » !... وبعبارة الاستاذ البنا : « **فإن الباحث حين ينظر إلى مبادىء الحكم الدستورى — [التى قام عليها الدستور المصرى الموضوع سنة ١٣٤١هـ - سنة ١٩٢٣ م] — التى تتلخص فى : المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها ، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة ، وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب ، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال ، وبيان حدود كل سلطة من السلطات . هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الاسلام ونظمه وقواعده فى شكل الحكم .**

---

(٦٩) [الإخوان المسلمون تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ٩٨ .

(٧٠) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٨ .

(٧١) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ٢١٦ .

ولهذا يعتقد الاخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستورى هو أقرب نظم الحكم القائمة فى العالم كله إلى الاسلام ، وهم لا يعدلون به نظاما آخر ... فنحن نسلم بالمبادىء الأساسية للحكم الدستورى باعتبارها متفقة ، بل مستمدة من نظام الاسلام .. »[٧٢]

الإسلام .. والوطنية والقومية :

وهذه المصطلحات التى شاعت وتشيع فى الحياة الفكرية والسياسية ــ من مثل « الوطنية » و« القومية » ــ حتى لقد غدت « نظريات » و« مذاهب » لأحزاب وجماعات .. إن البعض ينكرها جملة ويستنكرها بإطلاق ، لأنها من « وافد التغريب » !..

لكن الأستاذ البنا يدعونا إلى النظر فى المضامين أولا وأساسا ، فما وجدناه من مضامينها صالحا ، ومتسقا مع روح الاسلام السياسى والاجتماعى قبلناه ، بل وقبلنا معه ذات المصطلح والوعاء !.. وماليس كذلك رفضناه ... وهو ينهج فى معالجة هذه القضية نهجا حكيما ، تألق فيه فكره وأضاء ..

صحيح أن « رابطة العقيدة ــ [عند الاسلاميين] ــ هى أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض[٧٣]... وأن فكرة القومية تذوب أمام فكرة الأخوة الاسلامية التى يبثها القرآن فى نفوس من يتبعونه جميعا .. »[٧٤]... لكن « الوطنية » إذا كانت حبا للوطن الذى ولدنا فيه ، وحنينا إليه ، واختصاصا له بالخدمة الأكبر ، وتفضيلا له على غيره ، عند ترتيب الأولويات والامكانات .. وإذا كانت طاقة تشحن الأمة بالكبرياء التى تعينها على قهر التحديات التى يفرضها عليها الأعداء ... إذا كانت « الوطنية » هى هذه المعانى والمضامين والمشاعر والمثل .. فإن الاسلام يحتضنها ، بل ويعتبرها جزءا من منظومة فكره السياسى .. فقط يحذر أن تكون حدودها قاصرة على الاقليم الضيق الذى ولد فيه الانسان ... فهو يسلكها فى سلسلة من الحلقات ، منها الأخص ، ومنها الخاص ، ومنها العام ، ومنها الأعم ؟!... فإذا كانت « الوطنية هى : حب هذه الأرض ، وألفتها ، والحنين إليها ، والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز فى فطر النفوس من جهة ، مأمور به فى الاسلام من جهة أخرى[٧٥]... » فقط يطلب منا الاسلام أن لا نقف بحدودها عند حدود « الاقليم » الصغير الذى ولدنا فيه .. « فلقد وسع الاسلام حدود الوطن .. ليشمل : **القطر الخاص أولا** .. ثم يمتد إلى الأقطار الاسلامية .. ثم يرقى إلى الامبراطورية الاسلامية الأولى !.. ثم يسمو حتى يشمل الدنيا جميعا ... وبذلك يكون **الاسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة**

(٧٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٧٣) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ٢٢ .

(٧٤) [إلى أى شىء ندعو الناس] مجموعة الرسائل . ص ٤٩ .

(٧٥) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ .

وشعور الوطنية العامة بما فيه الخير كل الخير للإنسانية جميعا .. »(٧٦)

ولقد ضرب الأستاذ البنا المثل التطبيقى لهذه « الحلقات والدوائر » ، التى تبدأ بـ « الوطن » — مصر — أو بـ « المصرية » — [وكان يسميها فى ثلاثينيات القرن العشرين : القومية] — فالدائرة « العربية » .. فالدائرة « الاسلامية » .. ثم الدائرة « العالمية — الانسانية » ... ضرب المثل التطبيقى لهذه الدوائر ، المتوالية ، فى ترابط وتفاعل واتساق ، دونما تعارض أو تناقض فقال : « **إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أممه**(٧٧)!... **وفى المقدمة من دول الاسلام وشعوبه**(٧٨) !... **والمصرية — أو القومية — لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال** ... » ثم تساءل منكرا ومستنكرا : « كيف يقال إن الايمان بالمصرية لا يتفق مع مايجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالاسلام ويهتف بالاسلام ؟!. إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ماحيينا ، معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والاسلام ... والعروبة — [وهى الحلقة والدائرة الثانية والتالية] — لها فى دعوتنا ، كذلك ، مكانها البارز ، وحظها الوافر ، فالعرب هم : أمة الاسلام الأولى وشعبه المتخير ، وبحق ما قاله ﷺ : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » !. ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها ... إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية . تجمعها العقيدة ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة من الأرض متصلة متشابهة ، لا يحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق(٧٩). **ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله** ... والقرآن عربى ، وهو أساس هذا الدين ، وركن الصلاة أفضل القربات إلى الله ، وتلك هى الوسيلة العملية إلى وحدة اللسان ، بعد وحدة الايمان !.... دعوتنا ذات مراحل ، نرجو أن تتحقق تباعا ، وأن نقطعها جميعا ، وأن نصل بعدها إلى الغاية . **نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة تحتضن الاسلام ، وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم ، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان ، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته ... حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله** !.. »(٨٠)

---

(٧٦) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٧٧) [إلى الشباب] مجموعة الرسائل . ص ٨٨ .

(٧٨) [الاخوان المسلمين تحت راية القرآن] مجموعة الرسائل . ص ٩٩ .

(٧٩) لاحظ أنه بصدد هنا خصائص القومية العربية وسماتها !..

(٨٠) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٢ - ١١٥]

وفى مكان آخر ، يزيد الأستاذ البنا هذه المعاني ــ الخاصة « بالدوائر » المتتالية فى ارتباط وتناسق ــ يزيدها تأكيدا ، فيقول : « **إن الاخوان المسلمين يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية** ... ثم إن هذا الاسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... وقد جاء فى الأثر : « إذا ذل العرب ذل الاسلام » !. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، **فالعرب هم عصبة الاسلام وحراسه ... ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الاسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها** ... إن الاخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة ، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا **أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على سواه** . ثم هم بعد ذلك يؤيدون **الوحدة العربية ، باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض** ، ثم هم يعملون **للجامعة الاسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الاسلامى العام** .. ثم هم يريدون الخير للعالم كله ... **ولا تعارض بين هذه الوحدات** ، بهذا الاعتبار ، **فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها** !... »[(٨١)]

فالاسلام الذى « يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الاسلامى وطنا واحدا ... »[(٨٢)] لا يتنكر للوطنية ، ولا للقومية .. بل يرى « الجامعة الاسلامية » ثمرة تلى الدائرة القومية ، التى تلى ، هى الأخرى ، دائرة الوطن الذى نشأ المسلم فيه !... فقط ينكر الاسلام ويستنكر القومية إذا عنت « العصبية الجنسية والفخر الكاذب .. » أما إذا عنت « الاعتزاز بالمزايا والتاريخ » فهى مما تحتاج إليه « الأمم الناهضة »[(٨٣)] عندما تواجه التحديات التى تحول بينها وبين النهوض !..

هكذا فهم الأستاذ البنا « الاسلام السياسى » .. ووعى فكره ومرامى هذا الفكر ووظائفه فى هذا الحقل الذى اختلف فيه الاسلاميون .. ولا يزالون مختلفين ؟!..

بل إن الإعجاب بفكر الرجل هذا ليزداد عندما نراه وقد تطلع إلى « الفكرة العالمية » ، فرآها الهدف الأسمى والغاية العظمى ... وفى ذات الوقت نظر فى « القومية » فرآها « مرحلة » ضرورية ، فى سلم الرقى البشرى نحو هذه « العالمية » ، تنهض بدور هام فى تقدم الانسان على هذا الدرب الطويل ... فما يشهده العالم من « بعث وطنى » ، و« وحدات

(٨١) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٨٢) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ .

(٨٣) [نحو النور] مجموعة الرسائل . ص ٦١ ، ٦٢ .

قومية » ، و« اتحادات إقليمية » ، و« تنظيمات دولية » ، هى خطوات على الطريق إلى « العالمية » المنشودة ... « فهذه العالمية ، أو الإنسانية هى هدفنا الأسمى ، وغايتنا العظمى ، وختام الحلقات فى سلسلة الاصلاح ، والدنيا صائرة إلى ذلك لا محالة ، فهذا التجمع فى الأمم ، والتكتل فى الأجناس والشعوب ، وتداخل الضعفاء بعضهم فى بعض ليكتسبوا بهذا التداخل قوة ، وانضمام المفترقين ليجدوا فى هذا الانضمام أنس وحدة ، كل ذلك ممهد لسيادة الفكرة العالمية وحلولها محل الفكرة الشعوبية القومية التى آمن بها الناس من قبل ، وكان لابد أن يؤمنوا هذا الايمان لتتجمع الخلايا الأصلية ، ثم كان لابد أن يتخلوا عنها لتتألف المجموعات الكبيرة ، ولتتحقق بهذا التآلف الوحدة الأخيرة . وهى خطوات إن أبطأ بها الزمن فلابد أن تكون ، وحسبنا أن نتخذ منها هدفا ، وأن نضعها نصب أعيننا مثلا ، وأن نقيم فى هذا البناء الانسانى لبنة ، وليس علينا أن يتم البناء ، فلكل أجل كتاب ! »(٨٤)

إن الذين يعون هذا الفكر الذى تألق وأشرق بالاسلام ــ والذى وفق به الاستاذ البنا وجمع بين « الوطنية » و« القومية » و« الجامعة الاسلامية » و« الانسانية » .. ثم يرون الخلاف والاختلاف الذى لا يزال قائما فى صفوف الاسلاميين حول هذه القضية ، لا يملكون إلا الاعجاب والاكبار للرجل ... والدعاء بالتوفيق والهدى للذين ينتسبون إليه ، دون أن يفقهوا ماخطت يمينه من صفحات فى هذا الميدان ؟!..

لقد أعاد جماعة من [الاخوان المسلمين] نشر [رسالة المؤتمر الخامس] للأستاذ البنا ... وعند الصفحات التى تحدث فيها عن « موقف الاخوان المسلمين من الوحدة القومية والعربية والاسلامية » ــ وهو الموقف الذى عرضناه هنا ــ عند هذه الصفحات ــ ولما لم تبلغ بهم « الجرأة » حد « الحذف » أو « التشويه » لرأى الامام المرشد .. كتبوا فى « الهامش » يقولون عن آراء إمامهم المرشد مانصه :

« تصور بعض دعاة الاسلام إبان ظهور الدعوات الوطنية والقومية إمكان التقائهما مع الاسلام ، وهذا خطأ واضح ، أثبت التطبيق العملى أن الاسلام وهذه الدعوات لايمكن أن يلتقيا بحال ، لأن الإسلام دين ربانى إنسانى عالمى ، بينما هذه الدعوات بشرية أرضية عنصرية »(٨٥)

هكذا كتب فريق من [الاخوان] ... وهكذا نشر ناشر من [الاخوان] ؟!...

وفى مجلة [الدعوة] ــ لسان حال [الأخوان المسلمين] ــ كتب « كاتب » منهم ــ فسوى ــ فى العلاقة والرابطة والولاء ــ بين المسلم المصرى وأخيه المصرى ، وبين

(٨٤) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٤ .

(٨٥) انظر [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٥ . طبعة دار الاعتصام . القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

هذا المصرى والمسلم فى أندونيسيا أو نيجيريا أو تركستان .. الخ ... منكرا أى أثر « للوطنية » أو « القومية » فى هذا المقام[٨٦] ؟!..

الأمر الذى يجعلنا نترحم على فكر الأستاذ البنا عند هذا الفريق من المنتسبين إليه .. وندرك مدى الحاجة إلى إعادة قراءته ، والتعمق فى فهمه ، وإدارة أوسع حوار حوله بين الإسلاميين وغير الاسلاميين !...

لقد كان حسن البنا ، وجماعة [الاخوان المسلمين] ، أبرز الإجابات الايجابية التى رفضت بها أمتنا « التحدى الحضارى » الذى فرضه عليها أعداؤها .. سواء منه : « الوافد العثمانى الموروث » ؟! أو « الوافد الغربى الطارىء » ؟!... وكان « الاسلام الشامل » هو البديل الذى قدمته هذه الإجابة ، ورأت فيه « فكرية الأمة » ، المعبرة عن خصوصيتها الحضارية ، وشخصيتها القومية .. كما رأت فيه حصنها التاريخى العريق والعتيد أمام كل المخاطر وجميع التحديات !..

* * *

وسبل التنفيذ :

وعلى قدر خطر « التحدى الحضارى » الذى نهضت جماعة [الاخوان المسلمين] لمواجهته .. وعلى قدر شرف الغاية التى تمثلت فى « البديل الاسلامى » ، الذى عملت الجماعة على إعادته إلى الأمة ، وإعادة الأمة إليه من جديد ، ليتصل ما انقطع من تطورها الاسلامى « بالتخلف المملوكى ــ العثمانى » و« التحديث الغربى المادى » ... على قدر هذا الخطر كان تدبير الأستاذ البنا ، يرحمه الله ، وتقديره ...

لقد كان دائم الالحاح على أعضاء الجماعة ــ والشباب منهم خاصة ــ أن لايتعجلوا مرحلة التنفيذ ، وجنى الثمار قبل الأوان ...

« أيها الاخوان المسلمون ، وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم : اسمعوها منى كلمة عالية داوية ... إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده » . ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول . أجل ، قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل

(٨٦) د . محمد رشاد خليل [شخصية مصر التاريخية] مقال بمجلة [الدعوة] . القاهرة . فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨هـ. مارس سنة ١٩٧٨ م .

الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . ومن صبر معي حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره فى ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة ..

أيها الاخوان المسلمون : ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ... ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابّة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر ، وماهى منكم ببعيد ! .. »[87]

قال الأستاذ البنا ذلك [سنة ١٣٥٧هـ سنة ١٩٣٨ م] وكانت الدعوة يومها فى مرحلة « التعريف » ، أى « نشر الفكرة بين عامة الناس » ... فلما كان يوم الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ ١٣ إبريل سنة ١٩٤٠ م تمت البيعة « للعناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد » والتظمت فى « الكتائب الاخوانية » .. واصبح لها نظام خاص فى الدعوة ــ « صوفي بحت من الناحية الروحية ، وعسكرى بحت من الناحية العملية » ــ .. وصار شعارها فيهما : « [أمر وطاعة] من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج » .. ولم تكن الدعوة فى هذا الطور « عامة » ، كما كانت فى شعب الإخوان وأجهزتها ووسائل إعلامها ومجالات أنشطتها المرئية ، بل كانت « دعوة خاصة ، لا يتصل بها إلا من استعد استعدادا حقيقيا لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات » ....

وسارت الجماعة بجناحيها هذين ، العام والخاص ، تسعى لليوم الذى تحين فيه وتأتى « مرحلة التنفيذ .. مرحلة الجهاد الذى لا هوادة معه ، والامتحان والابتلاء اللذين لا يصبر عليهما إلا الصادقون »[88] !

ومن هنا نستطيع القول بأن الأستاذ البنا ، إدراكا منه لخطر التحدى .. ولخطر الغاية وشرفها ، قد اعتمد سياسة « المراحل » فى الاعداد والتنفيذ ــ وبدون إدراك هذه الحقيقة يستحيل تفسير الكثير من مواقف الإخوان غير الواضحة وغير الحاسمة فى بعض الفترات وبعض الممارسات ؟! ــ

ونستطيع أن نقول : إن الرجل قد أدرك ــ بل وأعلن ــ أن « القوة » ضرورة لابد من الاعداد لها ، والاستعداد بها ، واستخدامها فى الوصول إلى هذا الهدف العظيم !.. فهو لم

(٨٧) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦١ .

(٨٨) [رسالة التعاليم] مجموعة الرسائل . ص ٢٧٤ .

يخدع أحدا .. ولم يفاجىء أحدا .. بل كان واضحا ، فى هذا الأمر ، كل الوضوح !...

ولنقرأ له هذه السطور :

« يتساءل كثير من الناس : **هل فى عزم الاخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الاخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر ؟...**

أما القوة ، فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته !.. فالإخوان لابد أن يكونوا أقوياء ، ولابد أن يعملوا فى قوة ... وأول درجة من درجات القوة : قوة العقيدة والايمان ، ويلى ذلك : قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح ؟!..

والثورة : أعنف مظاهر القوة ... إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الايمان والوحدة ....

أما الثورة . فلا يفكر الاخوان المسلمون فيها ... وإن كانوا يصارحون .. بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ... فسيؤدى حتما إلى ثورة[٨٩]!.. إلى أرى الوميض خلال الرماد ويوشك أن يكون له ضرام[٩٠]..

أيها الإخوان : ... إن قيل لكم : أنتم دعاة ثورة ، فقولوا : نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به ، فإن ثرتم علينا ، ووقفتم فى طريق دعوتنا ، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا ، وكنتم الثائرين الظالمين ؟!.... »[٩١]

لقد حدد الرجل ، فى وضوح وجلاء : ... أن « القوة » هى طريق جماعة [الاخوان المسلمين] لمواجهة التحديات التى تعترض سبيل تحرير الوطن الاسلامى ، وإقامة الدولة الاسلامية ، وإعادة الأمة إلى كامل شريعة الاسلام ...

● « فالكتائب الإخوانية » ، تتربى — روحيا — تربية « صوفية بحتة » .. وشعارها « أمر .. وطاعة » .. أى أمر القائد الشيخ .. وطاعة الجندى المريد « من غير تردد ولا مراجعة ولاحرج » !— ونظام هذه « الكتائب » : « عسكرى بحت من الناحية العملية » !..

● و« القوة العملية » — قوة « الساعد والسلاح » — يستخدمها [الاخوان] حينما « يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة » !

(٨٩) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٩٠) [مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] مجموعة الرسائل . ص ١٩٦ .

(٩١) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٤ .

أما الثورة ، فهى واردة ... فوميضها تحت الرماد ، يوشك أن يكون له ضرام ... وشرعيتها وقيامها مرهونان باعتراض الآخرين طريق الدعوة ـ وهم بالقطع معترضون ـ ؟ ! ... والمسئولية عنها يتحملها « المعترضون الظالمون » ! ...

هكذا كان الشيخ البنا واضحا وصريحا ، رغم ما اشتهر به من الكياسة والصياغات المرنة والتوفيقية ، التى تدع مختلف الأبواب مفتوحة ، وتترك الفرص لكل الاحتمالات ؟! ...

لكن الذى حدث لهذا التخطيط والتقدير والتدبير ، مع نهاية أربعينيات هذا القرن معروف ، لايزال ماثلا فى الأذهان ! ..

● فهل تعجلت عناصر « الجهاز الخاص » السرى والمسلح ، مرحلة « التنفيذ » قبل « استكمال العدة »[92] ؟ ! ...

وهل نفد صبرهم ، فلم ينتظروا التوقيت الذى حدده المرشد عندما قال لهم : «أريد أن أكون صريحا معكم للغاية ، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة ....أعدوا أنفسهم ... **وفى الوقت الذى يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها ، روحيا بالايمان والعقيدة ، وفكريا بالعلم والثقافة ، وجسميا بالتدريب والرياضة ، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجج البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإنى فاعل إن شاء الله ؟ ! »**[93]

هل تعجلت عناصر «الجهاز الخاص» مرحلة «التنفيذ» ، واستخدام القوة قبل «التوقيت» الذى تحدث عنه الأستاذ المرشد ؟ ! ...

● أم أنها قد دُفعت إلى ذلك دفعا ؟ ! ...

● أم الأمران والسببان معا ؟ ! ...

إننا لانملك أسباب الفصل فى هذه القضية ... فقط نقول :

إن دعوة البعث الإسلامى هذه ، التى شهدها القرن الهجرى الرابع عشر ، كأعظم حركات تجديد حياة الأمم والشعوب الاسلامية ، قد دخلت طور « المحنة » ، التى تنبأ بها مرشدها العام ، عندما خاطب [الاخوان] فقال : «إنكم ستدخلون فى دور التجربة والامتحان ، فتسجنون وتعتقلون ، وتنقلون وتشردون ، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم

---

(٩٢) الجهاز الخاص هو الجهاز السرى المسلح .. وهو غير الكتائب ، الذى كانوا أعضاء الجماعة « العاملين » .

(٩٣) [رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٦٢ .

وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ﴾[٩٤] ؟!... »[٩٥]

لكن « المحنة » لم تقف عند هذه الحدود ...

فلقد استشهد ، غيلة ، المرشد العام فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٦٨هـ ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م ... ففقدت الحركة إمامها ومرشدها ... وظهرت سلبيات تلك « العادة الشرقية » ، عادة تفرد القائد وتميزه عن خلفائه ونوابه ورجال « الصف الثانى » على نحو يباعد بينه وبينهم فى الصفات والقدرات إلى الحد الذى يجعل فقده بمثابة الزلزال الذى يصيب الحركة فيسلبها إمكانيات الاستمرار على النحو الذى كانت عليه فى حياة القائد المؤسس والإمام المربى !...

لقد حدث ذلك لدعوة [الاخوان المسلمين] وحركتها ... فلما استحكمت المحنة واشتدت، بعد صدامها مع ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م فى سنة ١٩٥٤ م ... وضحت ، فى هذا الصدام وفيما تلاه ، مدى خسارة الدعوة فى مرشدها الأول ...

لقد « تشرذمت » الحركة ، بعد فقد مرشدها الأول ... وكثير من « شراذمها » قد فقد « الرشد » بعد فقد « المرشد » ؟!...

ودخلت الصحوة الاسلامية ، أو أُدخلت فى طور جديد ... طور يتميز بـ « الثورية » .. وبـ « العمل » الذى يجتذب مواكب الشباب الطاهر المقبل على الاسلام ... ويتميز ، كذلك ، بتعدد التنظيمات إلى الحد الذى يجعل بأس الاسلاميين بينهم شديدا ؟! ... وبالافتقار إلى « الاجتهاد » فى الفكر .. وفكر « الاسلام السياسى » على وجه الخصوص ....

لقد بدأت الصحوة الاسلامية ، لدى تيار « الجامعة الاسلامية » : « اجتهاد صفوة » ، فى الأساس ... ثم أضافت حركة [الاخوان المسلمين] إلى هذا « الاجتهاد » : « العمل » ، بواسطة « التنظيم المتحد » ... لكنها عادت اليوم تفتقر إلى « وحدة التنظيم » وإلى « الاجتهاد » !... فـ « العمل » الاسلامى ، الذى يجتذب اليوم مواكب الشباب الطاهر الممتلىء بالحماس ، مع « التشرذم » التنظيمى ، والافتقار إلى « الاجتهاد » الذى ينير « للعمل » الطريق ، يجعل الصحوة الاسلامية أشبه ما تكون بـ « المجاهد » الذى يمشى إلى الميدان على ساق واحدة ؟!... وفى أحيان كثيرة تحيطه الظلمات ؟!...

* * *

(٩٤) العنكبوت : ٢ .

(٩٥) [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٤٣ .

لكن ... طالما قام الاسلام دينا لهذه الأمة .. وهو قائم محفوظ بأمر الله وإرادته ... وطالما ارتضت هذه الأمة هذا الدين رباطا يربطها بالخالق ... فلابد من الجهاد لجعل هذا الدين : الرباط الذى يربط بين أفرادها ، وينظم لها شئون الدنيا ... فالسبيل إلى تجديد دنيانا هو سبيل الاسلام ... وتلك سبيل ، لمريد الاصلاح فى المسلمين ــ كما قال الامام محمد عبده ــ لا مندوحة عنها ، ولا سبيل سواها !..



الفصـــل الـــرابع

الجماعـــة الإســـــــلامية



كان الأستاذ أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ - ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩م] فى الخامسة عشرة من عمره عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها [١٣٣٧هـ ١٩١٨م] وفى هذا التاريخ بدأ العمل فى « الصحافة » ..

ومع انتهاء الحرب ظهرت معالم المخطط الذى رسمه الاستعمار الغربى لابتلاع ماتبقى من أوطان المسلمين ... فالسيطرة قد تمت على قلب العالم الاسلامى : الوطن العربى .. بل لقد زحفت جيوش « الحلفاء » فاحتلت « استانبول » ــ فى ١٣ جمادى الثانى سنة ١٣٣٧ هـ ١٦ مارس سنة ١٩١٩ م ــ ؟!.. وانتشى الاستعمار .. وتساءلت « الروح » الصليبية الكامنة فى غزوته ، وهى فرحة : ماذا بقى للإسلام ؟! وماذا يستطيع المسلمون أن يفعلوا بعد أن احتلت جيوش أوربا عاصمة « الخلافة » ، « الرمز » الذى أرقنا وأقض مضاجعنا لعدة قرون ؟!...

وأمام هذا الحدث الجلل ، استشعر المسلمون الخطر ، فبدأت ، على امتداد الساحة الاسلامية « حركة الدفاع عن الخلافة الاسلامية » ... وكانت أول عمل إسلامى يشارك فيه الفتى الصحفى أبو الأعلى المودودى ، وهو ابن ستة عشر عاما !..

وفى نفس العام [١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م] أسهم إسهاما بارزا فى المجلس الذى تكون لإعانة ومساعدة المسلمين ، بالهند ... ثم كون فى العام التالى [١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م] جبهة صحفية ، تعمل لتحرير الأمة الاسلامية ، وتبليغ دعوة الاسلام ، ونصرة المسلمين !..

وهذا النشاط الاسلامى ، الذى اجتذب المودودى ، دفعه دفعا إلى الاهتمام بتثقيف نفسه إسلاميا وعربيا ، فبدأ [١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م] يدرس الأدب العربى ، وتفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وكذلك المنطق ، والفلسفة ، بالاضافة إلى دراسة اللغة

الانجليزية ، والمطالعة فى آدابها ...

ومع الدراسة المعمقة ، استمر المودودى يمارس العمل بالصحافة ، وأضاف إلى ذلك : الخطابة حول القضايا الاسلامية .. ثم انعطف إلى التأليف ....

وفى الوقت الذى كانت أوربا الاستعمارية قد جعلت صدور المسلمين أغمادا لسيوفها !.. كان قطاع من « هنادكة » الهند ينتقدون الاسلام ، زاعمين أنه قد انتشر بالسيف ، وليس بالحجة والقدوة والمنطق والبرهان !... ويومها وجه الزعيم المسلم الهندى محمد على جوهر [١٢٩٥ - ١٣٥٠هـ ١٨٧٨ - ١٩٣١ م] نداءه إلى الشباب أن يردوا على هذا الاتهام، الذى شارك فيه الزعيم غاندى [١٢٨٦ - ١٣٦٧هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٨ م] .. فاستجاب للنداء أبو الأعلى المودودى .. فكان طليعة تآليفه الاسلامية كتابه [الجهاد فى الاسلام] الذى اكتمل [١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م] .. ليكون استهلالا ذا دلالة على ما ستحفل به سنوات حياته القادمة من أحداث ونضالات ، جعلت منه « المفكر — المناضل » الذى قاد واحدة من فصائل « الصحوة الاسلامية » فى الهند وباكستان — فيما بعد — وأحدث ، ولا يزال ، مالم يحدثه الكثيرون فى تيار الصحوة الاسلامية على امتداد عالم الاسلام والمسلمين !...

* * *

وبعد أن كان المودودى يخاطب القارىء المسلم الهندى من خلال صحف ومجلات ، يصدرها الآخرون .. أصدر فى [١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م] مجلته [ترجمان القرآن] من مدينة « حيدر آباد الدكن » ، لتكون المنبر الفكرى الذى تابع فيه دعوته لبعث الاسلام وتجديده ولإيقاظ المسلمين ونهضتهم ... ولقد جعل شعار هذه المجلة كلمات تقول : « **احملوا — أيها المسلمون — دعوة القرآن ، وانهضوا ، وحلقوا فوق العالم** » ؟!...

وكانت الهند تموج بأحداث حركة التحرير الثائرة طلبا للحرية والاستقلال عن الاستعمار الانجليزى ، يقودها [حزب المؤتمر] ، الذى يقوده ، روحيا : غاندى ، وتنظيميا جواهر لال نهرو [١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م] ، والذى انخرط فيه جمهور الهنادكة ، والقطاع الأكبر من المثقفين والساسة والشباب المسلمين ... وإلى جانب هذا الحزب كان تيار إسلامى ، يدعو إلى التميز عن هذه الحركة ، فى « التنظيم » ، إيمانا منه باختلاف صورة المستقبل عند المسلم عنها عند الهندوكى ، لما بينهما من اختلاف « قومى » ، فهما — برأى هذا التيار الاسلامى — أمتان وقوميتان ، وليسوا أمة واحدة !.. وكان الشاعر الفيلسوف محمد إقبال [١٢٩٠ -١٣٥٧ هـ ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م] من أبرز رموز هذا التيار ..

وكان تأثير المودودى ــ عبر [ترجمان القرآن] ــ عاملا من عوامل اشتداد ساعد هذا التيار الاسلامى ، الذى تبلور فى حزب [الرابطة الاسلامية] ، والذى حسم الموقف فدعا إلى استقلال الولايات ذات الأغلبية الاسلامية ، ذاتيا ، عن تلك التى أغلبيتها هنادكة ، فى مؤتمره الذى عقد فى « لنكو » [١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م] ... ولشهرة المودودى ، التى أبرزته فى محيط التيار الاسلامى ، ولتعاظم تأثيره ، دعاه ، فى ذات العام ، المفكر إقبال إلى « لاهور » ، ليمارس نشاطه منها .. فلبى الدعوة ، وغادر « حيدر آباد الدكن » إلى « لاهور » ... وفى العام التالى [١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م] انتقل إقبال الى جوار ربه ... واشتد النضال الفكرى للمودودى ضد دعاة « القومية الهندية الواحدة » ، وفى سبيل مستقبل مستقل ، سياسيا ، للمسلمين الهنود ، تميزهم قوميا وحضاريا عن « الهندوك » ..

وفى السنوات الثلاث التى أعقبت موت إقبال [١٣٥٨ - ١٣٦٠ هـ ١٩٣٩ - ١٩٤١ م] كتب المودودى مؤلفاته التى بلورت فكره السياسى الاسلامى ، والذى واجه به « التحدى الحضارى » الذى كان يواجه مسلمى الهند فى ذلك التاريخ ، والذى كان يتمثل فى فكر الحضارة الغربية الغازية ، حول :

١ - القومية السياسية المبنية على « وحدة الأرض » ، و« المصلحة السياسية الواحدة » لعموم الهنود فى التحرر من الاستعمار الانجليزى ..

٢ - والدولة « الديمقراطية » ــ على النمط الغربى ــ التى تحكمها « الأغلبية » وتخضع فيها « الأقلية » ..

٣ - و« العلمانية » ، التى تفصل « الدين » عن « الدولة » ، ولا تجعل الدين قسمة يتمايز بها الناس قوميا وحضاريا .. وما تمثله هذه « العلمانية » من سيادة « الروح المادية » للحضارة الغربية فى مختلف مناحى الحياة ...

أما الجناح الآخر لهذا « التحدى الحضارى » فكان « التخلف الموروث » ، والمحسوب ــ زورا وبهتانا ــ على الاسلام ، والمتمثل فى الفكر « الاسلامى » التقليدى ، السائد فى المؤسسات « الاسلامية » التقليدية .. وهو الفكر الذى طمس تألق الاسلام وجاذبيته ، فأسهم هذا الطمس فى دفع الكثيرين من مسلمى الهند إلى صفوف حزب المؤتمر ، بعد أن آمنوا بأن النمط الحضارى الغربى هو أنسب الأنماط الحضارية لنهضة « عموم الهند » !..

وكانت كتب المودودى ، التى صاغ فيها فكره الذى واجه به ــ بل تحدى ــ هذا « التحدى الحضارى » ، هى :

١ - [المسلمون والصراع السياسى الراهن] الذى كتبه [١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م] ..

٢ – و[الأمة الاسلامية وقضية القومية] الذى كتبه [١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م] ..
٣ – و[النظرية السياسية الإسلامية] وهى محاضرة القاها [١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م] ..
٤ – و[الحكومة الاسلامية] الذى كتب فصوله بين [١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م] و[١٣٦٠ هـ ١٩٤١ م] ..
٥ – و[موجز تاريخ التجديد وإحيائه] الذى كتبه [١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م] ..

وفى الوقت الذى كان المودودى « يبلور » فيه « الفكر ـــ المناضل » ، الذى تحدى به ما سماه « الجاهلية » ، بشكليها وجناحيها « الوافد ـــ الغربى » ، و« الموروث ـــ المنحط » !.. فى ذات الوقت كان يسعى إلى « بلورة » « الأداة التنظيمية » ، القادرة على وضع هذا الفكر الاسلامى فى التطبيق ، وقيادة النهضة الاسلامية والبعث الحضارى الاسلامى الجديد .. كان يسعى إلى تكوين [الجماعة الاسلامية] ، التى تخرج الأمة من « الجاهلية » إلى « الاسلام » من جديد ، كما صنع ذلك ، من قبل جيل الصحابة بقيادة الرسول محمد ، عليه الصلاة والسلام !.. ذلك أن المودودى قد خابت آماله فى حزب [الرابطة الاسلامية] ، الذى كان يقوده محمد على جناح [١٢٩٣ – ١٣٦٧ هـ ١٨٧٦ – ١٩٤٨ م] ـــ لأنه وإن دعا إلى استقلال مسلمى الهند عن هنادكتها ، ولئن آمن بتميز المسلمين قوميا ، إلا أن هذا الحزب قد كان غارقا فى « روح التغريب » الذى أشاعته الغزوة الاستعمارية الأوربية فى البلاد ، حتى لقد تصور « القومية الاسلامية » على النحو الذى كانت عليه صورة القومية فى الفكر الغربى إلى حد كبير !..

ومع تبلور فكر المودودى هذا ـــ وهو « فكر ـــ مناضل » ـــ امتلك « الأداة ـــ المناضلة » ، عندما اجتمع بـ « لاهور » ، استجابة لدعوته ، خمسة وسبعون رجلا ، فأسسوا [الجماعة الإسلامية] فى ٣ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ م ، وانتخبوا الأستاذ المودودى أميرا لها .. فبدأت بهذه الجماعة مسيرة واحدة من فصائل تيار « الصحوة الاسلامية » ، ذات الطابع المتميز ، فيما طرحته من « فكر » ، وفقا لما تميز به « الواقع » الذى قامت فيه ، وتصدت لتجديده وتغييره ؟!..

* * *

فى مواجهة « الجاهلية الموروثة » ؟! :

كانت المرة الأولى التى يشيع فيها ، بأدبيات إحدى فصائل « الصحوة الاسلامية » ، وصف واقع الأمة بـ « الجاهلية » ! ويتكرر الحديث عن « ارتداد » المجتمع ـــ « المسمى »

بالاسلامى — إلى « الجاهلية » المماثلة لتلك التى أخرج الاسلام العرب من ظلماتها إلى نوره وتنويره .. وكان الأستاذ المودودى هو الذى ارتاد المنحى الجديد فى وصف وتشخيص واقع المسلمين .. ففكرهم الموروث : جاهلى .. والوافد الذى أخذوه عن الحضارة الغربية « جاهلية .. جديدة .. معاصرة .. متحضرة ؟! »[1]... ذلك « **أن دين الله قد رزىء وغلب على أمره بيد الكفر وأهله ، وأن حدود الله ما انتهكت واعتدى عليها فحسب ، بل إنها تكاد تنعدم من الوجود ، لأجل غلبة الكفر ، وأن شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور ، لا عملا فقط ، بل بموجب القانون أيضا ، وأن أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء الله** »[2] ؟!..

فالكفار أعداء الله — الإشارة هنا إلى المستعمرين الغربيين — قد غلبوا المسلمين — بالعدوان المادى والفكرى — على الدنيا وعلى الدين .. لقد احتلوا الأرض ، ونهبوا الثروة ، واستعبدوا البشر ... وفوق ذلك طاردوا الاسلام حتى طردوه من المؤسسات الاسلامية ، مدرسة ، ومحكمة ، وديوانا ، ومن عقول الفئة التى تعلمت وتثقفت وغدت ذات تأثير يسهم فى عموم الابتلاء بالجاهلية بين العامة والجماهير ... ولقد تمادى أعداء الله ، فتجاوزوا مرحلة مطاردة الاسلام وطرده عمليا من واقع المسلمين وفكرهم ، وبلغوا مرحلة « تقنين » هذا الطرد ، عندما جعلوا شرائعهم هى الحاكمة فى بلاد المسلمين بدلا من شريعة الله ، وحرسوا ذلك الانقلاب ، لا بجيوشهم وحدها ، بل وبالذين « تغربوا » ممن ينتسبون إلى الاسلام ؟!..

ولقد أعان أعداء الله على إحكام سيطرة « جاهليتهم الحديثة » هذه على مقدرات بلادنا ، أنهم — عندما غزوها — وجدوها تعيش جاهلية موروثة منذ قرون عديدة .. وهذه « الجاهلية الموروثة » كانت قد اضعفت مقاومة الأمة ، عندما نزعت سلاحها الفعال : الاسلام ... وأوهنت عزمها بقرون الانحطاط الذى عم مناحى الحياة ، الدينية والخلقية والفكرية ، طوال تلك القرون .. لقد فتحت « الجاهلية الموروثة » الباب « للجاهلية الحديثة » ، وأغرت الوحش بضعف الفريسة !.. فكان « الاستعباد الذى ابتلينا به فى القرن التاسع عشر نتيجة محتومة لانحطاطنا الدينى والخلقى والفكرى ، الذى كنا متردين فيه من قرون عديدة ! .. »[3]

---

(١) انظر للمودودى : [الحكومة الاسلامية] ص ١١٣ ، ١٥٥ . ترجمة : أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م . و[الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٣٠ ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١ م . و[موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٣٩ ، ٦٣ . ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .. الخ .. الخ .

(٢) المودودى [الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٣) المودودى [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٢٩ . ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .

ولم يكن « الأمراء » و« الساسة » هم ، وحدهم ، المسئولون عن سيادة « الجاهلية الموروثة » ديار الاسلام .. بل إن حملة الدين وعلماءه يتحملون فى ذلك وزرا كبيرا .. لقد كانوا « يستبدون بكتاب الله !.. ويعدون أنفسهم حملة له من دون غيرهم ، فيحرمون العامة علمه ، وينفذون فى الناس أحكامهم ، يحلون ما يشاءون ، ويحرمون ما يريدون ، زاعمين أن الله ينطق بألسنتهم ، وبمثل هذه الحيلة يقهرون الناس على أن يتبعوهم ويتخذوهم أربابا من دون الله — وهذا هو الأصل للبرهمية [٤] والبابوية[٥] السائدة فى مختلف أنحاء المعمورة إلى يومنا هذا ، بصور مختلفة وبأسماء متنوعة ، وهى التى اتخذت منها بعض الشعوب والقبائل والبيوتات آلة وحيدة لسيادتهم وسلطتهم على الناس !.. »[٦]

لقد تحولوا من « علماء دين » إلى « رجال دين » ، ثم حولوا الدين إلى قوة أعانت المستبدين على الاستبداد .. وهكذا أصبحوا ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾[٧] .. ويتبعون سنن من قبلهم فى طريق الجاهلية ، التى ما جاء الاسلام إلا ليمحوها ويرفع عارها عن جبين الانسان !..

أما تاريخ بدء تسرب هذه « الجاهلية الموروثة » إلى حياة الأمة ، فإن الأستاذ المودودى يعود به إلى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان [٤٧ق.هـ ٥٧٧-٦٥٦م] رضى الله عنه وأرضاه !..

ففى رأى المودودى أن النبوة قد جاءت لتنجز مهاما ثلاثة :

أولاها : إحداث الانقلاب الفكرى والنظرى فى عموم الانسانية ..

وثانيتها : تكوين الجماعة المؤمنة بالفكر النظرى الالهى الجديد ، تعمل لانتزاع السلطة من أيدى الجاهلية المسيطرة ، مستخدمة الأسلحة المتاحة والمناسبة فى « المدنية » القائمة يومئذ ..

وثالثتها : إقامة الحكم الاسلامى — البديل للجاهلية — وتنظيم كافة شعب المدنية على الأسس الاسلامية الخالصة .. ثم الانطلاق لتوسيع الدائرة التى يسودها حكم الاسلام ...

---

(٤) الطبقة العليا — طبقة الكهنة ومفسرى الكتب الدينية — فى الديانة الهندوكية .

(٥) الممثلة « للسلطة الدينية » فى المسيحية .

(٦) المودودى [نظرية الاسلام السياسية] ص ٢٢ ، ٢٣ . ترجمة : خليل حسن الاصلاحى . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م — ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور » .

(٧) التوبة : ٣٠ .

فالعقيدة أولا ... ثم الجماعة التى تتجسد فيها هذه العقيدة حركة تسعى بين الناس ... ثم المجتمع الذى تتجسد فيه هذه العقيدة ... والذى ينطلق ، بالجهاد ، لتوسيع دائرة الاسلام وتقليص سيطرة الجاهلية وقبضتها عن رقاب البشر وحياتهم ...

تلك هى مهام النبوة ــ بل مهام كل النبوات والرسالات ــ .. ولقد أنجزها وأتمها الرسول ، ﷺ ، فى السنوات الثلاث والعشرين التى عاشها بعد البعثة .. ثم سار على دربه أبو بكر الصديق [٥١ق.هـ ١٣هـ ٥٧٣ - ٦٣٤ م] وعمر الفاروق [٤٠ق هـ ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] رضى الله عنهما ... فلما انتقل الأمر إلى عثمان بن عفان سار على ذات النهج عدة سنين .. ثم .. حدثت الثغرة ، التى نجم منها قرن الجاهلية من جديد !.. والمودودى يتحدث عن هذا التحول ، الذى يسميه : « وثبة الجاهلية » .. فيقول : إن « الخليفة الثالث .. كان لا يتصف بتلك الخصائص التى أوتيها العظيمان اللذان سبقاه ، **فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الجماعى الاسلامى** . وإن تيارها الجارف وإن حاول عثمان ، رضى الله عنه ، سده ببذل نفسه ومهجته ، إلا أنه لم ينكفىء . ثم خلفه على ، كرم الله وجهه ، **واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة وصيانة السلطة السياسية فى الاسلام من تمكن الجاهلية منها ، لكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعى المركوس حتى ببذل نفسه ، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة ، وحل محلها الملك العضود** [Iyrant Kingdom] **وبدأ الحكم والسلطة يقوم على قواعد الجاهلية بدلا من قواعد الاسلام** »[8] !..

تلك كانت بداية « وثبة الجاهلية » القديمة من جديد ؟!

ثم حدث ــ ولفترة لم تتعد العامين ــ فى ظل حكم الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م] ــ حدث أن انجلت الجاهلية عن الحكم والسلطة ، لكنها عادت واستحكمت ــ بعد وفاته ــ من جديد !.. **فلقد « انتقلت أزمة السياسة والحكومة ، بعد عمر بن عبد العزيز ، إلى أيدى الجاهلية للأبد !** » .. فالأمويون والعباسيون والأتراك قد « استوردوا فلسفات اليونان والروم والعجم ، وأشاعوها بين المسلمين على صورتها التى كانت عليها .. فانتشرت ضلالات الجاهلية الأولى ــ [جاهلية اليونان وما ناظرها] ــ وأباطيلها فى جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع ! »[9]

وهنا نلاحظ أن المودودى ، فى تقييمه لهذا الاتصال الحضارى والتفاعل بين العرب وغيرهم من الأمم ، قد اختلف مع حسن البنا فى تقييم هذا الاتصال وذلك التفاعل ... فالبنا

(٨) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٣٤ - ٣٧ .

(٩) المرجع السابق . ص ٦٣ ، ٦٤ .

قد رآه ظاهرة صحية، لم تحول الأمة عن هويتها المتميزة[10]، على حين يعتبره المودودى دعما جاهليا شد من أزر الجاهلية التى وثبت منذ عصر عثمان بن عفان !..

ثم يتتبع المودودى خط سير نمو التأثيرات الجاهلية فى حياة المسلمين وتكوينهم العقلى ... فالتتار ــ رغم إسلامهم ــ أضافوا « إضافة جاهلية » عندما حكموا ، لأنهم « كانوا أشد وأرسخ فى جاهليتهم ممن سبقهم من ولاة الأتراك ... فشاع التقليد الجامد إلى حد أن عاد مختلف المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات برأسها ، وأصبح الاجتهاد معصية ، وعادت البدع والخرافات أمورا مستندة إلى الشرع ، وصار الرجوع إلى الكتاب والسنة ذنبا لايغتفر ــ [مات بسببه فى السجن مجتهد مناضل مثل ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] ــ ؟!. وتكون من العوام الجهلة الضلال ، والعلماء أولى النظر الضيق من طلاب الدنيا ، والملوك الجاهلين الغاشمين : اتحاد ثلاثى عجيب ؟!.. »[11]

ولم يكن المماليك ــ بصدد هذه الجاهلية ــ بدعا عمن سبقهم من الملوك والسلاطين .. فلقد حكموا فى « الدولة » و« المجتمع » ، بل وفى « شئونهم الشخصية » ــ فى أغلب الأحوال ــ « بالدستور الجنكيزى » !.. ولم يبق للشريعة الاسلامية ميدان تحكمه إلا « الأمور الشخصية للعامة ، من مثل النكاح والطلاق والميراث » .. حتى لقد « أذنوا فى قيام دور البغاء .. وضربت على البغايا ضريبة يودع دخلها فى بيت مال « الدولة الاسلامية »[12] ؟!...

وهكذا بلغ امر استبداد الجاهلية بالحكم والسلطة ، فى حياة المسلمين ، إلى الحد الذى أصبحت فيه علاقة المسلمين بشريعتهم كعلاقة أهل الذمة بشريعتهم ، فى ظل الدولة الاسلامية .. لا تتعدى « القانون الشخصى » إلى حكم الدولة والهيمنة على توجيه المجتمع والحياة ؟!..

لكن ... لأن الله ، الذى أنزل الذكر ، قد تكفل بحفظه .. ولأن هذا الدين قد صار فكرية الأمة ، ورسالتها فى الحياة ، ومظهر امتيازها وتميزها عن الأمم الأخرى ... فلقد عجزت ظلمة الجاهلية عن أن تمحو آية الاسلام !..

لقد زادت شوائبها ، فذهبت بنقائه .. بل وهددته عندما خلعت فعاليته عن مجالات حياتية حيوية .. لكنها وقفت عند حدود : التشويه له ، نتيجة اختلاطها به ، دون أن تنجح

---

(١٠) حسن البنا [بين الأمس واليوم] مجموعة الرسائل . ص ١٣٠ .

(١١) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٢) المرجع السابق . ص ٧٤ .

فى إجلائه عن مملكته .. فظل « الإسلام يعم ببركاته وخيراته ـــ ولو على وجه غير مباشر ـــ قصور الدول والحكومات ، ومدارس الفلسفة والحكمة ، ودور التجارة والصناعة ، وزوايا الخلوة والاعتكاف ، وسائر شعب الحياة ، واستمر نفوذه فى العامة ، على رغم أنف جاهلية الشرك ... وظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائما من أخلاق سائر الأمم . وفوق ذلك كله ، ماخلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الاسلام وسعوا فى إحياء هدايته العلمية والعملية فى حياتهم أنفسهم وفى الحلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم »[١٣]

ولهذه « الردة الجاهلية » ، التى خالطت الاسلام واختلطت بتعاليمه ، والتى أقصته عن مجالات حياتية حيوية ، وشوهت بعض عقائده فى تصورات العوام .. ولدى المتصوفة ، وفقهاء التقليد والجمود ... لهذا التقييم الذى حدده الاستاذ المودودى لمسيرة الاسلام والجاهلية ، واختلاطهما فى الواقع الذى عاشه ويعيشه المسلمون .. برزت فى كتابات الرجل أوصاف « الردة » و« الكفر » فى وصف « المجتمع » ، وإن تحرج أو عارض فى إطلاقها على « الفرد » أو « الجماعة » المسلمة !..

فهو ، فيما يتعلق « بالفرد » يفرق بين « الاسلام القانونى » ، الذى يدخل « الفرد » فى إطاره ، ويكتسب حقوقه ، ويتمتع بحمايته ، بمجرد تحصيله لحده ، وهو : **النطق بالشهادتين ، والتصديق بأساسيات الدين** .. يفرق بين هذا « الاسلام القانونى » ـــ الذى إذا وقف عند هذا الحد كان « ناقصا » ـــ وبين « الاسلام الكامل » ، الذى هو « جوهر الاسلام » ، عندما ينطبع « الذهن » و« السلوك » بطابع الاسلام ... ففى الحالة الأولى يقف « الفرد » عند « شكل الاسلام » ، وفى « إطاره القانونى » ، أما فى الحال الثانى فإنه المسلم الكامل ، المتدين « بجوهر الاسلام » ! .. فإذا ما سلك الانسان فى شئونه « الاجتماعية » ـــ كالسياسة والاقتصاد ـــ السلوك اللاإسلامى كان كمن « يرتد جزئيا » عن الاسلام ؟!..

« فالمسلم ، من الناحية القانونية ، هو من ينطق بالشهادة شفاهة ، ولا ينكر أساسيات الدين . وبهذا المعنى يدخل فى دائرة الاسلام كل مسلم لا يزيد فى جوهره عن ذلك . وليس فى وسعنا أن نسميه كافرا ، أو نمنعه حقوقه التى يحصل عليها فى المجتمع الاسلامى بمجرد إقراره بالاسلام . غير أن هذا ليس الاسلام عينه ، بل هو إجازة أو تصريح بالدخول فى دائرة الاسلام . أما جوهر الاسلام فهو : أن تطوع ذهنك وفق مبادىء الاسلام ، ويصبح أسلوب تفكيرك هو أسلوب القرآن فى التفكير ، وتصير نظرتك إلى الحياة وأمورها هى نظرة القرآن لها ، وتزن الأشياء بالمعيار الذى اختاره القرآن وحدده ، وأن يكون هدفك الشخصى والجماعى هو الهدف الذى بينه القرآن وأقره ، وأن تتخلى

(١٣) المرجع السابق . ص ٤١ ، ٤٢ .

عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقا تحدد اختياره بما تلقاه من قوانين القرآن والسنة المحمدية ، فإن قبل عقلك هذا ، وتوحدت مشاعرك ومشاعر القرآن ، فإن السبيل الذى تسلكه فى الحياة لن يكون غير ماسماه القرآن : سبيل المؤمنين .. »(١٤)

هكذا وسع المودودى من إطار « الاسلام القانونى » ــ « شكل الاسلام » ــ ليشمل كل من نطق بالشهادتين ولم ينكر أساسيات الدين ، ومنع وصفه « بالكفر » أو حرمانه حقوق المسلم فى المجتمع الذى يعيش فيه ، حتى لو كان عاصيا !... وأيضا ضيق من نطاق « الاسلام الجوهرى » ، حتى لقد جعل نطاقه ــ بعد ما عدد من شروطه وعلاماته ــ يكاد أن يكون خاصا بالصفوة الصالحة المناضلة فى سبيل سيادة الاسلام !..

لقد حنا المودودى على « الفرد » ، فتحرج من « تكفيره » ، ماوجد إلى دخوله فى إطار « الاسلام القانونى » منفذا .. ولقد كتب ــ وهو الذى اتهم بالكفر من تيار الجمود ، المدافع عن « الجاهلية الموروثة » ؟! ــ يقول : « **إن من يلعن مؤمنا كان وكأنه قتله ، وإن من يكفر مؤمنا كان وكأنه قتله . إن التكفير ليس حقا لكل فرد . والتفكير جرم اجتماعى أيضا ، إنه ضد المجتمع الإسلامى كله ، ويضر كثيرا بالمسلمين ككل ... وللأسف ، إن علماءنا الكرام ليسوا على استعداد لترك هذا السلوك بأى شكل من الأشكال ، لقد أهملوا التفريق بين الأصول والفروع ، وبين النص والتأويل ، فجعلوا من الفروع أصولا ، طبقا لما فهموه أو فهمه أسلافهم السابقون عليهم ــ وكان من نتيجة هذا أن كفروا من يقوم برفض فروعهم أو تأويلاتهم الدينية ! . ليت العلماء يشعرون بخطئهم ، ويرحموا الاسلام والمسلمين ، بل يرحموا أنفسهم ، ويتراجعوا عن هذا السلوك المشين الذى أخجلوا به أمتهم ، هذه الأمة التى وضعتهم ــ أى علماء الدين ــ بين رموش عيونها ؟! ..** »(١٥)

لكن .. بقدر « تحرج » المودودى فى « تكفير » الفرد بالمعاصى المتعلقة بالتكاليف الفردية ــ فروض العين ــ كانت « جرأته » فى الحكم « بالردة الجزئية » ، المفضية إلى « الردة النهائية » على هذا « الفرد » إن هو عصى الله وخالف شريعته فى « التكاليف الاجتماعية » .. وكذلك على « المجتمع » الذى يسلك هذا السبيل !..

فهو يخاطب « الفرد » قائلا : **إنك « إن سلكت فى قضاياك السياسية والاقتصادية مسلكا يتفق وخطة أخرى غير خطة الاسلام المحكمة ، فإن صنيعك هذا يعتبر ارتداداً جزئيا ، يفضى بك إلى ارتداد كلى نهائى »(١٦)!....**

---

(١٤) [الحكومة الاسلامية] ص ١٣ .

(١٥) د . سمير عبد الحميد ابراهيم [أبو الأعلى المودودى : فكره ودعوته] ص ٨٣ ، ٨٤ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩ م .

(١٦) [الحكومة الاسلامية] ص ١٤ .

ويقطع بانتفاء « الاسلامية » عن « المجتمع » الذى يسلك هذا السبيل ، فيقول : **« ولعمر الحق ، لا يمكن لإنسان ـــ مالم يكن مصابا فى عقله ـــ أن يتصور كون أحد من المجتمعات فى الدنيا إسلاميا على الرغم من اختياره منهاجا غير منهاج الاسلام لحياته .... إن المجتمع إذا جاء ، على بصيرة منه ، وبإرادته الحرة ، يقرر بأن الشريعة لم تعد منهاجا لحياته ، وأنه سوف يصنع المنهاج لحياته بنفسه أو يقتبسه من مصدر غير مصدرها ، فليس ثمة سبب لتطلق عليه كلمة : « المجتمع الاسلامي » أبدا .. »**[17]!..

والأستاذ المودودى لم يفرق بين الخروج عن الشريعة ـــ من الفرد أو المجتمع ـــ إنكارا لها وجحودا ، أو الخروج عليها تقصيرا وعصيانا ... الأمر الذى جعل صياغاته هذه تفعل ربما عكس ما أراد الرجل ، فتسهم فى شيوع تهم « الكفر » و« الردة » التى ألصقها كثيرون ممن تأثروا بفكره ، سواء على الأفراد أو على المجتمعات ، حتى لقد أزعج هذا الأمر إسلاميين كثيرين ، تحرجوا من مغبة الآثار المترتبة على شيوع « التكفير » فى حياة المسلمين .. ولقد تأكد حدس هؤلاء ، خصوصا بعد أن أصبح « التكفير » سلاحا تشهره « جماعات إسلامية » ضد « جماعات إسلامية » أخرى .. فغدا مرضا يجعل بأس الاسلاميين بينهم شديدا ؟! ..

* * *

وبعد أن عرض الأستاذ المودودى ، لمظاهر « الجاهلية الموروثة » ، ولتطورها ، منذ أن نجم قرنها فوثبت فى عهد عثمان بن عفان حتى عصرنا الحالى ... دعا إلى إنهاء هذه الثنائية التى أفسدت وتفسد على المسلمين دنياهم وآخرتهم ... فالجاهلية تمنعهم أن يحيوا حياتهم الإسلامية الصافية ، فينالون ثوابها فى الآخرة ... والاسلام يمنعهم أن يحيوا الحياة المادية الصرفة التى يحياها أهل « الجاهلية الغربية الحديثة » ، فهم محرومون من مظاهر قوتها المادية وتفوقها الدنيوى ؟!.. ولذلك فلابد من فصل « الجاهلية » عن « الاسلام » ، واستخلاص الاسلام ، وتجديده ليكون للأمة « سبيل المؤمنين » الذى دعانا الله إلى التزامه فى أمور الدين والدنيا .. « فلابد أن نحلل مزيج الاسلام ، والأوضاع القديمة غير الاسلامية .. ثم نميز الأوضاع القديمة غير الاسلامية ، ونأخذ جوهر الاسلام الخالص ، الذى يثبت خلوصه ونقاؤه إذا عرضناه على مقياس الكتاب والسنة ... لابد من انجاز ذلك مهما كانت مقاومة الذين لهم ولوع شديد بجزء من أجزاء هذه الأوضاع القديمة ؟!.. »[18]

---

(١٧) [القانون الاسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ص ١٥٣ ، ١٥٤ . ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م ـــ ضمن مجموعة عنوانها : [نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون] .

(١٨) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

ذلك هو السبيل لمواجهة « الجاهلية الموروثة » .. وتلك واحدة من مهام المجابهة والتصدى « للتحدى الحضارى » المفروض على الأمة ، والذى جمع إلى هذه « الجاهلية الموروثة » : « جاهلية التغريب » التى وفدت علينا فى ركاب الغزاة الأوربيين !..

* * *

وفى مواجهة « الجاهلية الوافدة » :

ولقد كان طبيعيا فى ظروف بلد مستعمر كالهند ، أن تكون المعركة الكبرى بين الصحوة الإسلامية وبين فكرية « التغريب » الوافدة مع الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فهى الخطر الرئيسى والأكبر على « الحاضر » وعلى « المستقبل » ، بل وعلى « الماضى الموروث » ، نقيا ذلك الماضى الموروث أو مشوبا « بالجاهلية القديمة » !.. لقد كان « التغريب » هو الطامة الكبرى التى تصدى لها الأستاذ المودودى و[الجماعة الاسلامية] ، بل لقد كانت هذه « الفكرية التغريبية » هى التى استفزت الضمير المسلم فى الهند واستنفرته لينتفض فى هذه الصورة الحادة التى تجسدت فى المودودى وجماعته الاسلامية .. فعلى قدر خطورة التحدى كان الرد الذى انبعث لمواجهته ..

وعلى هذه الجبهة كان الابداع الأعظم لأبى الأعلى المودودى ..

لقد أدرك الرجل ، ما أدركه الشيخ حسن البنا ، من أن الخطر الأعظم للغزوة الاستعمارية الغربية على بلاد الاسلام ماثل ومتمثل فى « الجانب الفكرى والحضارى » .. فهو يثير « دهشة » الصفوة المثقفة ، على حين يستفزها ويغضبها جانب الاحتلال العسكرى والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادى .. وعلى حين لا يرد بذهن أحد ــ سوى القلة الخائنة العميلة ــ أن مستقبلنا يجب أن يكون فى الخضوع للسيطرة العسكرية والسياسية والاقتصادية للاستعمار ، فإن الصفوة المثقفة المتغربة ترى ــ بإخلاص المؤمن ــ أن نهضتنا المنشودة وقوتنا المأمولة ، بل وانعتاقنا وتحررنا من « الغرب » هى فى سلوك طريقه ، والتشبه به ، أى فى التخلى عن موروثنا القديم ، ذى الصورة العاجزة الكريهة ، صورة « الجاهلية القديمة » ، واختيار « الوافد الغربى » الحديث !..

فنحن هنا ، بإزاء « التغريب » ، أمام « احتلال » محبب إلى نفوس الصفوة المتغربة ، جعلت منه هدفا وغاية ، تقيم لأجلها المؤسسات ، وترسل البعثات ، وتنفق الجهود لدعم أركان هذا « الاحتلال » !..

ثم إن نجاح خطة التغريب ، فضلا عن أنها ستفصل حاضر الأمة عن ماضيها ،

وتسلخها عن الروح القدسية السارية فى عقلها وضميرها انبعاثا من دينها الحنيف ، وتحرمها التميز والتمايز الحضارى الذى يجعل لها دورا مستقلا ومطلوبا فى العطاء الحضارى الانسانى ... فضلا عن هذه المثالب التى يهدد بها التغريب حاضر الأمة ومستقبلها ، فإنه يمثل النصر النهائى والكامل لروح العداء الصليبية التى حركت الغرب تاريخيا ، ومازالت تحركه ، للعدوان على أمتنا ، ومن ثم يمثل تكريس هزيمتنا أمام هذه الروح الصليبية ، عندما نتحول إلى « هامش حضارى » تابع لهذا الغرب !.. وفوق ذلك كله ، فإن تحولنا إلى « هامش تابع » فى الحضارة ، هو السبيل لتكريس التبعية فى « السياسة » و« الأمن » و« الاقتصاد » ... فكأننا ، إذا سلكنا هذا الطريق ، سنكون قد سعينا لا للتحرر وإنما لتكريس وتأبيد الاستعمار ؟!..

هكذا أبصر الأستاذ المودودى ، فى عبقرية المسلم الذى انطبع عقله وضميره بالطابع المتميز لحضارة الاسلام ، أبصر خطر الحضارة المادية الأوربية على الحاضر والمستقبل للإسلام والمسلمين : فكرا ، ووطنا ، وثروة .. وإنسانا ! .. فحدد أن التغريب هو الهزيمة الحقيقية ، بل قمة الهزيمة أمام الأعداء التاريخيين .. إنه « الاختيار البائس » للجاهلية بديلا عن الاسلام ؟!..

لقد أفاض الرجل فى الحديث عن أن المسلمين بعد أن انهزموا أمام سيوف البلاد الغربية « قد استسلموا لثقافتها وحضارتها وفلسفتها ، فما لم يستطع سيف البلاد الغربية انجازه أكملته فلسفتها ، ولم تجر على العالم الاسلامى سيطرتها السياسية ماجره عليه غزوها الحضارى والفكرى من البليات والمصائب ، فالسيطرة السياسية كانت تتحكم فى الأجساد فقط ، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت فى العقول والأذهان ! .. »[19]

ويحلل المودودى موقف مختلف الفرقاء تجاه هذا « الوافد الغربى » ، وكيف استقطبت الصفوة إلى تيارين وموقفين رئيسيين :

أولهما : موقف الذين تجاوبوا مع « الوافد الغربى » [**التجاوب الانفعالى**] .. فاندهشوا له وبه ، وأقبلوا عليه إقبال من غلبت عليهم الدهشة فغشيت منهم البصائر والأبصار !.. ولقد قال هؤلاء : إنه « لا قبل لنا بالمقاومة ، بعد أن غلبنا على أمرنا ، واستولى علينا غيرنا ، وإننا إذا حاولنا المقاومة بؤنا بالفشل والخسران من كل وجهة ، فلابد لنا إذن أن نستفيد من كل فرصة من فرص الرقى والحياة تسنح لنا فى هذا النظام الجديد !.. »[20].. كان هذا هو منطق أصحاب موقف [التجاوب الانفعالى] ... منطق المهزوم ، اليائس ، الباحث عن الاستفادة

(١٩) [الطريق إلى وحدة الأمة الاسلامية] ص ٢١ . ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ .

(٢٠) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٦١ ، ١٦٢ .

مما يراه نهاية « الممكن » وأقصاه !..

ورغم رفض المودودى لهذا الموقف ، وإدانته لأصحابه الذين صارعهم وناضل ضدهم .. إلا أنه ينصف الرعيل الأول منهم ، من « جيل الهزيمة » فى القرن الماضى ، ويذكر لهم رفضهم الجمود وجاهليته القديمة الموروثة ، واستفادتهم قدر الإمكان مما حملت الحضارة الغازية من أسباب الرقى والاختراع .. « فلا مجال للريب فى أن هذا التجاوب الانفعالى لم يكن كله ضررا فحسب ، بل كان فيه بعض جوانب النفع أيضا . فقد انقشع بذلك سحاب الجمود السابق ، وعرفنا به ماجاء به العصر الجديد من مظاهر الرقى والاختراع .. »[٢١] ... أما سلبيات هذا الموقف — موقف التجاوب الانفعالى — فهى كثيرة ، خطيرة .. « **فلقد تغير بهذا التجاوب الانفعالى تصورنا للدين ، والأخلاق ، وفلسفتنا للحياة ، وتبدلت قيمنا ، وتزعزعت أسس طباعنا الفردية والاجتماعية ، وإننا وإن خرجنا من التقليد الأعمى لأسلافنا ، فقد منينا بمثله لغيرنا من الضالين المضلين ، مما أضر بنا ضررا فادحا ، وأهلكنا من الوجهة الدينية والدنيوية معا !..** »[٢٢]

أما الفريق الآخر ، الذى لم ينفعل بالوافد الغربى ، فلقد تمثل فى [**التجاوب الجمودى**] !.. تجاوب أهل « التخلف الموروث » ، الذين فزعوا من هذا الوافد ، وصدمت قوته وحيويته ضعفهم وعجزهم ، فانكفأوا على الذات الموروثة المتخلفة عن روح العصر ، بل والغريبة عن جوهر روح الاسلام الأول !.. وأداروا الظهور لهذا الوافد ، وأغلقوا دون تأثيراته نوافذ العقول وأبواب القلوب .. « **لقد كانت هذه الطائفة صخرة من الجمود فى وجه هذا الوافد ، فسعت سعيها للمحافظة على ما كان أهل القرن الثامن عشر تركوه وورثه عنهم أهل القرن التاسع عشر من أوضاع فى العلم والدين والأخلاق والاجتماع والتقاليد ، وأرادوا أن يستبقوا كل شيء منها بكل ما يحتوى عليه من أجزاء صالحة وغير صالحة ، وأن لا يقبلوا أى تأثير للحضارة الجديدة ... كذلك لم يصرفوا لحظة من أوقاتهم ، بجد واهتمام ، فى تحليل ما ورثوه عن الأقدمين ، ومعرفة ما يحسن الإبقاء عليه ومايحتاج إلى التغيير ، وكذلك ما تفكروا أصلا فى معرفة ما يحسن أخذه وما ينبغى رفضه مما جاءت به الحضارة الغربية ..** »[٢٣]

وكما اعترف المودودى بما لدى أصحاب [**التجاوب الانفعالى**] من إيجابيات ، أبرز كذلك إيجابيات أهل [**التجاوب الجمودى**] .. فقال : « **وإنى معترف بما كان ، ولايزال**

---

(٢١) المرجع السابق . ص ١٦٧ .

(٢٢) المرجع السابق . ص ١٦٨ .

(٢٣) المرجع السابق . ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

في هذا التجاوب الجمودي من جوانب مهمة للنفع والافادة ، وفي القلب له مكانة يستحقها . فالحق أنه مابقي عندنا من علم القرآن والسنة والفقه إلا بفضله ، ومن حسناته التي لها قيمتها أن كان فينا رجال احتفظوا بما تركه أسلافنا من تراث في الدين والأخلاق وظلوا ينقلونه إلى الأجيال المتعاقبة .. »[٢٤]

لقد انقسمت الأمة ، تجاه الغزوة الفكرية الحضارية الغربية ، إلى هذين التيارين : المقبلون المتقبلون ، دون روية ولا موقف نقدى ، بل في انبهار واندهاش وانفعال ... والرافضون المزوِّرون ، اعتصاما بالقديم لقدمه ، دونما موقف نقدى من القديم الموروث ومن الوافد الجديد ... وغاب الموقف الأفعل المطلوب .. الموقف الوسطى .. والثالث .. موقف التجديد للدين والنقد للتراث والبعث لخصائص الحضارة الاسلامية وثوابتها ، ثم التفاعل مع الحضارات الأخرى ، من موقع المتميز والمستقل والرشيد ... وهذا هو الموقف الذى طرحه المودودى وجماعته الاسلامية على الناس ..

وإذا كان هذا هو تحليل المودودى لموقف الفرقاء المختلفين — وبمعنى أدق الفريقين المختلفين — من هذا الوافد الغربي .... فماذا عن رؤيته هو لجوانب الخطر في هذا الوافد على الذاتية الفكرية والحضارية للإسلام والمسلمين ؟؟ ...

لا نبالغ إذا قلنا إن الاستاذ المودودى قد تمتع برؤية نقدية دقيقة وعميقة للحضارة الغربية ، بشقيها : « الليبرالى — الرأسمالى » و« الشمولى — الاشتراكى » ، وأنه قد قدم لنا في هذا الميدان صفحة من أنصع صفحات فكره ، بلغ فيها عمق الموضوع الذى تصدى له ..

إن الحضارة الأوربية ذات طابع مادى ، حتى لقد غلبت ماديتها على روحانية المسيحية ، التي اتسمت بالصوفية في صورتها الشرقية الأولى ! .. فعندما تدينت أوربا بالمسيحية تحولت مسيحيتها هذه إلى « طبعة جديدة وخاصة » ، وغدت مجرد مكون واحد من مكونات الحضارة الأوربية المادية وقسماتها ... وهذا الطابع المادى للحضارة الأوربية ليس وليد عصر النهضة ، بل هو ميراث يونانى قديم ، تميز منذ القدم بالافتقار إلى « التوازن » ، فغلّب « المادة » على « الروح » ، حتى آلهة ذلك الموروث اليونانى كانوا في وثنية اليونان أبطالا ماديين ، عالمهم هو عالم الانسان !..

والمودودى يسمى « جاهلية اليونان » — التي لم تعرف الأديان السماوية — بـ « الجاهلية المحضة » .. أما « جاهلية » الغرب المعاصرة ، فهى عنده « جاهلية الشرك » ، لأنها رغم تدينها بالمسيحية إلا أن « إشراكها » المادة مع الله ، جعل روحانيتها مادية ، وتدينها

(٢٤) المرجع السابق . ص ١٦٩ .

شكلا ، وألوهيتها صارت للبشر لا لله خالق البشر !.. « فهناك مماثلة بين الطبع الخلقى الذى امتاز به أهل اليونان القديمة وروما الوثنية وبين ما يمتاز به الآن كثرة أهل أوربة اليوم ... فليس هناك فرق جوهرى من الوجهة العلمية بين الشرك والجاهلية المحضة . والدليل على ذلك أن أوربة الحاضرة تمت اليوم فى نظرياتها الجديدة إلى اليونان وروما كما يمت الخلف إلى سلفه ... حقا إن طرق الشرك والجاهلية المحضة فى بناء المجتمع وتنشئته يختلف بعضها عن بعض قليلا .. إلا أنه لاشك أنهما من حيث الروح والجوهر سيان متماثلان فى فرض ألوهية البشر على البشر ، وقطع علاقة الانسان بالإنسان ، وتجزئة النوع الإنسانى أجزاء ، ثم جعل أفراد هذا النوع الواحد كالسباع الضارية يأكل بعضها بعضا !.. »[٢٥]

بل إن هذا الطابع المادى السارى لحضارة الغرب الحديثة ، رغم مسيحيتها ، قد طبع تدينها بطابعه ، ولم ينطبع هو بروحانية المسيحية ! « فأهل الغرب ، وإن لم يكونوا كلهم منكرين لوجود الله تعالى واليوم الآخر ، أو قائلين بالأخلاق المادية البحتة من الوجهة العلمية ، إلا أن الحق أن الروح التى تتمشى فى نظام حضارتهم ومدنيتهم بأسره هى روح الجحود لذات الله تعالى ، والإنكار لليوم الآخر ، وروح الأخلاق المادية الخسيسة . وقد بلغ من تغلغل هذه الروح فى حياتهم أنك تجد الذين يؤمنون منهم بوجود الله تعالى واليوم الآخر من الوجهة العلمية ، ويعتقدون فى الأخلاق نظرية غير مادية ، تجدهم فى حياتهم الواقعية دهريين ماديين من حيث لا يشعرون ، لأنه ليس هناك من سبب يصل نظريتهم العلمية بحياتهم العملية فعلا !.. »[٢٦]

وهذا التحليل حول تطويع « الحياة العملية » الأوربية « للتدين » ، يذكرنا بالكلمات البالغة قمة العمق ، التى تحدث فيها المفكر المعتزلى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥ هـ ١٠٢٤ م] عن تطويع روما ـــ أوربا ـــ للمسيحية .. يقول : « إن المسيحية عندما دخلت روما ، لم تتنصّر روما ، ولكن المسيحية هى التى تَرَوَّمَتْ ؟! »

ولقد عرض المودودى للنظريات الرئيسية التى طبعت الفكر الأوربى الحديث بطابعه المتميز ، وكشف عن دلالتها على أصالة الطابع المادى لحضارة الغرب ، وكيف أن هذه النظريات الحديثة لم تخرج بهذه الحضارة عن ذلك المسار ، بل لقد دعمت الطابع المادى والعدوانى فى هذه الحضارة ! ..

● **ففى فلسفة التاريخ** : سادت نظرية الفيلسوف الألمانى هيجل **Hegel** [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] « وخلاصتها : أن كل نظام للحضارة ، فى عصر من عصور

---

(٢٥) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحياله] ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ١٥ ، ١٦ .

التاريخ ، إنما يكون مبناه ، بجميع شعبه وصوره ، على أخيلة خاصة تجعله فى العالم عصرا للحضارة والمدنية . فإذا أُدرِكَ هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعى فى بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديدة تصارعه ، ولا تنتهى هذه المصارعة إلا بعصر جديد من الحضارة والمدنية ، يكون فيه بقايا من الأنقاض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامد جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبة التى أغارت على عصر الحضارة المنقرض وأرغمته على المسالمة ؟! »[٢٧]

ورغم ماقد يبدو فى هذه النظرية الهيجلية فى تفسير التاريخ من عناصر صدق ووجاهة ، إلا أنها تميل بكفة الميزان إلى عوامل « التغير » و« التطور » و« نسخ الجديد للقديم » ، الأمر الذى يقلص حجم « الثوابت » الباقية عبر العصور .. حتى لو كانت هذه « الثوابت » هى « الدين » و« القيم » و« القسمات الحضارية » التى تميز الأمة كما تميز « البصمة » الانسان ؟!.. وهذا الميل إلى « التغيير » ، على حساب « الثبات » ، هو مايرفضه روح الحضارة الاسلامية ، التى وازنت بين الأقطاب ، فى مختلف الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية ، فبرئت من هذا الانحراف ..

وبمقاييس هذه الفلسفة الهيجلية فى تفسير التاريخ ، فنحن — بعد الغزوة الاستعمارية ، التى غيرت واقعنا — نعيش واقعا جديدا لعصر جديد ، ينطبع واقعه بالطابع الأوربى ، فى طرق التنمية والتحديث وطرائق العيش .. ومن ثم فإن « الطبيعى » أن تخلى « ثوابتنا » الموروثة الميدان للفكر والحضارة التى هى انعكاس لهذا « الواقع » الجديد .. ولما كان هذا الواقع « غربيا » ، فإن « الحضارة الغربية » هى التى يجب أن تسود ؟!

والمودودى يتساءل عن مخاطر هذه الفلسفة التاريخية علينا ، فيقول : « فهل نرجو ممن يكون قد رسخ فى ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الانسانى ، أن تبقى فى قلبه أثارة من التقدير أو ذرة من الإجلال للعصور التى مضى فيها الرسل والأنبياء ؟! .. وهل يرجع مستهديا إلى عهد النبوة والخلافة الراشدة ؟! . الحق أن هذه الفلسفة هى حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأتى الفكرة الدينية من أساسها !.. »[٢٨]

ولحن إذا شئنا مثالا تطبيقيا على تأثير هذه النظرية الهيجلية فى تفسير التاريخ على عقول « المتغربين » من أبناء العرب والمسلمين ، فعلينا أن نتأمل نظرتهم وتقييمهم للتراث ، وللدين ... إنه لديهم : رجعية ، وتخلف ، وصورة واقع مضى وانقضى ، فلا دور له فى صنع الحاضر ، فضلا عن الغد !.. وعلى حين نجد « السلفية » قسمة مشتركة

---

(٢٧) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٤٥ .

(٢٨) المرجع السابق . ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

لدى « الاسلاميين » ، لأنها تعنى : العودة للمنبع فى « الثوابت » وفى « الأصول » و« القسمات المميزة للأمة » ، فإن « المتغربين » يتحسسون مسدساتهم إذا سمعوا مصطلح « السلفية » فى أى ميدان من الميادين ؟!...

هذا عن الفلسفة الهيجلية للتاريخ ... وهى إحدى معالم الفكر الأوربى الحديث ..

● وفى التطور الإنسانى عند داروين : وخلاصة نظرية داروين Darwin [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] : هى أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون : تنازع البقاء ، وفى هذا التنازع قانون يقضى بأن البقاء للأقوى والفناء للضعيف ؟!..

وإذا كانت الهيجلية — فى التاريخ — قد جعلت نسخ العصر الجديد « لثوابت » العصر القديم مشروعا وطبيعيا و« قانونيا » .. فإن الداروينية تجعل « نسخ » القوى للضعيف ، بإفنائه وإزاحته من الطريق هو « القانون » ؟!..

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم لتبرير عدوانية الرجل الأوربى على غيره ، وعدوانية حضارته على غيرها من الحضارات .. فالاستعمار الاستيطانى الذى يبيد السكان الأصليين — كما فى حالة الهنود الحمر — تبرره الداروينية !.. والاحتلال العسكرى والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادى من قبل « القوة الأوربية » للبلاد « الضعيفة » ، على نحو يجرد الأمم المغلوبة من السيطرة على مقدرات بلادها — أى يجليها — وكأنه يبيدها — عن مقدرات بلادها — يبرره قانون داروين الخاص بتنازع البقاء ، لأن الأقوى هو الأصلح ؟! — و« الصلاح » هنا تحدده مادية الحضارة الأوربية ، فتجعله مرادفا « للقوة » ؟! —

لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم فى تبرير عدوانية الرجل الأوربى وحضارته .. فوجدناه يفترس الشعوب المستضعفة .. ووجدنا حضارته تمسخ حضارات المستعمرات ، تمهيدا لإزالتها ، والانفراد بالساحة ، لأنها هى « الأقوى » .. ومادامت هى « الأقوى » فهى « الأصلح » .. والبقاء « للأقوى » ؟!..

ونحن إذا قارنا موقف الفاتحين العرب من المواريث الحضارية للبلاد التى فتحوها .. وكيف احتضنوها ، وأحيوها ، ومزجوها بما لديهم من فكر إسلامى متوثب وشاب ، وجعلوا من الجميع حضارة جديدة ، هى الامتداد المتطور لكل هذه المواريث والمكونات .. إذا قارنا موقف العرب المسلمين هذا بموقف الغزاة الأوربيين ، على جبهة الحضارة ، برزت لنا معالم الفروق ، ووضعنا أيدينا على الأمثلة الحية التى تمايز بيننا وبينهم فى هذا الميدان !..

بل إننا نستطيع أن نضيف . فنقول : إن الداروينية لم تنهض . فقط . بدور « المبرر » للرجل الأوربي وحضارته عدوانهما على الغير .. بل إنها كشفت عن الطبيعة الأصيلة ـ طبيعة الاستعلاء والعدوانية ـ في هذه الحضارة الأوربية ؟! ..

والاستاذ المودودى يقول عن الأثر السلبي لهذه النظرية : إن « التصور الذى تأصل فى الذهن الإنسانى عامة للكون ، متأثرا بنظرية التطور هذه ، أنه : مضمار للمصارعة والمنازعة ، لاتزال الحرب قائـمة فيه فى سبيل الحياة والبقاء ، وأنه من نظام الفطرة أن كل من اراد الحياة والبقاء فعليه بالكفاح والمصارعة . كما أن من طبيعة الفطرة أنه لايستحق البقاء ، فى نظرها ، إلا من أثبت قوته ، فكل من يفنى ، فى هذا النظام القاسى ، فإنما يفنى لأنه ضعيف يستحق الفناء ، ومن يبقى فإنما يبقى لأنه قوى من حقه البقاء . فالأرض وما فيها ، ووسائل الحياة وما بها لا يستحقها إلا القوى الذى يثبت أهليته للبقاء والحياة ، ولا حق للضعيف فى هذه الأشياء ، وعليه أن يخلى المكان للقوى ، والقوى على حق تماما إذا أخذ مكان الضعيف بعد إزاحته عنه أو قضائه عليه ! .. »

ثم يمضى الأستاذ المودودى فيقول : « ولعمر الحق ، لو كان بقى فى ضمائر أهل الغرب شيء يخالج ضمائرهم ، فقد أزاله دارون بحججه وشواهده ؟! . ومهما يكن لهذه النظرية من منزلة فى العلوم الطبيعية[29] ، فقد حولت الإنسان ذئبا مفترسا لأخيه فى ميادين الاجتماع والمدنية والسياسة ! .. »[30]

هذا عن دور الداروينية فى كشف عدوانية الحضارة الأوربية .. وتبريرها ! ..

● **وفى الصراع الطبقى عند ماركس** : وإذا كانت الهيجلية قد غلبت « التغير » على « الثبوت » .. والداروينية قد بررت غلبة « القوة » وحدها .. وإذا كانت الأولى قد جعلت « الصراع » هو قانون « الفكر » .. والثانية قد جعلت هذا « الصراع » هو قانون « الطبيعة والفطرة » .. فإن « الصراع الطبقى » عند كارل ماركس Marx [١٨١٧ ـ ١٨٨٣ م] قد أصبح هو القانون الذى يحكم تطور « المجتمع » ، بل لقد اعتبر « التناقض والصراع » هو « المطلق » الوحيد ، وما عداه ـ كل ماعداه ـ فهو نسبى ، يزيد وينقص ، بل ويزول ، بتغير الظروف والملابسات ! .. وبعبارة الأستاذ المودودى : « فلقد جعل هيجل العالم الفكرى ميدانا

(٢٩) الآن قامت وتقوم شكوك علمية كثيرة حول « علمية » الداروينية ، وبخاصة مقولات : وحدة أصل الأنواع ، وقانون تنازع البقاء ، وكون البقاء دائما للأقوى . أما فكرة « التطور » فهى تراث إنسانى سابق على الداروينية .. وهذا التشكيك فى « علمية » الداروينية يأخذ عليها « خصوصية » النماذج التى اعتمدت عليها ، وافتقارها إلى الاستقراء فى المنطلقات بينما عممت فى النتائج . ومصدر هذا التشكيك أبحاث علمية تمت وتتم فى إطار الحضارة الغربية ذاتها .

(٣٠) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

للصراع ، وجاء داروين وقدم الفطرة كميدان للحرب ، ثم جاء بعده ماركس وصور المجتمع بنفس هذه الصورة !»[٣١] .

هكذا نفذ المودودى إلى « لب » المعالم البارزة فى فكر الحضارة الأوربية الحديث .. وأبرز دلالتها على الطابع المادى لهذه الحضارة .. ذلك الطابع المادى الذى سرى ويسرى فى هذه الحضارة سريان الروح فى الجسد ، حتى لم يدع ناحية من نواحيها الأساسية ، تقريبا ، دون أن تظهر فيها آثاره ومعالمه ...

● **فى الأخلاق** : التى ازدهرت فلسفتها فى جو التحلل من الدين ، وجحود الآخرة ، أو عدم الرهبة من حسابها ... قامت الأخلاق فى الحضارة الغربية على مزيج من « النفعية المحضة » [Utilarism] و « اللذة » [Boicurianism] ... « فعلى هذه الفلسفة أسس بناء المدنية والحضارة فى الغرب ... فهذه الأخلاق ليس فيها مقياس مستقل للخير والشر ... فكل شىء مؤقت نسبى ، ويمكن أن يوضع وينقض فيها كل مبدأ فى سبيل المنفعة الذاتية أو القومية !..»[٣٢]

● **وفى السياسة** : تأسست وتتأسس كل خططهم على مبادئ الميكيافيلية [Macqiavellian] .. وفيها : القوة هى الحق ، والضعف هو الباطل ، ولامانع من العدوان سوى العقبات المادية ، سواء أكان ذلك بين الطبقات داخل الدولة ، أو بين الأمم على الساحة الدولية[٣٣] !..

● **وفى علاقة الفرد بالمجموع** : تطرفت « ليبراليتها الرأسمالية » فانحازت لطغيان الفرد على المجموع .. على حين تطرفت « شموليتها الماركسية » فكرست طغيان المجموع على الفرد[٣٤] ... فاختل التوازن بينهما ، فى النظامين كليهما ، لغياب التوازن والموازنة التى تميز بها الاسلام عندما أقام « التوافق [Harmny] الغريب بين « الفردية » [Individualism] وبين « الاجتماعية » [Socialism] بحيث يتيسر للفرد نماء قوته وارتقاء شخصيته ، ثم يصبح عونا ، بقوته الراقية ، فيما فيه خير للمجتمع وسعادته ..»[٣٥]

● **وفى الفكر الاجتماعى** : وإذا كانت الحضارة الغربية قد انقسمت ، فى الفكر الاجتماعى ذلك الانقسام الحاد الذى استقطب أهلها بين «الليبرالية الرأسمالية» التى تزكى أوسع

---

(٣١) المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٣٢) المرجع السابق . ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣٣) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ١٧ .

(٣٤) [الحكومة الإسلامية] ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣٥) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٥٦ .

الحريات فى الاقتصاد .. وبين « الشمولية الاشتراكية » التى تضيق هذه الحرية الاقتصادية إلى حد إلغائها .. فإن المودودى يعلن رفض هذين المذهبين ، ويدعو إلى موقف إسلامى متميز فى الاقتصاد .. فهو ينتقد « الفردية » الأوربية ، التى تضحى بالجماعة ، فردية القرن الثامن عشر ، ويرفض « جماعية » القرن العشرين ، التى تضحى بالفرد ، ويحبذ « النظرية المعتدلة المتوسطة » بين هذين المذهبين[٣٦]..

إن المودودى يرفض كلا من « الرأسمالية » و« الاشتراكية » على حد سواء ... فالحضارة الغربية ، هى « الحضارة البورجوازية ، التى كانت ترفع رأسها فى البلاد الغربية متدججة بأسلحة التسامح والحرية الفردية وحق الجمهور فى التصويت إزاء النظام الاجتماعى القديم » .. هذه الحضارة ، التى أثارت إعجاب « الليبراليين المتغربين » من مثقفينا بتسامحها وحرياتها ، ذات جوهر رأسمالى ، وكل ما أنجزته إنما تم لحساب الاستغلال الرأسمالى .. **فلقد « كان زمامها بيد الرأسماليين ، وهم الذين كانوا رافعى لوائها ورواد جيشها .. وكانت تستند إلى جيش جرار من رجال الفلسفة والأدب والفن قاموا على قدم وساق لشن الغارة على من يعادى ويتجرأ — فردا كان أو جماعة — على التساؤل عن مصدر ثروة المستر جولد سمث — الصيرفى — ومورد أمواله المتكدسة فى خزائنه !. »**[٣٧]

ومحاربة هذه الرأسمالية مهمة من مهام صراعنا ضد الغزوة الحضارية الغربية ، فهى « واجب متحتم فى عنق المسلم أكثر مما هو متحتم فى عنق الشيوعى[٣٨] !.. » .. لأن صراع الشيوعى والرأسمالى إنما هو صراع على « ملء البطن » ، داخل حضارة واحدة .. لكنه بالنسبة لنا صراع ندافع فيه عن ذاتيتنا الحضارية .. فواجب علينا « أن نستأصل شأفة الأخلاق الرأسمالية ، وعقلية الرأسمالية ، ونظام الرأسمالية استئصالا كليا »[٣٩]، لأنها تتجاوز كونها خطرا اقتصاديا إلى كونها خطرا يفسد أخلاقياتنا الاسلامية وعقليتنا الاسلامية !... ولذلك يرى المودودى « أن اتباعنا لنظام الرأسمالية : خروج على الاسلام من حيث مجموعه ؟!.. »[٤٠]

والاشتراكية ، كذلك مرفوضة من المودودى .. بل لقد رأى فى اعتناقها ما يساوى

---

(٣٦) [الحجاب] ص ٥٢ — هامش — طبعة القاهرة .

(٣٧) [الربا] ص ٦٦ .

(٣٨) المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٣٩) المرجع السابق . ص ٨٦ .

(٤٠) المرجع السابق . ص ٨٩ .

اعتناق المسلم للهندوكية وخروجه على الاسلام ؟! « فكلاهما يؤديان إلى نتيجة واحدة ، والتصدى لهما أمر ضرورى وواجب علينا !.. »[٤١].. فالاشتراكية تذكى نار الصراع الطبقى ، وهو خطر على تماسك الجماعة والقومية المسلمة ، فى الهند ، لا يفيد منه سوى أعداء المودودى الرئيسيين : الهنادكة ، ثم هى تجذب العمال المسلمين إلى أقرانهم الهنادكة ، فتكون السيطرة للعمال الهنادكة على العمال المسلمين ، بحكم أغلبيتهم فى البلاد وفى الحركة الاشتراكية ... كما أن نيران الصراع الطبقى تصيب أول ما تصيب الطبقة الوسطى المسلمة ، وهى العمود الفقرى للإسلام والمسلمين .. « فطبقتنا الوسطى هى قوام الأمة وعماد أمرها[٤٢]... والطبقة الوسطى المثقفة تعرف علوم الدين الاسلامى ، وتحمل شعورا طيبا تجاه الحضارة الإسلامية ، ولديها معرفة بأحكام الشريعة ، فهى تقوم — إلى حد ما — بالحفاظ على الحضارة الاسلامية ورعايتها ، وعامة الشعب يتلقون عنها ويتعلمون منها دينهم ، ويعرفون منها أحكامه ، ومن هنا فحين يقطع سبعون مليونا من عامة المسلمين صلتهم بعشرة ملايين مسلم ، ممن يمثلون الطبقة المتوسطة ، نتيجة للصراع الطبقى ، فإنهم — [السبعون مليونا] — سيصبحون غرباء عن الاسلام تماما .. وحين يخلو ذهنهم من القومية الاسلامية سيصبحون فرادى مشتتين ... وحين تنقطع صلتهم بالطبقة المتوسطة المثقفة المسلمة ، ويتحدون مع غيرهم من غير المسلمين المتماثلين معهم اقتصاديا ، فإن هذا يؤدى تلقائيا إلى « هندكتهم » ، وهكذا تشدهم القومية اللاإسلامية تدريجيا ، ويذوبون فى النهاية داخلها كحبة ملح تكون نهايتها حتمية !.. »[٤٣]

لقد كان الحفاظ على القومية الاسلامية والذاتية المتميزة للحضارة الاسلامية هو المهمة العظمى لدعوة المودودى وحركته ، والبوصلة التى حددت اتجاهه فى كل الميادين ، والمبرر لتحالفاته ومعاداته .. كما كان الصراع ضد سيطرة الهندوك على مقدرات المسلمين معركته الكبرى ، التى ارتبطت بها معظم المعارك الفرعية والجزئية التى خاضها على مختلف الجبهات ..

والمودودى عندما رفض سبيلى الرأسمالية والاشتراكية فى الاقتصاد ، لم يزعم أن الاسلام يقدم « نظاما اقتصاديا » جاهزا ونهائيا ومتكاملا .. فما فى الاسلام — على هذه الجبهة — « هى المبادىء التى قررها الاسلام لنظامنا الاقتصادى . **ويجوز لكم أن تضعوا لكم ما تحبون من نظام اقتصادى فى حدود هذه المبادىء . أما تقرير الأحكام التفصيلية والجزئيات**

(٤١) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ٥٥ .

(٤٢) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٣٤ .

(٤٣) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ٨٠ ، ٨١ .

فأرجئت إلينا فى كل زمان ومكان ، وحسب الحاجات والظروف .. »[٤٤]

ولقد اجتهد المودودى لوضع مبادىء لنظام اقتصادى اسلامى ، فى ظرف الواقع الذى ناضل فيه .. فمال تصوره إلى نظام يمكن تحديد معالمه فى هذه النقاط :

١ - **اقتصاد حر** .. يتميز عن الاقتصاد الرأسمالى بوجود قيود تحد من الحرية فيه ، بحيث لا تتعدى هذه الحرية المصلحة الاسلامية ، وقيم الاسلام ... « فنحن لا نختار سبيل الاقتصاد الحر المطلق ، كالنظام الرأسمالى ، ولا نختار سبيل تأميم وسائل الاقتصاد ووضعها تحت تصرف جماعى . بل علينا أن نضع **نظاما اقتصاديا حرا ، يكون محدودا ببعض الحدود وملتزما ببعض القيود** »[٤٥].. وهذه القيود ضرورية كى لا ينفق مالك الثروة « ثروته فى وجوه تلحق الضرر بالمجتمع ، أو بأخلاقه هو نفسه أو بدينه » وكى يقتصر الاستثمار على المجالات المشروعة ، دون تجاوز « للحدود التى وضعتها الشريعة على الكسب »[٤٦]

٢ - **رفض التأميم** Notionaliztion « فالمجتمع الاسلامى يجب أن يكون أكثر أفراده ، إن لم يكن كلهم ، أحرارا فى اقتصادهم ، ولابد لهذا الغرض أن تكون وسائل الانتاج فى أيدى الأفراد أنفسهم .. »[٤٧].. لكن للحكومة المسلمة أن تتدخل فى الاقتصاد ، تجاريا وصناعيا ، فتنهض بما لا يقدم عليه الأفراد .. وتفرض إشرافها على المصارف بواسطة المصرف المركزى « حتى لا يشتط الرأسماليون فى استعمال قوتهم المادية .. »[٤٨]

٣ - **ترك الأرض الزراعية ملكية فردية** .. « فتلك هى الصورة الفطرية الصحيحة الوحيدة فى نظر الاسلام .. »[٤٩].. مع وضع قانون زراعى « يقيم العلاقة بين ملاك الأرض والمزارعين ، الذين لا يملكون شيئا من الأراضى ، على قسطاس مستقيم وأسس صحيحة عادلة .. » .. ومع إعادة النظر فى الملكيات الزراعية الشاسعة ، والتى يستحيل كون جميعها قد تكون وامتلك بطريق مشروع ، فيحدد حد أقصى لهذه الملكيات ، ويعوض أصحابها عن ما يؤخذ منهم ، وتوزع هذه المساحات على المعدمين « إلا أن هذا التحديد

---

(٤٤) [مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة] ص ١١٩ . طبعة الكويت سنة ١٣٩٧ هـ سنة ١٩٧٧ م .

(٤٥) المرجع السابق . ص ١١٩ .

(٤٦) [الحكومة الاسلامية] ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٤٧) [مسألة ملكية الأرض فى الاسلام] ص ٩١ ، ٩٢ . ترجمة محمد عاصم الحداد . طبعة الكويت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .

(٤٨) [الحكومة الاسلامية] ص ١٩٩ . و[الربا] ص ١٤٢ .

(٤٩) [مسألة ملكية الأرض فى الاسلام] ص ٤٧ .

لا يجوز أن يكون أبديا .. بل هو حل مؤقت »[٥٠] لإزالة الخلل والمظالم من الريف ..

٤ – **قصر جمع الثروة على السبل المشروعة** .. دون وضع حد أعلى لثروة الفرد .. « فلو أمكن لرجل من الناس أن يصبح (المليونير) ، بطرق الحلال ، فالاسلام لا يمانع ذلك ... على أنه ليس من السهل أن يصبح الانسان (المليونير) على طرق الحلال ، إلا النزر اليسير ممن أكرمه الله بصورة استثنائية .. »[٥١]

تلك هى أبرز المعالم التى صاغها الأستاذ المودودى ، لتكون « مبادىء » للنظام الاقتصادى البديل ...

لقد رفض المودودى كلا من « الرأسمالية » و« الاشتراكية » ، كجزء من رفضه لما هو غريب فى الحضارة الأوربية عن النهج الاسلامى فى الاقتصاد والاجتماع .. وهو النهج الوسطى ، الذى يدعو إلى « العدل » ، لكن العدل فيه لا يعنى « المساواة » .. فالمساواة الاقتصادية ، علاوة على استحالتها ، فإنها مما يأباه الاسلام « وينبغى أن يكون راسخا فى أذهان أصحابنا المتطلعين إلى الإصلاح ، **أن الاسلام لا يقول بالمساواة فى قسمة الثروة ، وإنما يقول بالعدل فيها** .. »[٥٢]

* * *

وإذا كان رفض المودودى لكل من « الرأسمالية » و« الاشتراكية » ، كمذاهب اقتصادية واجتماعية أوربية ، هو من فضائل الحس الحضارى الاسلامى ، الذى قاد الرجل لمواجهة الغزوة الحضارية الأوربية .. فإننا نعتقد أن تصوره للملامح العامة للاقتصاد الاسلامى البديل قد أسفر عن « رأسمالية » ، لا يقلل من حقيقتها ما رسمه لها من حدود ، أو وضعه عليها من قيود ؟! .. وإذا كنا معه فى أن الاسلام لا يدعو إلى « المساواة فى قسمة الثروة » .. فإن ملامح الاقتصاد الذى تصوره لا تجعل هذا الاقتصاد كافلا وكفيلا بتحقيق « عدل الاسلام »[٥٣] ؟!

لقد أجاد عندما رفض النموذج الغربى .. لكنه لم يكن مجيدا فى تحديد معالم النموذج الاسلامى العادل ، والبديل ! ..

---

(٥٠) المرجع السابق . ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٥١) [مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة] ص ١١٤ .

(٥٢) [مسألة ملكية الأرض فى الاسلام] ص ٩٢ .

(٥٣) انظر كتبنا : [الاسلام والثورة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .. و[الفكر الاجتماعى لعلى ابن أبى طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م . و[العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .. و[عمر ابن عبد العزيز] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

هكذا تصدى الأستاذ المودودى لنقد الحضارة الغربية ، أو « الجاهلية الحديثة » والمعاصرة ، كما كان يسميها أحيانا .. وسلط الأضواء على افتقادها فضيلة « الوسطية » والموازنة بين المتقابلات ، والتأليف بين أقطاب الظواهر ... فلقد تغلب فيها « الصراع » على « الوحدة » .. و« التغيير » على « الثبات » .. و« القوة » على « الحق » .. و« المادة » على « الروح » .. و« الدنيا » على « الآخرة » .. و« الكم » على « الكيف » .. و« اللذة » على « الغاية » .. و« الطمع » على « الرضا والقناعة » .. و« العقل » على « الوحى والنقل » .. و« الفلسفة » على « الشريعة » .. و« العلم الطبيعى » على « الحكمة » .. و« الفردية » على « الجماعية » — أو العكس — .. و« تفرد الانسان وتوحده » بدلا من « انتمائه » ... الخ .. الخ ..

وحتى روعة فنون هذه الحضارة وآدابها — وهى حقيقة — فإنها لم تنجح فى الخروج بها عن « الدنيوية » الطاغية ، والمادية المستبدة بكل مناحيها .. الأمر الذى أعجزها عن إشباع الانسان إشباعا كاملا تاما ، فلم تصل به ، رغم القوة والوفرة المادية ، إلى التوازن الذى يحقق له ، من داخله ، السعادة والرضا ؟!..

* * *

التفاعل الحضارى :

لكن المودودى لم يكن صاحب موقف « متعصب » من الحضارة الغربية ، بكل جوانب إبداعها ، ولم يكن ذا عقل مغلق دون الاستفادة من انجازاتها ، ذات الصبغة العلمية والعالمية ، التى لا تمثل خطرا على الذاتية الحضارية للأمة الإسلامية .. بل لقد نعجب إذا علمنا — بعد أن رأينا نقده لهذه الحضارة — أنه كان متهما من علماء الدين التقليديين « بالتغرب » ؟!.. فكان رأيهم فيه : « **أنه متأثر غاية التأثر بالغرب ، وكل شىء يصله من الغرب يجذبه إليه دون أن يشعر** »[54] ؟!..

لكن ، لا عجب ، « فتهمة » الرجل ، أيضا عند هؤلاء ، تلك التى اعتبروها ذنبا « معارضا لمسلك جماعة العلماء ، هو : **إصراره على الاجتهاد** » ؟!.. وهو ما يعتبر نقضا لناموسهم الذى دعوا إلى التزامه ، فقالوا : « **إننا ، من حيث الجماعة ، نرى التقليد شيئا لازما فى هذا العصر ، ونرى أن شروط الاجتهاد — التى اشترطها السلف — مفقودة فى علماء هذا العصر** »[55] ؟!.. لذلك لم يكن غريبا أن يروا فيه « متأثرا بالغرب غاية التأثر » ،

---

(٥٤) محمد زكريا الكاندهلوى [المودودى .. ماله وما عليه] ص ٨٥ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٨٩ .

وفى ذات الوقت : « مستغرب لكل ما يصله عن طريق الدين »[٥٦] ؟!... فبمقاييس « تخلفهم الموروث » كان الرجل « مستغربا لما يزعمونه دينا » .. وبمقاييس « جمودهم المطلق » أمام الحضارة الغربية كان الرجل « متأثرا بالغرب غاية التأثر » !..

لكن الرجل ، كما تشهد له كتاباته وممارساته ، كان صاحب موقف يميز بين ما هو نافع وما هو ضار بنهضة الأمة وذاتيتها الحضارية المتميزة ، سواء أكان ذلك مما ورثناه عن السلف ، أم مما جاءت به الحضارة الغربية الحديثة ..

فهو يعتبر « التفاعل الحضارى » والأخذ والعطاء بين الحضارات ظاهرة طبيعية ، ومطلوبة ، طالما لم تصل إلى درجة « التشبه والتقليد » اللذين يفقدان الآخذ والمقلد والمتشبه هويته الخاصة المميزة له ... فيقول : « **أما موقف الاسلام من الحضارة والثقافة والتمدن ، وما يتم فيها من أخذ وعطاء ، فهو شيء فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض ، فهو لا يجيزه فقط ، بل يريد له الازدهار ، فهو لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة ، فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئا** » ...

ثم يذهب ليحكى مواقف ، تشهد لهذه الروح الإسلامية ، من عصر النبوة وصدر الاسلام .. « فلقد ارتدى رسول الله ، ﷺ ، الجبة الشامية ، التى كانت جزءا من زى اليهود ، فكما جاء فى الحديث : « فتوضأ وعليه جبة شامية »[٥٧] ، وكان الرومان الكاثوليك يرتدونها ، وقد استعمل ، أيضا ، القباء الأنوشروانى ، كما جاء التعبير عنها فى الحديث : « جبة طيالسة كسروانية »[٥٨]. وقد ارتدى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، « البرنس » ، وكان عمامة طويلة [طرطور] ، وجزءا من زى دراويش النصارى . **واستعمال مثل هذه الأشياء يختلف تماما عن « التشبه » ، فالتشبه هو أن يتشبه الرجل بأمة أخرى تشبها كاملا ، ويصبح التمييز بينه وبين أهلها أمرا صعبا ، على عكس ما اصطلحنا على التعبير عنه « بالأخذ والعطاء » ، أى أن تقوم أمة بأخذ ما يناسبها من أمة أخرى ، ليصبح جزءا منها ، ومع هذا يظل لها وضعها القومى وسماتها وملامحها القومية !..** »[٥٩]

* * *

(٥٦) المرجع السابق . ص ٨٥ .

(٥٧) رواه البخارى فى كتاب اللباس .

(٥٨) رواه مسلم فى كتاب اللباس والزينة .

(٥٩) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

وفى مكان آخر يعرض المودودى لقضية الموقف من علوم الغرب .. فيدعو إلى الاستفادة إلى أقصى حد من العلوم الطبيعية والبحتة ، التى لا تحمل ظلال فلسفة الغرب الالحادية والروح المادية لحضارته ... من مثل علوم الطب والاقتصاد والصناعة والزراعة ... الخ .. الخ .. ذلك لأن الاستمساك « بالعصبية القومية أو الوطنية فى قبول هذه القواعد والمبادىء لا يضر إلا المتعصبين ! » ... بل لقد تحدث عن « مبادىء الأخلاق والمدنية والاجتماع والحضارة والاقتصاد والسياسة » وطلب أن يكون المعيار فى القبول أو الرفض منها هو « ما تحمله فى ذاتها من حسن أو قبح .. وليس انتماءها لشعب (فلان) أو بلد (علان) ؟! .. »[٦٠]... ففى الوقت الذى يجب أن نسعى ، فى حرص ودأب ، على الاستفادة من إبداع الآخرين فى « نتائج أبحاثهم العلمية ، وثمرات قواهم الفكرية ، ومعطياتهم الاكتشافية ، ومناهجهم العملية ، التى تكون قد بلغت بهم معارج الترقى فى الدنيا » .. يجب كذلك أن ننظر فى مواريث الأمم ، « فأى أمة فى الأرض إذا وجدنا فى تاريخها أو نظمها الاجتماعية أو فى أخلاقها درسا نافعا ، فمن الواجب أن نأخذه منها ، ومن الواجب أن نستقصى أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص ، ونأخذ منها ما نراه ملائما لحاجاتنا وظروفنا ، لأن هذه الأمور إرث مشترك بين الانسانية ، ومن الجهل المحض عدم إعطائها ما تستحق من الأهمية والتقدير ، والتردد فى الأخذ بها بناء على العصبية القومية . **ولكننا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهرية ، ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وآدابها للأكل والشرب ، بزعم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم ورقيها ، فلا يكون ذلك إلا دليلا على غباوتنا وبلادتنا وحماقتنا ؟!..** »[٦١]

وإذا كان الرجل قد حذر من « التشبه » بالغرب ، حفاظا على تميزنا الحضارى ، فلقد ألح على ضرورة التمييز بين الاستفادة بوسائل الرقى العلمية وبين ضلالات الفكر الغربى المفسدة لحضارتنا المؤمنة « **فيجب أن نميز ما حازه الغرب من الرقى الحقيقى فى المدنية والعلوم عن ضلالاته فى فلسفة الحياة ، ووجهة الفكر والنظر والأخلاق والاجتماع ، فنأخذ الأول ونستفيد به ونضرب الصفح عن الثانى ونطهر من أدناسه شئون حياتنا كلها . ومن البين ، الذى لا غبار عليه ، أنه لا يمكن أن يتحمل ذلك من جعلوا دينهم : التفرنج الخالص ، أو طبعة من طبعات الاسلام الافرنجية .**

ويحتاج ذلك إلى أن يكون عندنا عدد من الرجال الجامعين بين العقلية الاسلامية والكفاءات الانشائية ، والمالكين للطباع المحكمة والأخلاق الفاضلة والعزائم القوية ، ثم

(٦٠) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٤٤ .

(٦١) [اللباس] ص ٢٣ ، ٢٤ . طبعة بدون تاريخ ، ولا تحديد لمكان الطبع .

ليضطلعوا جميعا بهذا العمل الجليل بطريق منظم .. »[٦٢]

فالرجل ، على شدة نقده للحضارة الغربية ، وسطوع الأضواء التى سلطها على روحها المناقض لروح حضارتنا ، قد كان واعيا تماما بضرورة التمييز بين فلسفة تلك الحضارة وطابعها المادى وروحها الإلحادية ، ومذاهبها الأخلاقية التى حولت الانسان إلى حيوان نهم كاسر ... وتلك هى الجوانب التى حذر منها المودودى ، وأبرز مخاطرها ، لا على حضارتنا الاسلامية وأمتنا فقط ، بل وعلى الانسان الأوربى أيضا ...

كان واعيا بضرورة التمييز بين هذه الجوانب فى حضارة الغرب ، وبين العلوم والتطبيقات ، ذات الصبغة العلمية والفوائد النفعية ، والتى تسهم فى ترقية الحياة المادية وتقدمها .. فاعتبرها ميراثا إنسانيا ، ودعا إلى أن يكون معيار : « الحاجة » و« المنفعة » هو الفيصل فيما نقبله أو نعرض عنه من هذه العلوم والتطبيقات ...

وفى كل الأحوال كان الرجل داعية لأن تعتز الأمة بذاتيتها الحضارية ، فلا تسقط فى مستنقع « التقليد » ، فلقد كان عدوا « للتقليد » ، حتى ولو كان تقليد السلف .. وداعية للاجتهاد ، الذى يفتح آفاق الرقى أمام الأمة ، إن فى شئون الدنيا أو فى علوم الدين !..

* * *

الموقف من القومية ..
وعلاقة الديمقراطية بالحاكمية :

وإذا كان هذا النقد الذى قدمه الأستاذ المودودى للحضارة الغربية ، وعلى وجه التحديد لطابعها المادى وروحها الملحدة وأخلاقيات اللذة والمتعة التى استشرت فى سلوكيات أبنائها ، ونزعة القوة والاستعلاء والعنف التى غدت وبالا على البشرية كلها ... إذا كان هذا النقد ، لهذه الجوانب ، قد أصبح مسلما به ، لا يثير خلافا عند غير « المتغربين » الذين جعلوا — وفق تعبيره — « دينهم التفرنج الخالص » !.. والذين لا يزالون متعلقين بأذيال « التغريب » رغم الدراسات الغربية التى تتحدث عن أزمة الحضارة الغربية والمأزق الذى دخلت فيه .. إذا كان فكر المودودى هذا قد أصبح مقبولا .. فإن للرجل انتقادات أخرى أثارت وتثير الجدل والغبار حول فكره .. وهى قد أحدثت ولا تزال تحدث بلبلة كبرى فى صفوف كثير من الإسلاميين ؟!.. ونعنى بذلك آراء المودودى التى صاغها — خلال نقده

---

(٦٢) [واقع المسلمين وطريق النهوض بهم] ص ١٧٩ .

للحضارة الغربية — عن :

● القومية .. ● والديمقراطية .. ● والحاكمية الإلهية ....

لقد غدا المودودى ، ومنذ العقد السادس لهذا القرن العشرين ، من أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيرا فى حركة الصحوة الاسلامية المعاصرة ، على امتداد العالم الاسلامى كله .. ولقد أصبح له ، منذ ذلك التاريخ — أى منذ غياب القيادة التاريخية لجماعة [الاخوان المسلمين] باغتيال الإمام الشهيد حسن البنا — أصبح للمودودى فى الحركة الاسلامية بمصر والوطن العربى تأثير واضح وَمُتَنَامٍ ... الأمر الذى جعل كتاباته عن : « القومية » و« الديمقراطية » و« الحاكمية الإلهية » — وخاصة عندما اجتزئت بعض نصوصها .. وعلى الأخص عندما غفل المسترشدون بها عن الظروف الخاصة والملابسات المتميزة ، فى الهند قبل الاستقلال والتقسيم ، والتى كتبت فيها هذه الكتابات — الأمر الذى جعل هذه الكتابات توظف فى غير مكانها ، لتثمر غير ما أراد منها كاتبها ، بل وعكس الذى أراد ...

وإذا كانت هذه الدراسة ، التى نقدمها ، تأتى ثمرة « مسح شامل » لثلاثين كتابا من كتب الأستاذ المودودى ، ضمت جماع فكره ، وخاصة السياسى منه ، فلعلها أن تقدم فى هذه القضايا القول الفصل فى حقيقة مراد الرجل مما كتب فى هذه الموضوعات ..

يظن كثيرون أن الأستاذ المودودى قد رفض « القومية » و« الديمقراطية » ، ورأى فيهما ، بإطلاق ، فكرا غربيا وافدا ، فرفضه ووجه إليه النقد فيما وجه للحضارة الغربية من انتقادات .. وهذا البعض تسعفه نصوص يجتزئها ، وأهم من اجتزائها فهو يعزلها عن الملابسات الواقعية التى كتبت لها ، ثم هم لا يعرضون لرأى الرجل كثمرة لكل ما كتب فى الموضوع ..

لقد اكتفى هذا البعض بأن الرجل قد حدد أن « قواعد المدنية الغربية هى :

١ — العلمانية ، أو اللادينية [Secularism]

٢ — والقومية [Nationalism]

٣ — والديمقراطية [Democracy][٦٣]

وأنه قد رفض هذه القواعد الثلاث ، وأعلن بدائله الاسلامية لها ، فقال :

« ١ — إننا نقدم مبدأ التسليم لله وطاعته ، بديلا عن العلمانية .

---

(٦٣) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٧٩ هـ سنة ١٩٧٨ م .

٢ – ونقدم مبدأ الانسانية العالمية ، بديلا عن القومية المحدودة الضيقة .
٣ – ونقدم مبدأ سيادة الله ، وخلافة المؤمنين ، بديلا عن مبدأ سيادة الشعب أو حاكمية الجماهير »(٦٤)

وأنه قد قال عن « القومية » : « إن مبادىء القومية تتناقض تماما مع مبادىء الاسلام ... إن اجتماع كلمتى : « مسلم » و« قومى » أمر عجيب جدا .... إن القومية حين تدخل إلى عقول وقلوب المسلمين من طريق ، فإن الاسلام يخرج من طريق آخر(٦٥)... فالمسلمون : « حزب » ، لا « قوم » ، والقرآن يرى البشرية كلها حزبين اثنين فقط ، أولهما : « حزب الله » ، وثانيهما : « حزب الشيطان »(٦٦).. »

بل لقد هاجم « الجنس » و« الوطن » ـــ وهو ما نقله عنه وردده كثيرون ! ـــ فقال : « لو ثمة عدو لدعوة الاسلام ـــ بعد الكفر والشرك ـــ فهو شيطان الجنس والوطن !.. »(٦٧)..

وأنه كتب عن هذا الثالوث : « الديمقراطية ـــ القومية ـــ العلمانية » يقول : « إنى أقول للمسلمين ، بصراحة : إن الديمقراطية القومية العلمانية تعارض ما تعتنقونه من دين وعقيدة .. إن الاسلام الذى تؤمنون به ، وتسمون أنفسكم « مسلمين » على أساسه يختلف عن هذا النظام الممقوت اختلافا بينا ، ويقاوم روحه ، ويحارب مبادئه الأساسية ، بل يحارب كل جزء من أجزائه ، ولا انسجام بينهما فى أمر مهما كان تافها ، لأنهما على طرفى نقيض . فحيث يوجد هذا النظام فإننا لا نعتبر الاسلام موجودا ، وحيث وجد الاسلام فلا مكان لهذا النظام !..(٦٨)

لقد كتب الأستاذ المودودى هذه النصوص ـــ ومثلها كثير ـــ وهى التى اجتزأها البعض وحدها ، وعزلوها عن ملابسات كتابتها ، فشوهوا فكر الرجل الذى أراده مما كتب حولها ...

ولهذا ، فإن كشف الغموض واللبس ، ومن ثم البلبلة ، التى أحاطت وتحيط بفكر المودودى هنا ، يحتاج إلى إلقاء الضوء على عدد من الحقائق الأساسية ...

---

(٦٤) المرجع السابق ص ٣١ .

(٦٥) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٦٩ .

(٦٦) [الحكومة الاسلامية] ص ١٦٥ .

(٦٧) المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٦٨) [الأسلام والمدنية الحديثة] ص ٤١ ، ٤٢ .

● لقد صاغ المودودى فكره السياسى ، الذى أفاض فيه الحديث عن « القومية » و« الديمقراطية » و« الحاكمية الالهية » ما بين [سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م] و[سنة ١٣٦٠ هـ سنة ١٩٤١ م] وفى هذه الفترة كانت الهند تغلى بالثورة الوطنية الديمقراطية ضد الاستعمار الانجليزى ، وكان [حزب المؤتمر الهندى] يسعى للحصول على الاستقلال ، وإقامة الهند الموحدة ، على أساس أن الهند تكون « قومية واحدة » ، لأنها « وطن واحد » ، ولقد تبنى [حزب المؤتمر] « العلمانية » ، باعتبارها الحل الأمثل فى بلد تتعدد فيه الديانات ... لقد ضم حزب المؤتمر « الوطنيين » الهنود ، على اختلاف دياناتهم ، لأنهم اعتبروا « وحدة الوطن » السياسية ، أرضا صالحة لقيام « قومية سياسية واحدة » ..

والمودودى يحدد أن هذا هو هدف « الوطنيين » الهنود ، فيقول : « إن الخصائص الثلاث للحكومة الحرة التى يريدها الوطنيون الهنود هى :

أولا : دولة وطنية ــ [أى قومية] ــ National State بمعنى الاعتراف بجميع مواطنى الهند كأمة واحدة ، ورفض فكرة كونهم أمما متعددة .

ثانيا : دولة ديمقراطية Democratic State بمعنى الاعتراف بأن جميع سكان الهند يمثلون مجموعة واحدة يطبق عليها مبدأ تحقيق رأى الأغلبية .

ثالثا : دولة علمانية Seculer State بمعنى أن الدولة لا تعترف بأديان الأمم المختلفة بالهند ...

ثم استطرد المودودى فتساءل قائلا : « وعلينا الآن أن ندقق فى نوعية هذه الدولة أساسا ، هل يمكن لنا ، كمسلمين ، أن نجعل من مثل هذه الدولة هدفا لنا ؟ هل يمكننا أن نعيش بداخل هذه الدولة كمسلمين ؟ هل يجوز لنا أن نساهم فى الجهاد والنضال من أجل إقامة مثل هذه الدولة ؟؟! .. »(٦٩)

ولقد كانت إجابة المودودى على هذه التساؤلات بالنفى .. النفى الذى وجه فيه وبه كل النقد وأمرّه إلى « الدولة القومية الديمقراطية العلمانية » .. والذى جاءت به النصوص التى قدمناها له عن « القومية » و« الديمقراطية » ــ تلك التى أسىء تفسيرها كثيرا ؟! ــ

● ولما كان حزب المؤتمر هو الذى يسعى لإقامة هذه الدولة « القومية ــ الديمقراطية ــ العلمانية » .. ويجتذب المسلمين إلى صفوفه ، فلقد تصدى له المودودى ، وحاربه .. وكتب تحت عنوان : [المسلمون وحزب المؤتمر] يقول : « يتضح بجلاء من التحليل العلمى والواقعى للحركة الوطنية والقومية ، وحركة تحرير الهند الوطنية ، أنه لا يوجد أى قدر مشترك بيننا وبين هذه الحركة ، إن موتنا هو حياتها ، وموتها هو حياتنا ، فلا يوجد بيننا وبينها أى اشتراك ، لا فى الأصول ولا فى الأهداف ، ولا فى أسلوب العمل . يوجد اختلاف

---

(٦٩) [الامة الاسلامية وقضية القومية] ص ٩٣ ، ٩٤ .

كلى تماما ، اختلاف شديد لدرجة أننا لا نجتمع معا على أية نقطة ، إن التباين بيننا كتباين المشرق والمغرب ! »[٧٠]

كل هذا ــ ومثله كثير جدا ــ كتبه الاستاذ المودودى ضد « الدولة : القومية ــ الديمقراطية ــ العلمانية » .. وضد [حزب المؤتمر] ، الساعى لبناء « هند : قومية ــ ديمقراطية ــ علمانية » ..

● لكن .. لنسأل :

هل كان عداء الأستاذ المودودى للقومية وللديمقراطية ــ دعنا من العلمانية الآن فسيأتى حديثها عند حديث الحاكمية الالهية ــ هل كان عداؤه للقومية وللديمقراطية عداء مبدأ ؟ لتعارضهما مع مذهب الاسلام فى بناء الدولة وسياسة الأمة ؟ .. أم أن العداء قد ارتبط بالظرف الخاص الذى كان عليه المسلمون بالهند فى ذلك التاريخ ؟!..

نحن نقول ــ ولدينا الأدلة ــ أدلة الأستاذ المودودى نفسه ــ **إن عداءه للقومية وللديمقراطية لم يكن عداء مبدأ ، فضلا عن أن يكون مبدأ إسلاميا .. وإنما كان رفضا لفكر سياسى رآه ، فى ذلك الظرف التاريخى ، ضارا بالمسلمين الهنود وبإسلامهم ..**

لقد كانت نسبة السكان المسلمين إلى سكان عموم الهند ، فى ذلك التاريخ هى نسبة الربع إلى الثلاثة أرباع ... وكان معنى الدولة القومية الواحدة ، التى تحكمها الأغلبية ، وفقا للديمقراطية ، هو حكم الهنادكة وتحكمهم فى المسلمين ، بما وراء ذلك من إضرار بالمسلمين وبإسلامهم .. ولقد أفاض المودودى الحديث حول هذا السبب الذى رفض لأجله « القومية » و« الديمقراطية » ، واعلن أن الأغلبية الهندوكية ليست من نوع « الأغلبية المألوفة » فى الدول الديمقراطية ، الأغلبية المؤسسة على الرأى ، وعلى « الفروع » ، والتى تتحول فيها « الأقلية » إلى « أغلبية » أو العكس .. ذلك لأن التمايز بين الهنادكة والمسلمين ليس فى « الرأى » حول القضايا السياسية الجارية ، وإنما هو فى « الأصول الحضارية الثابتة » ، ومن ثم فستظل الأغلبية أغلبية أبدا ، وستظل الأقلية أقلية أبدا .. وفى ذلك السيطرة الأبدية للهنادكة على المسلمين ، بما يعنى ــ تبعا لظروف الهند ــ من إضرار بإسلام هؤلاء المسلمين ومقوماتهم الحضارية الخاصة ..

ذلك هو السبب الحقيقى لرفض المودودى « للقومية » و« للديمقراطية » ، ولم يكن السبب نابعا من كونهما وافدا أوربيا ... ولدينا الأدلة ، من نصوص المودودى ، على هذا التفسير .. فالمودودى يميز بين « القومية السياسية » : القائمة على « وحدة الوطن » ، دون

(٧٠) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

وحدة الحضارة .. وبين « القومية الحضارية » ، التى تؤلف بين جماعتها البشرية أصول حضارية واحدة .. فيرفض الأولى ، لأنها هى التى كانت تجمع كل سكان الهند .. والتسليم بها كأساس لبناء الدولة الديمقراطية ، سيؤدي إلى تحكم الأغلبية الهندوكية فى المسلمين ... وهو يحبذ الثانية ، لأن المسلمين فى الهند ، بمقياسها ، قومية متميزة ، ومن ثم فلابد لهم من ذاتية سياسية متميزة ، تمكنهم من الحفاظ على خصوصيتهم الحضارية وتنميتها ...

« فالنوع الأول من القومية يطلق عليه القومية السياسية [Political Nationality] أى مجموعة من الناس يجمعهم ناظم سياسى خاص يرتبطون به ، ونتيجة لهذه الوحدة السياسية المجردة يعتبرون أمة . وليس من الضرورى لمثل هذا النوع من القومية أن تتحد جميع أفكار ونظريات المنتمين إليها ، أو تكون لديهم مثل متماثلة ، أو لغة واحدة أو أدب واحد أو أى نوع من طرق الحياة المتشابهة ، فهم رغم كل هذا يمثلون قومية سياسية واحدة ، رغم ورود الاختلاف فى كل ما أوردناه جميعا .. »

وهو يسلم بأن هذا النوع من « القومية السياسية » هو وحده الذى يربط سكان عموم الهند ، فبين هؤلاء السكان « توجد بلا شك أسس القومية السياسية » ...

لكن المودودى يرفض أن تكون هذه هى القومية التى تربط الناس برباط حقيقى « فهذه القومية ليست القومية على الاطلاق !.. » .. ذلك أن القومية الحقيقية ، عنده ، هى « القومية الحضارية » .. إنها : « النوع الثانى من القومية .. ما يطلق عليه : القومية الحضارية أو الثقافية [Caltural Nationality] وتضم هذه القومية أناسا لهم دين واحد وأفكار واحدة ، يتصفون بصفات أخلاقية واحدة ، وينظرون إلى أهم شئون الحياة نظرة مشتركة ، مما يصبغ مظاهر حياتهم الحضارية والثقافية بلون واحد . كما أنها تضم أولئك الذين يتحد لديهم معيار التحريم والتحليل ، والحب والكراهية ، والاعجاب والنفور ، والذين يقدر بعضهم أحاسيس ومشاعر البعض الآخر ، ويأنسون إلى عادات وخصائص بعضهم البعض ، والذين وجدت بينهم رابطة الدم والقلب نتيجة للتزاوج فيما بينهم ، ونتيجة لما بينهم من وحدة اجتماعية ، والذين يحركهم نوع واحد من المثل التاريخية . وباختصار : الذين يشكلون جماعة واحدة ، ووحدة متماسكة من الناحية الذهنية والروحية والأخلاقية والحضارة الاجتماعية ، فلو ظهر بينهم التعصب القومى فإنما يكون على أساس هذه القومية . كما أن من تضمهم هذه القومية ينمو بينهم فقط ــ شكل قومى مشترك Joint National type وفكرة قومية مشتركة Joint National Iden وعن طريق حب هذا الشكل القومى المشترك ، وعن طريق قوة هذه الفكرة القومية المشتركة تظهر « القومية » ، وهذا هو ما يتطور فيما بعد ليشكل « القومية الذاتية » National Self تكون لدى الأفراد فيها استعدادات ذاتية للانجذاب إليها . وحين تكون هناك أية موانع ، واقعية كانت أو خيالية ، تقف فى طريق نمو هذه القومية الذاتية فإن هذه العواطف

تلتهب من أجل إزاحة هذا المانع ، وتلك العاطفة هى الشىء الذى يطلق عليه إسم : القومية »

وكما نفى المودودى أن تكون « القومية السياسية » ـــ الموجودة بالهند ـــ قومية حقيقية .. فلقد قطع بأن ظروف الهند ـــ الحافلة بقوميات متعددة ـــ تنفى أن تكون بها « قومية حضارية ثقافية واحدة »[71]... ومن ثم فلا مجال للدعوة إلى بناء دولة قومية واحدة ، لأن القومية الحقيقية الواحدة غير موجودة بين عموم سكان الهند .. ومن ثم فلا يمكن قبول هدف حزب المؤتمر « الذى يتمثل فى قيام دولة وطنية جمهورية [ديمقراطية] علمانية ، كما أنه **لا يمكننا أن نتحمل أو نستسيغ سياسته التى ترمى إلى القبض على السلطات السياسية تدريجيا ، ومساعدة الهنادكة لتكون لهم اليد الطولى على جميع أجزاء البلاد** !.. »[72]

فالعداء هو للقومية التى ستسحق مقومات المسلمين الحضارية ، لأنها « قومية سياسية » فقط ، لا وحدة حضارية بين الذين يطلب أن يعيشوا فى دولتها الوطنية الديمقراطية ... ولو كان الحال غير ذلك ، والهند قومية حضارية وثقافية واحدة ، أو لو أن المسلمين فيها أغلبية لما عارض المودودى القومية ...

لقد عارضها لهذا السبب ... أما الانجليز فكانوا نظريا مع القومية الواحدة ، لأنها جزء من فكرية حضارتهم .. وحزب المؤتمر ، ذو الأغلبية الهندوكية ، والذى تسود فكريته مثل الحضارة الغربية ، كان مع القومية الواحدة ، ودولتها الواحدة ، بحكم المصلحة أولا ، والفكر التغريبى المتفق مع هذه المصلحة ... ولقد كان المودودى صريحا عندما وضع النقاط على الحروف ، وأعلن أن رفضه للقومية الواحدة ، ودولتها الواحدة قد نبع من الحرص على قومية المسلمين الحضارية كى لا تسحقها الأغلبية الثابتة للهنادكة ، وأن هذا السبب فى الرفض خاص بظروف المسلمين الهنود .. فقال : « إن نظرية القومية التى أوردها الغربيون إلى بلادنا كانت نظرية الوطنية اللادينية ، التى إذا اختلط بها مبدأ « القومية » أصبح ضغثا على إبالة ، **بحقنا على الأقل ، لأن بلادنا الهندية ثلاثة أرباع سكانها من غير المسلمين** ، فقد جعلنا مبدأ « القومية » ـــ على أساس الوطنية ـــ بين أمرين : إما أن نرتد على أعقابنا عن ديننا الاسلام ، متحمسين لديانتنا الجديدة ، أو نعيش فى البلاد كافرين ، أى خارجين على الوطن بموجب ديانة القومية والوطنية ! .. »[73]

فالمرفوض هو « القومية السياسية » ، لأنها ليست قومية حقيقية .. أى ليست

---

(71) المرجع السابق . ص ۱۷۱ – ۱۷۳ .

(72) المرجع السابق . ص ۲٦۰ ، ۲٦۱ .

(73) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ۱٥۲ ، ۱٥۳ .

قومية حضارية وثقافية .. ولأنها مؤسسة فقط على وحدة الأرض ـ الوطنية ـ .. ولأن أغلبيتها الهندوكية ستظل ثابتة ، وفى الديمقراطية ، التى تحكم فيها الأغلبية الأقلية سيحيق الخطر بالقومية الحضارية للمسلمين ... فالحق والحقيقة أن المودودى مع القومية الحقيقية وضد اللاقومية ؟!

● ويزيد من وضوح هذا التفسير ، الذى قدمناه لرأى المودودى فى القومية ـ إن كانت لا تزال ثمة حاجة لوضوح ؟! ـ أن الرجل لم يكن له اعتراض على نشأة القوميات فى أوربا ، عندما كان هدفها « أن تعطى القوميات المختلفة حرية ممارسة حق سيادتها فى أرضها بكافة الحقول ، السياسية والتجارية والاقتصادية وغيرها ، بدلا من أن تكون أداة فى أيدى البابوات والقياصرة ، المتعسفين بإسم السلطات الروحية والزمنية !.. » ... فقط كان اعتراضه على تطور هذه القومية إلا الاستعلاء والقداسة والالحاد والعدوان(٧٤)..... ولذلك فهو يميز بين نوعين من القومية :

الأولى : القومية غير العدوانية .. وذات المضمون والهدف التحررى ... وهو معها يؤيدها.

والثانيـــة: القومية العدوانية ، الأنانية ، المستغلة لغيرها من القوميات والشعوب .. وهو ضدها .. رافض لها ... وكلماته ، فى هذا التمييز ، الذى لا يدع مجالا لشك فى براءته مما ينسب إليه من عداء للقومية ، بإطلاق ومن حيث المبدأ ، تقول : « أما القومية ، فإن أريد بها : الجنسية [Nationality] فهى أمر فطرى لا نعارضه ، وكذا إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه ، فنحن لا نعارضها كذلك ، إذا كان هذا الحب لا يعنى معنى العصبية القومية العمياء التى تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى ، وينحاز إلى شعبه فى الحق والباطل على السواء . وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومى ، فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ، ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده .

أما الذى نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة فهو القومية التى تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ، ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم !.. »(٧٥)

إن المودودى لا يعادى القومية بإطلاق ، ومن حيث المبدأ .. فقط هو يعادى

---

(٧٤) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ١٣ ، ١٤ .

(٧٥) المرجع السابق . ص ٢٥ ، ٢٦ .

« القومية العدوانية » .. وبالتحديد فهو يعادى القومية الاستعمارية الاوربية ، التى ذهبت تستعبد كل الهند ... ويعادى القومية الهندوكية التى سعت ـــ على أساس وحدة الأرض والوطن ـــ والتى لا تكوّن قومية حقيقية لسكان عموم الهند ـــ سعت للسيطرة الأبدية على المسلمين فى شبه القارة الهندية ...

فهل بعد جلاء موقف المودودى ، من قضية « القومية » ، مجال لنقل بعض نصوصه التى عارض بها سيطرة الأغلبية الهندوكية على الأقلية المسلمة .. نقل هذه النصوص ، ليعارض بها نفر من الاسلاميين « القومية العربية » ، التى تصل نسبة المسلمين بين سكانها قرابة الـ ٩٥ ٪ من مجمل هؤلاء السكان ؟!... وهى القومية التى وصفها الشيخ حسن البنا فقال : **« إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية ، تجمعها العقيدة ، ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة من الأرض واحدة متصلة متشابهة ولايحول بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق . ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله ... فلن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ووحدتها .. فالعرب هم أمة الاسلام الأولى وشعبه المتميز !.. »**(٧٦)

وهل من الأمانة أن نأخذ نصوص الأستاذ المودودى فى قومية الهنادكة لنلصقها بقومية العرب المسلمة ، بأغلبية سكانها الساحقة ، وبالتكوين النفسى الإسلامى الذى هو حضارة العرب أجمعين ؟! ..

بل إننا إذا ذهبنا نستقرىء الحل الذى قدمه الأستاذ المودودى لمستقبل الهند ، بقومياتها المتعددة ، وللعلاقة بين القومية الاسلامية وغيرها من القوميات التى تعيش فى شبه القارة الهندية ، فسنجد المودودى قد قدم لهذه المعضلة « حلا قوميا » ؟!.. لقد طلب لكل قومية « استقلالا ذاتيا » ، تمارس فى ظله حقوقها القومية وتنميها فى إطار « دولة داخل الدولة الاتحادية » التى تظلل هذه « الدول » القومية جميعا .. فهو « حل قومى » ، ترسم معالمه التمايزات القومية فى شبه القارة الهندية ... ومن كلمات المودودى ، التى صاغ بها اقتراحه هذا نقرأ قوله : « إن إقرار واستمرار **الحياة القومية للمسلمين** يستلزم ، بالضرورة ، ما يمكن أن نطلق عليه ، بالمصطلح السياسى الحالى : « دولة داخل دولة » . إن الدعائم التى يقوم عليها مجتمعهم لا يمكن أن تظل راسخة ثابتة طالما لا يوجد فى مجتمعهم « قوة حاكمة » و« هيئة

(٧٦) [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١١٣ ، ١١٤ .

حاكمة » ... «[٧٧] خاصة بهم ... « ولا حرج فى أن تنال أمم الهند الأخرى هذا النوع من الاستقلال ، أو الحكم الذاتى ، فى سبيل الحفاظ على **مصالحها القومية الخاصة** . وبعد أن تحصل جميع الأمم داخل الهند على مثل هذا الاستقلال ، أو الحكم الذاتى ، فإن نظام الحكم المشترك يمكن أن يتحقق داخل الهند بطريقة سليمة ... «[٧٨]

أما نوع العلاقة بين هذه القوميات ، المستقلة ذاتيا ، فى دولة لكل منها داخل الدولة ، أى نوع « الدولة الجامعة » ، فلقد طرح المودودى حوله تصورات ثلاثة :

١ — الاتحاد الفيدرالى ..

٢ — أو تميز القوميات فى مناطق محددة جغرافيا ، مع إحداث « إبدال سكانى » خلال ربع قرن أو أكثر ، يصحبه تزايد استقلال « الدول » وتقليل صلاحيات « المركز » ..

٣ — أو انفصال الولايات الاسلامية واستقلالها واتحادها .. وكذلك الولايات الهندوكية ، مع إقامة « تحالف » و« تعاون » بينهما ..

وهى تصورات مؤسسة على المعيار القومى ، طرحها الأستاذ المودودى ، فقال : إن « أمامنا الآن ثلاثة تصورات لتشكيل مستقبل الهند :

التصور الأول :

إن الشكل الصحيح والعادل لبناء دولة جمهورية — [أى ديمقراطية] — فى بلد **القوميات المتعددة** هو :

أولا : أن تقوم على مبادىء وأصول الاتحاد الفيدرالى الدولى International Federatim وبعبارة أخرى : فهى ليست دولة أمة واحدة ، بل **هى دولة اتحادية لأمم متعددة** Astate of Federatel Natim.

ثانيا : تتمتع كل أمة داخل هذا الاتحاد بالاستقلال الحضارى والثقافى .Culturol Autonony أى تستطيع كل دولة أن تستخدم صلاحيات وسلطات الحكومة لإصلاح وتنظيم بيتها داخل دائرة حياتها الخاصة .

ثالثا : أن يقوم نظام عملها ، بالنسبة للمعاملات الوطنية المشتركة ، على المشاركة المتساوية .equel Purtnersinp فيكون لكل منها استقلالها الذى تمارسه فيما يتعلق بمعاملاتها الخاصة ، ويمكنها أيضا أن تمارس عملا مشتركا فيما يتعلق بالمعاملات المشتركة . وفى ظل هذا النوع من النظام الاتحادى ، فإن « الإمارة » أو « الولاية » تنقسم بين المركز

---

(٧٧) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ٥١ .

(٧٨) المرجع السابق . ص ٩٩ .

والأجزاء المتحدة .... وبعد ذلك تواجه قضية الحكومة المركزية ... ويجب أن يؤسس هذا النظام الحكومى المشترك ، بالضرورة ، على مبادىء الأنصبة المتساوية أو المشاركة المتساوية ، **لأن هذا اتحاد بين الأمم صاحبة « الإمارة » ، وليس نظاما قائما على حكم الحكومة الواحدة Unitary ومختص بأمة واحدة .**

التصور الثانى :

إذا رفض هذا التصور للاتحاد بين أمم الهند ، فمن الممكن إيجاد تصور آخر ، وهو إقرار حدود جغرافية منفصلة لكل أمة من ا لأمم ، تستطيع **أن تبنى فوقها دولتها الجمهورية ــ [أى الديمقراطية]** ــ ، وتحدد فترة ٢٥ سنة أو أكثر أو أقل من ذلك لإحداث « إبدال سكانى » ، ويكون لكل دولة استقلالها الداخلى بصورة متزايدة ، بينما يحتفظ المركز الاتحادى بصلاحيات قليلة .

التصور الثالث :

إذا رفض هذا التصور أيضا ، فإننا نطالب فى النهاية بأن تنفصل **ولاياتنا القومية** ، وتشكل اتحادا فيما بينها ، وهكذا يمكن للولايات الهندية أن تقيم لها اتحادا منفصلا ، ثم يشكل تحالف **Confedraly** بين هذين البلدين ، أو أكثر ، ويمكن التعاون بينهما بشروط محددة ، وذلك من أجل الأهداف الخاصة ، مثل الدفاع والمواصلات والعلاقات التجارية ... »[٧٩]

تلك هى تصورات المودودى عن الحلول التى رآها للعلاقة بين القوميات الحضارية والثقافية فى الهند الكبرى ... وهى شهادة تثبت أن الرجل وإن حارب « القومية السياسية » ، المفتقرة إلى الوحدة فى الأصول والمكونات الحضارية للقومية ، فلقد ناضل فى سبيل « الحل القومى » للقوميات الحضارية ... ولم يكن أبدا عدوا للقومية .. كما حسب بعض الاسلاميين !..

هذا عن الشبهات التى علقت بفكره القومى ..

* * *

أما موقفه من « الديمقراطية » ، والذى زُعم أنه عاداها عداء شديدا .. فإنه هو الآخر مما يحتاج إلى جلاء لبعض الغموض ، وكشف لما أحاطه من الشبهات !..

---

(٧٩) المرجع السابق . ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . [وواضح من سير الأحداث أن المشكلة قد حلت بمزيج من التصور الثانى والثالث ، مع التعديل .. فتم الاستقلال الكامل للقومية الاسلامية ، مع ابدال سكانى فرضته أحداث الصراع العنيف ! .]

لقد قيل إن الرجل قد ارتاد الدعوة إلى « الحاكمية الالهية » فى الفكر الاسلامى الحديث .. فأحيا هذه الدعوة التى بدأها « الخوارج » فى صدر الإسلام عندما أعلنوا أنه : [لا حكم إلا لله !] ... وقيل إن الرجل قد شدد على اختصاص الحاكمية بالله .. « الحاكمية القانونية » ، أى حاكمية التشريع .. و« الحاكمية السياسية » ، أى حاكمية التنفيذ .. ونفى أن يكون لبشر ، فردا كان أو حزبا أو طبقة أو شعبا ، أى حق ، ولو جزئى ، فى هذه « الحاكمية الإلهية » ... ولما كانت « الديمقراطية » — كما هى فى الغرب .. وكما تحدث عنها الرجل — هى « حاكمية الجماهير » فلقد رفضها الرجل كل الرفض ، وعاداها كل العداء !..

قيل هذا ، وسيقت عليه شواهد من نصوص الرجل .. من مثل قوله : « **إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول : إن الحق وحده هو الحاكم بذاته وأصله ، وأن حكم سواه موهوب وممنوح[80]... وإن أى شخص أو جماعة يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية ، فى ظل هذا النظام ، هو ولا ريب سادر فى الإفك والزور والبهتان المبين ... فالله معبود بالمعانى الدينية ، وسلطان حاكم بالمعانى السياسية والاجتماعية ... وهو لم يهب أحدا حق تنفيذ حكمه فى خلقه ... وإن الانسان لاحظ له من الحاكمية إطلاقا[81]... وإن الأساس الذى ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية فى الاسلام أن تنزع جميع سلطات [Powers] الأمر والتشريع من أيدى البشر ، منفردين ومجتمعين ، ولا يؤذن لواحد منهم أن ينفذ أمره فى بشر مثله فيطيعوه ، أو ليسن قانونا لهم فينقادوا له ويتبعوه ، فإن ذلك أمر مختص بالله وحده ، لا يشاركه فيه أحد غيره ، كما قال هو فى كتابه : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ﴾[82]... فالخصائص الأولية للدولة الاسلامية ثلاث :**

١ - ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين فى الدولة نصيب من الحاكمية ، فإن الحاكم الحقيقى هو الله ، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده . والذين من دونه فى هذه المعمورة إنما هم رعايا فى سلطانه العظيم .

٢ - ليس لأحد من دون الله شىء من أمر التشريع ، والمسلمون جميعا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لا يستطيعون أن يشرعوا قانونا ، ولا يقدرون أن يغيروا شيئا مما شرع الله لهم .

---

(٨٠) [الحكومة الاسلامية] ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨١) المرجع السابق . ص ٧٠ ، ٧٣ .

(٨٢) يوسف : ٤٠ .

٣ - أن الدولة الاسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذى جاء به النبى من عند ربه ، مهما تغيرت الظروف والأحوال ، والحكومات Governement التى بيدها زمام هذه الدولة State لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى فى خلقه[٨٣]......

وأن وضعية الدولة الاسلامية : أنها ليست ديمقراطية Democracy ، فإن الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعا ... وهى ليست من الاسلام فى شىء ، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الاسلامية ... »[٨٤]

نعم ... لقد قال الأستاذ المودودى ذلك .. ومثله كثير !... ونحن نعترف أن كلماته هذه من الممكن أن يؤدى اجتزاؤها ، وغياب وضعها إلى جوار غيرها من التى عرض فيها لذات القضية ، وأيضا غياب المعنى المحدد لما عناه الرجل من « الحاكمية » ، وما كتبه عن « الخلافة الإنسانية » عن الله فى الأرض ... إن غياب ذلك من الممكن أن يوهم ــ وهو قد أوهم الكثيرين ــ أن الرجل عدو للديمقراطية ، لأن الحاكمية تعنى تجريد الانسان من كل سلطات التشريع والتنفيذ !..

لكن لنبدأ ، أولا ، بتحديد معنى المصطلحات عند الرجل :

● إن معنى كلمة « الحاكمية » عنده هى : « السلطة العليا .. والمطلقة » .. فهى ليست السلطة « العليا » فقط .. بل و« المطلقة » أيضا .. إنها لا تطلق إلى على الـ [فعّال لما يريد] والذى [لا يُسْأل عما يفعل][٨٥]..

● ومعنى كلمة « الديمقراطية » ــ فى الحضارة الغربية ــ هى : « حاكمية الجماهير ... وسيادتها المطلقة من كل قيد ، سوى ما تصنعه الجماهير لنفسها ... »[٨٦].. أى أن للجماهير السلطة العليا ، والمطلقة .. والآن نكتفى بأن نسأل :

هل يدعى مسلم ، مهما بلغ إيمانه بالديمقراطية ، أن الجماهير يجب أن تكون ، فى ديمقراطيتنا ، مطلقة السلطة ، فلا تسأل عما تفعل ؟ وتفعل ما تريد ؟ حتى لو أحلت الحرام وحرمت الحلال ، الثابت دلالة وورودا عن الله سبحانه وتعالى ؟؟!... أم أن سلطة الجماهير

---

(٨٣) [نظرية الاسلام السياسية] ص ٣١ - ٣٣ .

(٨٤) المرجع السابق . ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٨٥) [تدوين الدستور الاسلامى] ص ٢٥١ ، ٢٥٣ . ترجمة محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩م ضمن مجموعة عنوانها « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » .

(٨٦) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ ، ٣٧ .

وسلطان الأمة وسلطاتها يجب أن تقيد بما قطع فيه الله بالتشريع ، فهى حرة داخل الإطار الإلهى ؟؟..

وبعد هذا التساؤل .. لنواصل عرض الفكر المتكامل للأستاذ المودودى ...

إن الرجل لم يقل بوجود تشريع إلهى كامل لما هو قائم وما يستجد من القضايا والمشكلات ، حتى يمكن أن يتصور أنه يجرد الانسان من كل حق فى التشريع والتقنين ، كما توهم بعض نصوصه المجتزأة ... بل الرجل يقول : « إن مجالس الشورى أو البرلمانات لا يباح لها أن تسن نظاما أو تصدر حكما فيما ورد فيه نص صريح واضح فى شريعة الله ... أما مالم **يرد فيه نص شرعى — وهو المجال الأوسع — فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا فى سن الأنظمة التى تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة** .. على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة ... »(٨٧)

إذن فللبشر أن يسنوا القوانين والنظم فيما لا نص فيه .. **وهو المجال الأوسع !**... بل إن المودودى يسمى هذه السلطة ، التى تمارسها مجالس الشورى والبرلمانات ، يسميها « حاكمية » ؟!.. وذلك عندما يذهب لإبداع تعريف للحكومة الاسلامية ، والتى يراها إلهية ، أى « ثيقراطية » Theo-Cracy لأن صاحب السلطة المطلقة والعليا فى التشريع لمجتمعها هو الله ... ولكنها ليست ثيقراطية الغرب الكنسية التى تتحكم فيها طبقة السدنة Priest Class. لأنها فى الاسلام أيضا ديمقراطية Democracy لأن الاسلام قد أقر « نيابة الشعب واستخلافه عن الله ، فى ظل سيادة الله وحاكميته » .. فالحكومة الاسلامية لذلك هى — عند المودودى — : « الثيقراطية — الديمقراطية » أو الحكومة الالهية الديمقراطية .. **لأنه قد خول فيها للمسلمين « حاكمية شعبية مقيدة » Limited popalar Sovereignty ... »**(٨٨)

إذن ، ففى الاسلام « حاكمية شعبية » ، وإن تكن مقيدة بالنصوص القطعية — التى تناولت المجال الأقل من شئون المجتمع ، وتركت لأصحاب « الحاكمية الشعبية » « المجال الأوسع » — كما قال المودودى ؟!..—

بل وحتى فيما وردت به النصوص الالهية نجد لأصحاب « الحاكمية الشعبية » مجالا كبيرا .. وبعبارات المودودى ، فإن « هناك مع هذا العنصر القطعى ، غير القابل للتغيير والتعديل ، **عنصراً** آخر **يوسع فى القانون الاسلامى إلى حيث لانهاية** ، ويجعله يرحب بالتغير والرقى فى كل حالة من حالات الزمان المتطورة ، وهو يشتمل على عدة أنواع :

---

(٨٧) المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٨٨) [نظرية الاسلام السياسية] ص ٣٤ ، ٣٥ . و[الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ .

١ – **تعبير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها** ... وهو باب واسع جدا فى الفقه الاسلامى . فالذين لهم عقول ثاقبة .. يجدون أمامهم مجالا واسعا **للتعبيرات المختلفة حتى فى أحكامها القطعية الصريحة** ، فكل منهم يرجح – على حسب فهمه وبصيرته – تعبيرا من هذه التعبيرات على غيره ، محتجا بالدلائل والقرائن . وهذا الاختلاف فى تعبير الأحكام مازال له وجود بين أصحاب الفقه والعلم من الأمة من أول أمرها ، ولابد له أن يبقى مفتوحا فى المستقبل أيضا ..

٢ – **القياس** .. وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع فى قضية ، على قضية أخرى تماثلها ، أى بقياسها عليها ..

٣ – **الاجتهاد** .. وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة وتطبيقها فى قضايا جديدة لا توجد لها النظائر والأشباه فى الشريعة ..

٤ – **الاستحسان** .. وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة فى دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات ، بحيث تتفق إلى أكبر درجة مع روح نظام الاسلام الشامل .

فهذه الأمور الأربعة إذا تدبرتم ما فيها من الامكانات ، فإن الشبهة لا تكاد تساوركم بأن القانون الاسلامى قد ضيق نطاقه فى حين من الأحيان عن تلبية حاجات التمدن الانسانى المتزايدة المتجددة ، والوفاء بمطالب أحواله المتطورة .. »[٨٩]

فالأحكام القطعية القليلة .. من مثل

١ – الأحكام الصريحة القطعية الواردة فى القرآن والأحاديث .. كالحدود .. والميراث ..

٢ – والقواعد العامة الواردة فى القرآن والأحاديث ، كحرمة كل شىء مسكر ، وكل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما ...

٣ – والحدود المقررة فى القرآن والسنة لنحد بها حريتنا فى الأعمال ولا نتجاوزها ، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات ، وحد ثلاث مرات للطلاق ، وحد ثلث المال للوصية ...

هذه الأحكام القطعية هى من « الثوابت » المحددة لصورة مدنية الاسلام المتميزة .. ولا بد لكل مدنية من ثوابت « لا تقبل التزحزح والتغيير ا.. »[٩٠]

فإذا علمنا أن « القرآن ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادىء والقواعد الكلية ، ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامى بوضوح ،

---

(٨٩) [القانون الاسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ص ١٧٣ – ١٧٥ .

(٩٠) المرجع السابق . ص ١٧١ ، ١٧٢ .

ثم يثبتها تثبيتا قويا بكلتا الطريقتين : التدليل العقلى ، والتحريض العاطفى . أما ما يتعلق بالصورة العلمية للحياة الاسلامية فإنه لا يرشد الانسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية ... بل إنه حدد الحدود الأساسية .. »[٩١] فقط ..

إذا علمنا كل ذلك أدركنا — بمنطق المودودى — ومن خلال نصوصه كيف وسع الاسلام مجال « الحاكمية البشرية المقيدة » .. وما هو نطاق القيود الالهية على هذه الحاكمية البشرية ..

والأستاذ المودودى ، بعد أن نفى أن تكون « الحاكمية البشرية » ، فى الاسلام ، لفرد أو طبقة ، أو كهنة سدنة ، تحدث عن خلافة الانسان ونيابته عن ا لله .. فالأمة نائبة عن الله ، وهى تنتخب حاكمها ، ونوابها ، وأهل الحل والعقد فيها ، بطريقة ديمقراطية ، الأمر الذى « يجعل الخلافة الاسلامية « ديمقراطية » ، على العكس من القيصرية أو البابوية أو الثيقراطية [الدولة الدينية Theocracy] على حسب ما يعرفها الغرب ورجاله .. »

ويستطرد المودودى فيقول إن « ديمقراطيتنا الاسلامية — هى كديمقراطية الغرب — لا تتألف الحكومة فيها ولا تتغير إلا بالرأى العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية متقيدة بقانون الله عز وجل .. »[٩٢]

وفى مكان آخر يفصل فى الطابع الديمقراطى للنظام السياسى الاسلامى ، فيقول : « إننا نعارض سيادة فرد أو أفراد أو طبقة سيادة مطلقة تستأثر بالسلطة ، أكثر من معارضة المتحمسين للديمقراطية الغربية ، ونؤكد المساواة فى الحقوق وتكافؤ الفرص أكثر من تأكيد أنصارها ، ونحارب كل نظام يكبت الحريات ، فلا يبيح حرية التعبير أو التجمع أو العمل ، أو يضع العراقيل فى سبيل بعض الأفراد لاختلافهم فى الجنس أو الطبقة أو أصل الولادة ، بينما يعطى الآخرين حقوقا وامتيازات خاصة . فإذا كانت الديمقراطية الغربية تعتبر هذه الأمور جوهرها [Essence] وروحها فإنه لا خلاف بينها وبين ديمقراطيتنا الاسلامية .... نحن نؤمن بحاكمية الله تعالى ، ونقيم نظام حكمنا على فكرة الاستخلاف أو النيابة ، وهى نيابة ديمقراطية فى جوهرها وروحها ، يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة ، كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم

---

(٩١) [المبادىء الأساسية لفهم القرآن] ص ٦٢ . تعريب : خليل أحمد الحامدى . طبعة الكويت سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١ م .

(٩٢) [تدوين الدستور الاسلامى] ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

الذين لهم الحق المطلق فى نقد تصرفات الحكام ، ومحاسبتهم .. »[93]

وإذا كان المودودى قد مال ، فى كتابه [نظرية الاسلام السياسية] ـ الذى كتبه سنة ١٩٣٩ م ـ إلى « أن للأمير الحق فى أن يوافق الأقلية أو الأغلبية من أعضاء مجلس الشورى فى رأيها ، كما أن له أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ، ويقضى برأيه »[94] .. أى مال إلى عدم إلزام الشورى للحاكم ... فلقد عاد وعدل عن هذا الرأى فى كتابه [تدوين الدستور الاسلامى] ـ الذى كتبه سنة ١٩٥٢ م ـ وقال : إنه « لا مندوحة لنا من أن نجعل الهيئة التنفيذية تابعة لآراء أغلبية أعضاء المجلس التشريعى ! »[95]

فهل بقيت ثمة شبهة ، أو بقى أى غبار على فكر الرجل ، يبرر الظن بعدائه للديمقراطية ، بدعوى أن مفهومه للحاكمية الالهية ينافيها ؟!...

لا نعتقد .. ولا نظن !..

واخيرا .. فإن هناك حقيقة هامة قامت وراء نقد المودودى **للديمقراطية الغربية** ، التى كانت أساسا من أسس الدولة القومية الواحدة التى سعى [حزب المؤتمر] لاقامتها فى الهند الموحدة .. وهذه الحقيقة تقول : إن عداء المودودى هذا قد نبع من عدائه لفكرة القومية الهندية الواحدة ، فكلاهما كان يعنى ـ فى ظروف الأقلية المسلمة والأغلبية الهندوكية ـ سحق الشخصية الحضارية والقومية الثقافية للمسلمين ... والمودودى ، فى نصوص كثيرة له ، يميز بين الديمقراطية ـ بمعنى النيابة عن الأمة وحكم الأغلبية ـ وبين تطبيقها فى ظل أغلبية ثابتة ، على أقلية ثابتة ـ لاختلافهما فى الأصول والحضارة ـ .. فهى ، فى رأيه ، هنا ستكون « بربرية » ، ولن تكون « ديمقراطية » !.. يقول ـ فى نص هام جدا من نصوصه هذه ـ موضحا فكره ، وحاسما موقفه : « **إنه لا يمكن لأى عاقل أن يعارض الديمقراطية ، ولا يمكنه القول بأنه يجب أن يكون هناك حاكم ملكى أو أرستقراطى ، أو أى نوع آخر من أنواع الحكم . إن القضية التى تقلقنا منذ فترة طويلة ، وتزيدنا قلقا يوما بعد يوم ، هى أن نظام الحكم فى الهند يسير منذ حوالى ثمانين سنة[96] مضت على أساس المؤسسات الديمقراطية ، على افتراض وجود قومية واحدة ، وذلك بسبب القيادة الخاطئة والحكم الخاطىء من جانب الانجليز من ناحية ، وحسن حظ وأنانية الهنادكة من ناحية أخرى . ولا يجب أن نخلط هنا بين الديمقراطية نفسها والمؤسسة ذات النوع الجمهورى ، على افتراض**

(٩٣) [الاسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ - ٣٨ .

(٩٤) [نظرية الاسلام السياسية] ص ٥٩ .

(٩٥) [تدوين الدستور الاسلامى] ص ٢٧٦ .

(٩٦) كتب هذا الكلام سنة ١٩٣٧ م .. والاشارة إلى تاريخ هزيمة الهند أمام بريطانيا فى خمسينات القرن التاسع عشر .

وجود القومية الواحدة ، فبينهما فرق السماء والأرض ، ولا يعنى الاختلاف مع واحدة أننا نختلف مع الأخرى . فحقيقة الأمر أنه لا يوجد فى الهند قومية واحدة ، ولا توجد بالهند الأسس التى يمكن أن تقوم عليها القومية الواحدة . ولكن لنفترض أن الهنادكة والمسلمين والمنبوذين والسيخ والمسيحيين وغيرهم يمثلون أمة واحدة .. فإن من الممكن تطبيق قاعدة الجمهورية [الديمقراطية] هذه بينهم على أساس أن يسير الحكم طبقا لما ترتضيه الجماعة التى تمثل الأغلبية بين هذه الأمم[97]... إنه حين يتم تطبيق أصول الحكومة المنبثقة عن الأغلبية [أى حكومة الأغلبية] فى النظام الديمقراطى ، فإن هذا يعنى أن المجموعة كثيرة العدد تتولى الحكم ، وتنال أغراضها ورغباتها بقوة الحكومة ، كما أن المجموعة قليلة العدد تصبح مستبعدة وتضحى برغباتها ومصالحها فى سبيل رغبات ومصالح الأغلبية ، وهذا هو ما يطلق عليه : استبداد الأغلبية .. وهو أعمق حرج وأسوأ علامة على وجه ديمقراطيات هذا الزمان ... ويمكن لمبادىء حكومة الأغلبية أن تكون فى مكانها الصحيح حين يتم الاتفاق أصلا على الأمور الأساسية للمواطنين ، وأن يكون الاختلاف بينهم اختلافا فى الآراء فقط ، وليس فى المصالح ، ومن الممكن فى مثل هذا النظام أن تصبح أقلية اليوم هى أغلبية الغد ، وأن تصبح أكثرية اليوم أقلية الغد ... ولكن اختلاف الأهداف .. أو الأصول الدينية ، أو العواطف القومية ، أو اختلاف أسلوب الحياة وغيرها من مثل هذه الأمور لا يمكن أن تنتهى عن طريق الدلائل أو الاستنتاجات ، ومن هنا فإن المجموعة التى تشكل الأغلبية سوف تظل دائما هكذا ... فمن الخطأ ، إذن ، أن نطلق على هذا الشىء اسم : الديمقراطية ، ويجب أن نطلق عليه اسم : البربرية[98] ؟!.... إن عزيمتنا القومية لا تزداد ولا تنضج فى ظل هذا النظام ، بل هى تختنق وتعتصر للنهاية ، وتقتلع جذورها ، ففى هذا النظام نحن قلة فى العدد ، وهذا النظام يعطى ما عنده لمن هم كثرة فى العدد ... إن القوة جميعها سوف تتحرك لتستقر فى أيدى الآخرين ... وهم سوف يسحقون وجودنا بقوة وبشدة ؟!.. »[99]

هكذا وضحت مواقف الرجل الفكرية كل الوضوح .. وظهر جليا ، من خلال هذه النصوص ، التى تعمدنا الافاضة فى ايرادها لكيلا تكون هناك حجة لمن يجتزئون النصوص ؟!.. ظهر جليا أن الرجل لم يكن عدوا « للقومية » ولا « للديمقراطية » ..

● فهو قد رفض « القومية السياسية الواحدة » لكل الهند .. لأنها كانت تعنى سحق

(٩٧) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٠٨ .

(٩٨) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٩٩) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٠٩ .

الأغلبية الهندوكية للقومية الحضارية والثقافية للأقلية المسلمة ... فموقفه هذا كان دفاعا عن « القومية » الحقة .. وليس عداء « للقومية » ... ثم هو قد قدم لهذه المعضلة حلا قوميا ، نابعا من تعدد القوميات فى شبه القارة الهندية !...

● وهو قد رفض مؤسسة الدولة الديمقراطية ، القائمة على حكم الأغلبية ، لا رفضا منه للديمقراطية ، بل لأنها — فى ظروف الهند — حيث تتعدد القوميات — ستؤدى إلى دوام الحكم بيد الأغلبية الهندوكية ، واستبعاد الأقلية المسلمة عنه دائما ، لدوام ارتباط الأغلبية بالأصول الحضارية القومية .. **وهذا الموقف هو رفض لتوظيف المؤسسات الديمقراطية فى غير موضعها ، وليس رفضا للديمقراطية ، فهو نفسه يقول : « إنه لا يمكن لعاقل أن يعارض الديمقراطية » ؟!..**

● ونظريته فى الحاكمية الإلهية لا تنفى انحيازه للديمقراطية ... فالحاكمية ، بمعنى السلطة المطلقة .. سلطة الفعال لما يريد .. الذى لا يُسْأل عما يفعل .. ليست مما يدعيه البشر ... ونطاق التشريع الإلهى القطعى محدود ، وأغلبه كليات وقواعد عامة ... أما ما عداه فاختصاص « الحاكمية البشرية » المحكومة بهذه الكليات وبروح الشريعة العام — التى هى فكرية الأمة ومعيار الخير والشر والصواب والخطأ فى حياتها — ... والأمة ، عن طريق نوابها وممثليها ، هى التى تمارس هذه « الحاكمية البشرية » .. فهى إذن — هذه الحاكمية — ديمقراطية فى الجوهر والمضمون والأساس ...

هكذا انجلى الغموض الذى أحاط بفكر الأستاذ المودودى السياسى ... وهو الغموض الذى ، علم الله ، كم دفع أناسا بعيدا عن جادة الصواب ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟!.

وهكذا اكتمل عرضنا لفكره — فكر [الجماعة الاسلامية] بالهند وباكستان — الذى مثل مجابهة هذه الفصيلة من فصائل « الصحوة الاسلامية » « للتحدى الحضارى » ، الذى فرض على الاسلام والمسلمين ، بشقيه : « التخلف الموروث » — أو « الجاهلية القديمة » ، بتعبير المودودى .. و« التقدم الأوربى التغريبى الوافد » — أو « الجاهلية الحديثة » ، كما سماها الرجل أيضا ....

أداة البعث :

ولإنجاز هذه المهمة الحضارية التاريخية .. مهمة « البعث الإسلامى الجديد » ، الذى يخلص الاسلام من « الجاهلية » ويعيد « المجتمع » إلى الاسلام ، الذى « ارتد » عنه ، ثم

الانطلاق بالإسلام إلى كل أرجاء الأرض لتحطيم الطواغيت والحكومات التى تحول بين شعوبها وبين النظر الحر والاختيار ــ المتخلص من الضغوط ــ فى دين الله ... لإنجاز هذه المهمة ــ التى حددها الأستاذ المودودى لدعوته ــ كان لابد للرجل وأن يفكر فى « الأداة » القادرة على إنجاز هذا الهدف الخطير والعظيم ...

لقد رأى أنه أمام « جاهلية » ، كما كان الاسلام يواجه الجاهلية عندما أوحى به الله إلى محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ... ولقد بدأ الرسول مواجهة الجاهلية بتكوين الجماعة المؤمنة ، التى تجسدت فيها العقيدة الجديدة ، حتى أصبح الفكر حركة تسعى لمحو الشرك والجاهلية لتقيم بناء الدين الجديد ، مجتمعا تتجسد فيه العقيدة الجديدة .. فكان سعى الأستاذ المودودى ــ ونموذج الاسلام الأول والمسلمين الأوائل ماثل فى ذهنه ــ كان سعيه ، منذ أن بلور فكره السياسى ، بين [١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م] و[١٣٦٠هـ ــ ١٩٤١م] ، لتكوين [الجماعة الإسلامية] بين المسلمين الهنود ...

لقد كتب المودودى عن « النموذج » النبوى الذى استرشد به ، فى إقامة أداة البعث : التنظيم .. فقال : « **علينا أن ندرس الأسلوب التنظيمى لرسول الله ، ﷺ ، فلو شئنا أن يكون للأمة الإسلامية تنظيم سليم فليكن على نفس النهج المحمدى . أقام الرسول ، ﷺ ، المجتمع الاسلامى على أساس انتقائه أولا لأولئك الناس الذين يتسمون ــ بطبيعتهم وفطرتهم ــ بالصدق الخالص ، ويميلون بطبعهم إلى الحياة الطاهرة . ثم قام باستخدام أحسن وسائل التعليم والتربية ، فأصلحهم فردا فردا ، ووضع فى قلب كل فرد هدفا ساميا فى الحياة ، وجعل من شخصية كل فرد شخصية قوية متينة حتى التف هؤلاء الأفراد وتجمعوا حول هذا الهدف السامى ، ولم يعد هناك خوف من أية قوة مهما كانت ، ولم يعد الطمع فى أية فائدة أو الخوف من أى ضرر بقادر على أن يزحزحهم عن هذا الهدف !..** »[١٠٠].

هكذا تكونت كتيبة السابقين إلى الاسلام ... وعلى هذا النحو سعى المودودى إلى تكوين الطليعة الساعية للبعث الاسلامى الجديد ..

كان المطلوب : « كتيبة مناضلة » تسعى لتحقيق : الانقلاب الاسلامى ، وبالثورة القادرة على مواجهة التحدى ، فى كل ميادينه ... ولم يكن المطلوب مجرد « حلقة إسلامية » تلتف حول « مجتهد جديد » ؟!.. **فالمودودى قد أبدع فى دراسته لتطور التجديد الاسلامى فى كتابه [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] الذى كتبه [سنة ١٣٥٩هـ سنة ١٩٤٠م] إحياء لذكرى المجدد الهندى ولى الله الدهلوى [١١١٠ - ١١٧٦هـ**

(١٠٠) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ٦٨ .

١٦٩٩ - ١٧٦٢ م] .. وفى هذا الكتاب قيم إيجابيات المجددين ، وألقى الضوء على جوانب القصور فى حركاتهم التجديدية ، فكانت أبرز نواحى هذا القصور — فى رأيه — أن الجهد الفكرى التجديدى لم يتحول إلى « حركة سياسية ، تحدث الانقلاب فى نظام الحكم ، وتنتقل مقاليد الحكم بواسطتها من أيدى الجاهلية إلى أيدى الاسلام ؟!.. »(١٠١)... ولقد وقف أمام تجديد ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] فرآه أعظم من الذين سبقوه ، بمن فيهم الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] — فلقد شابت تجديدات الغزالى شوائب من جاهلية عصره — كالتصوف والفلسفة — إلى جانب ضعفه فى « علم الحديث » .. أما ابن تيمية ، فكان تجديده تخليصا للإسلام من الجاهلية كى يعود خالصا من جديد .. فهو :

« **أولا** : قد انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقادا أشد وأدق مما فعله الغزالى ..

وثانيا : أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الاسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الغزالى سوغانا إلى العقل وأحوى منها لروح الاسلام ..

وثالثا : لم يجتزىء برفع النكير على التقليد الجامد فحسب ، بل ضرب المثال بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى ..

ورابعا : جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادا عنيفا ، ولاقى فى سبيل ذلك أعظم المصائب !.. »(١٠٢)

وهذا الاعجاب الذى منحه المودودى لاجتهاد ابن تيمية وتجديده ، يلقى الضوء على النموذج الذى كان يفكر فيه ويسعى هو إليه .. خصوصا إذا علمنا أنه قد كتب كتابه الذى عرض فيه لقضية التجديد هذه وهو يسعى لتكوين [الجماعة الاسلامية] ، فى الوقت الذى بلور فيه معالم فكره السياسى الذى رآه السبيل لتجديد دنيا المسلمين عن طريق تجديد دينهم ... فلقد أراد :

- تجديدا ، يتجاوز « الفكر » إلى « النضال » ، لوضع هذا « الفكر » فى « التطبيق » ...
- تجديدا لا يهادن الجاهلية ولا يسالمها .. ولا يأتى بخلط جديد بين الاسلام والجاهلية الغربية الحديثة .. بل يسعى إلى « تنقية الاسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية .. وإلى العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الامكان » ..

---

(١٠١) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٧٩ .

(١٠٢) المرجع السابق . ص ٧٦ - ٧٨ .

- تجديدا يحيى ويبعث « العقلية الاسلامية » — كنمط فى التفكير والنظر للكون والمجتمع — من جديد ..
- تجديدا يتجاوز علوم الدين إلى شئون الدنيا وعلومها وفنونها .. باستخلاص كليات الدين ، والنظر إلى مستحدثات العصر فى إطارها وضوئها .. وإعادة النظر فى ملامح التمدن الاسلامى القديم ، لتكتمل للمجتمع المسلم أدوات الرق ، بالشريعة المتطورة الراقية .. « **فالاجتهاد فى الدين يعنى : أن يفهم المجدد كليات الدين ، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرق العمرانى فى عصره ، ويرسم طريقا لإدخال التغيير والتعديل على صورة التمدن القديم المتوارثة ، يضمن للشريعة روحها وتحقيق مقاصدها ، ويمكن الاسلام من الامامة العالمية فى رق المدنية الصحيح** ... »
- ثم الانطلاق بهذه « الثورة الثقافية الاسلامية » ، بواسطة « الجهاد الاسلامى » ، من « القطر الواحد » .. إلى « الأقطار الاسلامية » .. إلى العالم كله .. « ليتولى الإسلام إمامة العالم ورئاسته فى الأخلاق والأفكار والسياسة !.. »[١٠٣]

وتلك مهام لا يستطيع النهوض بها أو الوفاء بمتطلباتها مجتهد تقف جهوده عند حلقة علمية .. أو كاتبٌ يقف إجتهاده عند التأليف والنشر لاجتهاداته على الناس : فالمطلوب هو : **تجديد يخلص الاسلام من الجاهلية القديمة .. وإجتهاد يبدع للحاضر والمستقبل على هدى من الكتاب والسنة « دون تقيد بمآثر أحد بعينه من المجتهدين الماضين ، أو انحصار فى طريقه ومناهجه دون غيره » ، ودون رفض لكل مآثر الماضين ومناهجهم[١٠٤] ... ثم تجسيد هذا الاسلام الخالص فى « تنظيم » ، ليتحول « بنضال » هذا « التنظيم » إلى مجتمع إسلامى جديد ، نبنيه على أنقاض المجتمعات « الجاهلية — المرتدة » المعاصرة !..**

فـ [الجماعة الاسلامية] — وليس المجتهد الفرد .. ولا الأفراد الذين ينقصهم التنظيم — هى السبيل الوحيد لحمل هذه الأمانة الكبرى ... بل لقد رآها المودودى : السبيل لتحقيق فكرة خلافة الانسان عن الله فى الأرض ؟!.. « لأن نظام الاستخلاف فى الأرض لا يمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين فى الدنيا ، ولو كانوا فى ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى ، بل ومن أنبيائه ورسله . إن الله لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين ، وإنما قطعها لجماعة بنسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام ، قد أثبتت نفسها — فعلا — أمة وسطا ، أو خير أمة فى الأرض ... إن نظام الإمامة لن يحدث فيه أى تغيير ولا انقلاب .. إلا بكفاح ونضال هذه

(١٠٣) المرجع السابق . ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢١ .

(١٠٤) المرجع السابق . ص ١٢٢ .

الفئة المؤلفة ـــ وتضحياتها ـــ ضد كل قوى الكفر والفسق .. فى كل حلبة من حلبات الحياة .. نضالا يثبت جدارتها بالاضطلاع بأعباء الإمامة فى الأرض ... ذلك شرط لم يستثن منه حتى الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام . فأنى لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه ؟!.. »(١٠٥)

وهذه [الجماعة الاسلامية] ، التى تقدمت تحمل أمانة تخليص الاسلام من الجاهلية ، والسعى ، بالنضال ، لإحلاله محل الفكر الجاهلى ونظمه الجاهلية .. عليها أن تحذر « التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية »(١٠٦) !... بل إن عليها أن تتحدى المجتمع الجاهلى ، فتتميز عنه ، وتستعلى عليه ، وتتصدى له .. ولو كلفها ذلك روابط تقطعها ، ومصالح تضحى بها ، وتضحيات وآلام تتحملها ، بل وتسعى إليها !.. إنها « الحرب » .. يدعو المودودى أعضاء الجماعة إلى خوضها ، فيقول : « عليكم أن تدخلوا فى حرب مع أهل بيوتكم وأقربائكم وأصدقائكم وبيئتكم التى ترتبطون بها ، لا بمعنى أن تصارعوهم أو تسابوهم أو تناظروهم ، وإنما بمعنى أن تكونوا ـــ على انفرادكم وفى حياتكم الجماعية ـــ بالغين من ولوعكم بغايتكم والتزامكم بمبادئكم وضوابطكم حيث لا يصبر على حياتكم ، المتقيدة بالمبدأ ، الذين يقضون حياتهم فى الدنيا بدون ما غاية ولا هم كالبهائم !. ويقوم أزواجكم وأولادكم وآباؤكم وأمهاتكم وأقرباؤكم وأصدقاؤكم احتجاجا على سلوككم ، حتى تصبحوا كالأجانب بين ذويكم وفى دياركم ، وتكونوا كالقذى فى عين الناس ، أو كالغصة فى حلقهم حيث تعملون لكسب معاشكم ، ويعود كرسى المكتب ، الذى يحلم الناس بالتربع عليه ، والترقيات والمناصب والجاه ، كالموقد الملىء جمرا بالنسبة لكم !.. **يجب أن تبادروا إلى الحرب مع كل واحد من الناس على قدر قربه منكم .. »(١٠٧)**

فالأمر عظيم .. والتغيير المبتغى جذرى وشامل .. والخصم متحكم ، وقوى ، وعنيد .. وهو يواجه الاسلام والمسلمين من الداخل ومن الخارج ... فلابد من هذه [الجماعة الاسلامية] المناضلة .. ولابد لهذه الجماعة من « الأمير » المطاع ؟!....

فطاعة « الأمير » ـــ حاليا ـــ كطاعة الرسول ، ﷺ ، فى صحابته وفى الجماعة الاسلامية الأولى .. لأن الأمير يأتى بعد الرسول .. والله سبحانه وتعالى قد طلب إلى المؤمنين أن يقدموا طاعة الرسول على مصالحهم وآرائهم وشئونهم الخاصة ، عند التعارض ﴿ إنما

---

(١٠٥) [الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية] ص ٤٠ .

(١٠٦) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤٣ .

(١٠٧) [تذكرة دعاة الاسلام] ص ٣٤ ، ٣٥ . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .

المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ﴾(١٠٨) ... « **أى أن الرسول ـــ وأمير الجماعة بعد الرسول ـــ له أن يأذن أو لا يأذن ، حتى بعد بيانكم له حاجتكم . فإن رأى الرسول ـــ أو الأمير بعده ـــ أن الحاجة الاجتماعية أشد وأهم من حاجتكم الفردية ، فمن حقه أن لا يأذن لكم ، وليس لكم إذن أن تشكوه أو تسيئوا به الظن !.. »**(١٠٩) .. « **ذلك أن طاعة عامة أفراد الجماعة لأميرهم ، فى المعروف ـــ من الوجهة الدينية الخالصة ـــ جزء من طاعتهم لله ورسوله** ... فعلى عضو الجماعة أن يكون مبادرا إلى السمع والطاعة لأميره ـــ فيما هو مشروع ـــ على قدر ما يكون على اتصال بالله ورسوله ، وسيكون تقصيره فى السمع والطاعة لأميره على قدر ما يكون مقصرا فى اتصاله بالله ورسوله !.. »(١١٠)

وهذه [الجماعة الاسلامية] المناضلة ، تحت إمرة أميرها المطاع .. ليس مطلوبا منها ـــ قبل إحداث الانقلاب والقبض على زمام السلطة ـــ أن تقدم تفاصيل « برنامجها » المحدد لجزئيات البديل الذى تدعو إليه ... إنها تدعو الناس إلى الإسلام .. وتقدم « الملامح العامة » للبديل الاسلامى .. أما التفاصيل و« البرامج » فرهن بمواجهة المشكلات الواقعية ساعة التغيير ... فمكان « البرنامج » ليس « الأوراق » ، وإنما « الواقع » ، عندما تمتلك الجماعة مؤهلات تغييره ... « إن الناس عندما يطالبوننا بصياغة للعمل واضحة .. يحسبون أن موضع العمل هو القرطاس !.. مع أن العمل إنما يكون على الأرض .. إن غاية ما يمكن من العمل على وجه القرطاس ، هو أن نوضح ما فى النظام الحاضر من مفاسد ومضار وويلات ، ونثبت المعقولية والصحة فى المقترحات التى نقدمها .. على وجه يجعل الناس يتصورون ، بوجه عام : كيف يمكن القضاء تماما على مافى النظام القديم من المفاسد والمستقبحات ؟ وكيف يمكن تنفيذ المقترحات الجديدة مكانها ؟ .. أما الصورة الشاملة .. والمراحل الجزئية ، وحلول كل مرحلة .. فهى مما لا يمكن معرفته سلفا ، ولا الاجابة فيه بجواب قاطع .. »(١١١)

وإذا كانت هذه هى الأداة .. أداة « البعث الاسلامى الجديد » : الفئة المنتقاة المتخلقة بخلق « الاسلام المناضل » ، والمنتظمة فى [الجماعة الاسلامية] تحت قيادة أميرها المطاع ..

---

(١٠٨) النور : ٦٢ .

(١٠٩) [تفسير سورة النور] ص ٢٢٧ . طبعة القاهرة . توزيع دار المسلم ـــ بدون تاريخ ـــ .

(١١٠) [تذكرة دعاة الاسلام] ص ٧٣ .

(١١١) [الربا] ص ١٢١ ، ١٢٢ . تعريب . محمد عاصم الحداد . طبعة القاهرة ـــ دار الأنصار ـــ بدون تاريخ .

وهى الجماعة التى تأسست وانتخب المودودى أميرا لها فى [٣ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤١ م] .. فماذا عن « أسلوب » هذه الجماعة لتحقيق « البعث الاسلامى » ؟؟..

هل هو « الثورة » و« الانقلاب » ؟.. أم « الاصلاح » و« التغيير الإصلاحى » ؟؟

إن بعضا من دارسى دعوة المودودى ، يرون أن حديث المودودى عن « الانقلاب الاسلامى » — وله كتاب عنوانه [منهاج الانقلاب الاسلامى] — لا يعنى أنه كان « ثوريا » ، ولا حتى « انقلابيا » « بالمعنى الشائع ، أى الهيمنة على السلطة والعمل بوسائلها .. فاستخدامه لتعبير « الانقلاب » لم يكن موفقا ، والأجدر بالتعبير عن وسيلته مصطلح « التحول » .. فتركيزه إنما كان على التعليم والدعوة .. »(١١٢)

وبعض من رفاق المودودى ، الذين عملوا معه ، يذهبون هذا المذهب ، ويرون أنه كان « يرفض ما يسمى بالأساليب الثورية ، ويؤكد أنه من الممكن تحقيق البعث الاسلامى من خلال تكتيك آخر ... أكثر تعقلا وأكثر ترويا ، تتم فيه دراسة النظام السائد بهدف استكشاف ما هو بغيض فيه ، ومن ثم فهو يستحق التغيير ، وماهو صحى ، ومن ثم فهو يستحق الحفاظ عليه .. »(١١٣)

ورغم تقديرنا لوجهة النظر هذه ، فإننا نعتقد بأن المهمة التى نهض لها الأستاذ المودودى ، ماكان يمكن لواع بخطرها وخطر أعدائها — ولقد كان الرجل واعيا بذلك كل الوعى — أن يظن أو يتوهم إمكانية إنجازها بدون التغيير الجذرى والشامل ، أى الانقلاب .. وهو مالا سبيل إليه إلا « الثورة » !..

ثم إننا نميل إلى التمييز ، فى مراحل دعوة الأستاذ المودودى ، بين المرحلة المبكرة — والتى نعتقد أنه كان فيها داعيا للثورة — وبين المرحلة المتأخرة ، بعد قيام باكستان ، وهى التى مال فيها إلى الطريق الاصلاحى ، سبيلا للتغيير الشامل الذى لم يتخل عنه أبدا ...

ففى المرحلة الأولى .. مرحلة المواجهة مع الانجليز والهنادكة .. كان يدعو إلى « خلق

---

(١١٢) جمال البنا [الدعوات الاسلامية المعاصرة] ص ١٦٠ . طبعة القاهرة .

(١١٣) د . خورشيد أحمد [نموذج المودودى للبعث الاسلامى] دراسة بمجلة [المسلم المعاصر] ص ١٢ . عدد ٣١ — رجب — شعبان — رمضان سنة ١٤٠٢ هـ .

العقلية الثورية والفكر الثورى » ، وإن يكن بالتدريج ! .. ويقول : إنه « من الواجب مراعاة التدرج من أجل خلق العقلية الثورية والفكر الثورى . إن تقديم الغذاء الزائد عن الحد يحمل الضرر للناس ، كما أن إعطاء الانسان غذاء أقل من حاجته يحمل أيضا نتائج سيئة .. »(١١٤)

وفى تلك المرحلة لم يكن يخفى عدم جدوى « التدابير القانونية » فى الاصلاح .. إذ لابد من « الأسلوب الثورى » ... « إنه لا وسيلة أمامنا سوى اتباع الأسلوب الثورى ، وذلك نتيجة لما وصلت إليه الظروف ... ولا مجال الآن لنجاح التدابير القانونية ... فليس أمامنا الآن سوى التضحية بالروح والمال لتغيير مسار الأحداث ... وطالما لا يمكن أن نوضح بسلوكنا وعملنا أن المسلمين لديهم القوة والشجاعة لأن يموتوا من أجل حياتهم القومية ، فلن تتغير أية كلمة فى الدستور عن مكانها ، ولن تتراجع سيطرة الدولة القومية الجمهورية [الديمقراطية] العلمانية علينا ... فلو أراد المسلمون الحياة ، فيجب أن يكونوا — وخاصة الشباب منهم — على استعداد لتقديم دمائهم الزكية رخيصة فى سبيل الحياة !.. »(١١٥)

وعندما عرض المودودى — فى تلك الفترة — لموقف الاسلام من « مشروعية الثورة » على أولى الأمر من الحكام ، نهج « نهجا ثوريا » فى تفسيره للأحاديث النبوية التى رويت فى هذا الموضوع ..

ففى [صحيح مسلم] عن الرسول ، ﷺ : « يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون ، فمن أنكر فقد برىء ، ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع ؟ »

فقالوا — [أى الصحابة] — : « أفلا نقاتلهم ؟! »

فقال ﷺ : « لا ، ما صلوا » !..

وفى [صحيح مسلم ، أيضا ، قول الرسول ، ﷺ : « شرار أئمتكم : الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » .. قلنا — [أى الصحابة] — : « يارسول الله ، أفلا ننابذهم عن ذلك ؟!.. قال : لا ، ماأقاموا الصلاة .. لا ، ماأقاموا الصلاة » !..

فلما عرض المودودى لتفسير هذين الحديثين قال : « .. وقد يظن من الحديث الأخير أو ما قبله أن ولى الأمر إذا أدى الصلاة فى حياته الفردية الخاصة فلا تجوز الثورة عليه ، لكن المراد بإقامة الصلاة فى الحقيقة هو إقامة نظام الصلاة فى حياة المسلمين الجماعية ، فلا يكفى أولوا الأمر أن يكونوا مصلين ، وإنما يتحتم عليهم ، إلى جانب هذا ، أن ينظموا إقامة

---

(١١٤) [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ص ١٤ .

(١١٥) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

الصلاة ، ويجعلونها قاعدة فى نظام حكمهم ، لأنها الدليل على أن حكومتهم حكومة إسلامية ، وإلا فقد انحرفت عن قالب الحكومة الاسلامية . وهذا ما يتضح من رواية أخرى تقول : إن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، قد عاهدنا ـــ من جملة ما عاهدنا به ـــ أن لا ننازع الأمر أهله .. .. « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان[١١٦].. »[١١٧]

ثم .. هل يتصور لفكر ولرجل يرى أن المجتمع قد ارتد عن الاسلام الحقيقى ، وعاد إلى الجاهلية .. وهو يسعى لمجابهة الكفر والجاهلية ، إلا أن يكون ثوريا ؟!.. وهل بالاستطاعة تخيل اعتقاد المودودى بإمكانية اقتلاع الجاهلية التى تعشش فى المجتمع منذ عهد عثمان بن عفان ، والتى زادتها جاهلية الحضارة الغربية دعما وخطرا .. إمكانية اقتلاعها « من خلال تكتيك غير ثورى » ؟!..

صحيح أن المودودى قد تحدث فى كتابات كثيرة عن أن « **التغيير ليس له من سبيل ، فى نظام ديمقراطى ، إلا الخوض فى معارك الانتخابات . وذلك بأن نربى الرأى العام فى البلاد ونغير مقياس الناس فى انتخابهم لممثليهم ، ونصلح طرق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم إلى رجال صالحين يحبون أن ينهضوا بنظام البلاد على أسس الإسلام الخالص** .. »[١١٨]

لكن هذه الكتابات هى فكر المودودى فى مرحلة ما بعد قيام باكستان .. المرحلة التى استقلت فيها القومية الاسلامية ، ولم يعد المسلمون فيها أقلية تخشى السيطرة الساحقة للأغلبية الهندوكية .. أما فى المرحلة الأولى ، فلم يكن الانتخاب ولا السبيل الديمقراطى هو طريق المودودى للتغيير ، لأنه كان رافضا للديمقراطية ، بسبب من خطر تكريسها سيطرة الهندوك المهددة لقومية المسلمين بالتشوه والذبول والزوال ... فعندما لم تعد الديمقراطية خطرا على المقومات القومية للمسلمين نهج المودودى نهجا ديمقراطيا إلى التغيير .. أما فى المرحلة الأولى فلقد كان ثوريا !..

ومن الكتابات التى تعكس النهج الاصلاحى ، الذى تحول إليه المودودى ، فى مرحلته الأخيرة ، وتصور هذا « المزاج غير الثورى » ، تلك الرسالة التى كتبها أثناء سجنه بالسجن المركزى الجديد بملتان ، إلى السيد تشودهرى غلام ـــ [فى رجب سنة ١٣٦٩هـ ٦ إبريل سنة ١٩٥٠] ـــ والتى يقول فيها :

(١١٦) رواه البخارى ومسلم .

(١١٧) [الحكومة الاسلامية] ص ٧٥ ، ٧٦ .

(١١٨) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٨٨ .

« **إن « مزاج » الإسلام يختلف عن أمزجة الحركات الثورية فى العصر الحاضر ...**
فالاسلام حين يصل إلى مرحلة النجاح (أى الحكم) فإنه يتبع سياسة العفو بدلا من الانتقام والعنف والشدة والقهر والغدر الذى تتبعها الحركات الثورية المعاصرة ... وسياسة الاسلام فى سبيل تغيير النظام الفاسد السابق ، وإحلال **برنامج اصلاحى** بدلا منه ، هى سياسة تتصف **باللیونة والهدوء والتدرج وعدم العنف** ، وإنقاذ الحياة الانسانية ، بقدر الامكان ، من التغييرات المفاجئة والطارئة ... لكن ، ليس معنى هذا الامتناع عن رفع المظالم الصريحة الثابتة التى تسود نظامنا الاقتصادى والاجتماعى ... »[119]

لقد كان قيام الوطن المستقل لمسلمى الهند ــ باكستان ــ حدثا جللا فى حياة المودودى .. تخيل به أن « الحلم » قد أصبح « واقعا » !.. فبدأ مرحلة الحنو على هذا « الحلم ــ الوليد » .. ولقد كان يسميها : « بيت الاسلام ! » .. وكتب عنها يقول :« **إننى لا أعتبر هذه البلاد بلادنا ، بل هى بيت الاسلام . لقد واتتنا الفرصة لأول مرة ، بعد قرون لنقيم دين الله فى صورته الحقيقية ، ونقدم للعالم أجمع المثال العملى لفلاح هذا الدين ونجاحه . إنها نعمة كبيرة أنعم الله بها علينا ، ويجب علينا أن نصونها ونحافظ عليها بشتى الطرق وبأى ثمن . إننى أتمنى أن يشعر كل باكستانى بعاطفة تجاه هذه النعمة ، وأن يقدرها حق قدرها ، وأن يحفظها فى قلبه وروحه ، وأن يشعر أنه لا توجد أية تضحية أعظم وأغلى من الحفاظ على هذه النعمة .**

وعليك أن تتذكر دائما أن تقديم الروح رخيصة من أجل الحفاظ على دين الله أعلى مرتبة وأعظم من تقديم الروح من أجل الحفاظ على الثروة أو العزة أو الكرامة ، وأن الاستشهاد تحت هذه العاطفة استشهاد له أعلى الدرجات عند رب العالمين !.. »[120]

* * *

لكن الرياح لم تجر فى باكستان بما أراد الذين حلموا بها ، وناضلوا حتى أصبح الحلم « حقيقة جغرافية » !...

لقد قامت باكستان فى ١١ شوال سنة ١٣٦٦ هـ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٧ م ... وبعد عام من ذلك التاريخ اعتقلت حكومتها المودودى ــ [فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٨م ــ ذو القعدة سنة ١٣٦٧ هـ] ــ .. ولم يكن الرجل قد اعتقل من قبل ، لا من قبل الهنادكة ولا من قبل الانجليز ؟! .. لقد قامت « باكستان الوطن » ، لكن الشريعة الاسلامية ، فيها ،

ظلت مطلبا يناضل من أجله المودودى وجماعته الاسلامية .. واستمر نضال الرجل ، وتكرر سجنه واعتقاله نحو خمس مرات ، قضى خلالها بالسجن قرابة الخمس سنوات ، حكم عليه فى إحداها بالاعدام ؟! ...

لكن نضاله من أجل باكستان : « بيت الاسلام » .. ومن أجل « البعث الاسلامى » العالمى ، استمر دون كلل أو هوادة أو لين ... وحتى عندما اعتلت صحته ، فاستعفى من إمارة [الجماعة الاسلامية] ـــ [فى رمضان سنة ١٣٩٢ هـ أول نوفمبر سنة ١٩٧٢م] ـــ عكف على استكمال مؤلفاته ، التى بلغت سبعين كتابا ورسالة ... فأكمل تفسيره للقرآن الكريم .. وشرع فى كتابة سيرة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فأكمل منها مجلدين ، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه فى آخر شوال سنة ١٣٩٩ هـ ـــ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٧٩ م ـــ . عليه رحمة الله .

الفصل الخامس

تيار
الرفض الكامل للواقع



فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٦٨ هـ [١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م] استشهد الإمام حسن البنا ، المرشد العام لجماعة [الاخوان المسلمين] أبرز وأخطر وأوسع دعوات البعث الاسلامى الحديث وحركاته فى القرن الرابع عشر الهجرى ــ العشرين الميلادى ــ .. استشهد برصاص خصومه السياسيين : أحزاب الأقليات ، أعوان القصر الملكى ، وحلفاء الاستعمار .. وكان استشهاده فى وضح النهار ، وفى واحد من أكثر شوارع القاهرة أهمية وحركة ؟!..

وكان العام الذى سبق اغتيال المرشد العام قد شهد عددا من حوادث العنف ، التى قامت بها « كتائب الإخوان » .. وتصاعد الصراع مع الحكومة ، فبلغ الذروة بقرار الحكومة حل الجماعة فى ٦ صفر سنة ١٣٦٨ هـ ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م .. فأعقبه ــ بعد عشرين يوما ــ اغتيال الإخوان لرئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا [١٣٠٥ ــ ١٣٦٨هـ ١٨٨٨ ــ ١٩٤٨ م] فتصاعدت حملة القمع ضد [الاخوان] اعتقالا وسجنا وتعذيبا ...

فكانت المحنة الكبرى ــ الأولى ــ لجماعة [الاخوان المسلمين] !.. التى تمثلت « ذروتها الحقيقية » فى اغتيال المرشد العام .. ومنذ ذلك التاريخ دخلت دعوة [الاخوان] وحركتها فى منعطف تاريخى جديد .. صحيح أن محنة الاعتقال والسجن والتعذيب قد انتهت بعودة [الوفد] ــ حزب الأغلبية ــ إلى الحكم فى ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٦٩ هـ ١٢ يناير سنة ١٩٥٠ م .. لكن « المحنة الحقيقية » قد استمرت .. محنة فقد الجماعة لإمامها الملهم ، وقيادتها التاريخية ، ومرشدها العام !..

لقد كانت إحدى سلبيات هذه الجماعة هى ذلك الفارق الكبير والمسافة الطويلة والمساحة الكبيرة بين القائد المرشد ــ وعيا ووضوح رؤية ، ومرونة حركة ، واتساع أفق ، وإدراكا لعظم الغاية ، ومن ثم الاصرار على « سياسة المراحل » ، الرافضة للتعجل والعجلة ــ

وبين رجالات « الصف الثانى » فى الجماعة ــ دعك ممن خلف هذا الصف الثانى ؟! ــ .. فلما افتقدت الجماعة « الربان » ــ والسفينة تكتنفها العواصف ، وتحيط بها ظلمات بعضها فوق بعض فى بحر لُجِّى ـ فقدت مع « المرشد » كثيرا من « الرشد » الذى تمثل فيه ؟!.. فدخلت بذلك الحدث المأساوى فى منعطف جديد !..

وعندما كان شباب الجماعة يعذبون فى السجون والمعتقلات [سنة ١٣٦٨ هـ سنة ١٩٤٩ م] ، ظهرت فى فكر بعض هؤلاء الشباب ــ والطلاب منهم خاصة ــ ولأول مرة فى تاريخ الاسلاميين بمصر ــ أفكار تتساءل عن « إسلام » المجتمع ؟! وعن « إسلام » الأمة ؟!

إن الحكومة تعذبهم ، كما كان المشركون يعذبون الذين سبقوا إلى الاسلام !.. وليس لهم من ذنب إلا الدعوة إلى الاسلام ، دينا ودنيا ، عبادة وشريعة ، مصحفا وسيفا .. ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[1] !... أما الأمة فلقد اتسم موقفها بالسلبية إزاء محنة الاسلاميين هذه ، للأحكام العرفية المعلنة منذ ٤ رجب سنة ١٣٦٧ هـ ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ م .. ولأن هذه الأمة لا تميل ، بالطبع ، إلى العنف والارهاب حتى لقد صنعت أعظم ثوراتها بيضاء ، ولم تستسغ العنف والدم إلا فى صراعها مع الغزاة ؟!..

فتحت وطأة « المحنة » التى تمارسها « الدولة » .. وأمام سلبية « الأمة » .. تساءل نفر من شباب [الإخوان] ــ وطلابها خاصة ــ :

- هل المسلمون هم : « جماعة المسلمين » ؟!..
- أم المسلمون هم : « جماعة الاخوان المسلمين » ؟!..

وكان هذا التساؤل ، الذى يطرح قضية « التكفير » وعودة المجتمع إلى « الجاهلية » ، جديدا ، بل وغريبا على مصر وعلى الفكر الاسلامى بها ... لكنه كان مطروقا ومتداولا ، بواسطة الاستاذ أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ ــ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] وجماعته الاسلامية ، فى الهند ،منذ عشر سنوات ... ومنذ ذلك التاريخ ، الذى أعقب غياب الشيخ حسن البنا ، بدأ فكر المودودى يجد طريقه إلى صفوف نفر من [الإخوان] .. ولعل البداية الحقيقية قد كانت تلك التى يحدثنا عنها أحد الإخوان ، فيقول : « فى سنة ١٩٤٩ م أرسلت ، من زنزانتى رقم ٢٢ بسجن مصر ، خطابا إلى حلب ، طالبا من مكتبة الشباب المسلم مجموعة كاملة من رسائل أبو الأعلى المودودى ، لأقدم من خلالها دراسة عن فكر المودودى ، **لأوقف عبث بعض الطلبة حينذاك** . ووصلتنى ١٣ رسالة منها . **وقد علمنا**

---

(١) البروج : ٨ .

وتعلمنا أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها . والاسلام واحد من لدن عليم خبير !.. »[٢]

لقد ألقيت فى أرض الاسلاميين بمصر ، وللمرة الأولى « بذرة » أفكار « التكفير » و « الجاهلية » .. صحيح أن الأغلبية قد رأت ، بعد دراسة فكر المودودى ، بالسجن ، أن فكره فى هذه القضايا هو فكر سياسى ، يرتبط بظرف المجتمع الهندى ، ولا سبيل له ولامجال فى مصر وماماثلها .. فوحدة الاسلام الدين لاتنفى « أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها » ؟! ..

لكن « البذرة » ألقيت فى التربة ، محاولة النمو بفعل ظروف « المحنة » التى نزلت بالاخوان ! .

والذين يتتبعون حركة « تأثير فكر » الأستاذ المودودى ، خارج المناخ الهندى ، ودخوله إلى الساحة المصرية والعربية ، لا يجدون لهذا الفكر أثرا يذكر إلا بعد غياب قيادة الشيخ حسن البنا .. ففى ظل الافتقار إلى القيادة الفكرية التى تملأ الفراغ الناجم عن استشهاد المرشد العام ، خلت الساحة لفكر أبرز قادة العمل الاسلامى فى ذلك التاريخ : الاستاذ المودودى ! .. ومنذ ذلك التاريخ ذاعت ترجمة فكره للعربية ، ونشر عدد من رسائله فى القاهرة[٣]..

وبعد قيام الثورة المصرية فى أول ذى القعدة سنة ١٣٧١هـ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م انفتح باب العلاقة بين [الاخوان] والثورة ليفضى إلى « المحنة الثانية » ، والأكبر ، والتى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجماعة على الاطلاق ... لم تحسن قيادة الجماعة تقدير الظروف التى كانت تحيط بمصر وبالثورة ، وافتقدت « الرؤية التاريخية » التى كانت لحسن البنا .. ولم تبرأ من سلبية « العجلة والتعجل » ، التى طالما حذر منها المرشد العام الأول ... وكانت « للضباط الأحرار » الذين قادوا الثورة منطلقات فكرية ، ليست هى ، بالضبط ، منطلقات [الاخوان] ، ومن ثم كانت لهم توجهات ليس هى ، بالضبط ، توجهات [الاخوان] .. وكان الغرب والمتغربون من أحرص الناس على الصدام بين الثورة و[الاخوان] .. فبدأ الخلاف .. وتصاعد .. وحلت الجماعة فى ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ ١٤ يناير سنة ١٩٥٤ م .. فلما حدثت محاولة اغتيال قائد الثورة جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ ١٩١٨ - ١٩٧٠ م] بالاسكندرية فى ٢٨ة صفر سنة ١٣٧٤ هـ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤م دخل الاخوان المسلمون فى محنة من السجن والاعتقال والتعذيب لم يسبق لها، فى تاريخ الاسلاميين ، مثيل ...

ولقد بدأت « بذرة » فكر الأستاذ المودودى ، عن « تكفير » المجتمع و« جاهليته »

---

(٢) انظر : غلاف كتاب [أبو الأعلى المودودى . فكره ودعوته] كلمة الناشر : سعد سيد أحمد .

(٣) فى سنة ١٩٥٠ م طبعت فى القاهرة الترجمة العربية لكتابى المودودى [منهاج الانقلاب الاسلامى] و [نظرية الاسلام السياسية] وفى سنة ١٩٥٣ طبعت رسالته [تدوين الدستور الاسلامى] ..

ترتوى من دماء « المحنة » ، وتنمو فى مناخها ... واتسعت المساحة التى بدأت تعمر بفكر « الأزمة » المتوتر ، بدلا من « الفكر الطبيعى » !.. فتخلّق فى صفوف الجماعة ، من حول الأستاذ سيد قطب [١٣٢٤ ـــ ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ ـــ ١٩٦٦ م] ذلك التيار الجديد .. تيار [الفصام الكامل مع الواقع] ؟!.. الذى انطلق من فكر المودودى بل وتصاعد به أكثر وأكثر !..

● لقد رأى المودودى فى « القومية السياسية الهندية » ، ذات الأغلبية الهندوكية : الخطر الذى سيقضى بـ « ديمقراطية الأغلبية الهندوكية » على ذاتية الاسلام والتميز الحضارى للمسلمين .. فرأى فى هذه القومية ، وفى ديمقراطيتها ، وفى سلطة جماهيرها عدوانا على « الحاكمية الالهية » .. فهى ، إذن ، « شرك » ، « يرتد » بالمجتمع إلى « الجاهلية » !..

● ورأى سيد قطب فى « القومية العربية » ، التى قاد جمال عبد الناصر مدها ، وفى « ديمقراطيتها الموجهة » ، وفى سلطة الجماهير التى استقطبها المشروع « القومى ـــ الاجتماعى » الناصرى الخطر الساحق للاسلاميين المقيدين بالأصفاد !.. فحكم بعدوان هذا المشروع ، بكل مكوناته ، وجميع توجهاته على « الحاكمية الالهية » ، وقطع « بكفره » و« بجاهليته » ...

ولما كانت « جماهير » الأمة و« وعامتها » قد استقطبت للمشروع الناصرى ، وأعطت ثقتها لقيادة جمال عبد الناصر التاريخية .. فلقد خلعها فكر هذا التيار عن « عرش الخلافة » والنيابة ، التى قررها الاسلام للإنسان والأمة ، عن الله سبحانه وتعالى ، لأنها قد « أشركت » فى « الحاكمية » غير الله ، فلم تعد ـــ لارتدادها « بالكفر » إلى « الجاهلية » ـــ قائمة بحق الخلافة ، متمتعة بشرفها ... وهنا كان تصاعد سيد قطب بفكر المودودى .. فالثانى حكم « بالكفر » و« الجاهلية » على « المجتمع » ، ولم يحكم بهما ـــ صراحة وفى قطع ـــ على « الأمة » .. أما سيد قطب فلقد حكم « بالكفر » و« الجاهلية » على « الأمة » و« المجتمع » جميعا ؟!..

وبدلا من « خلافة » : « الجماعة : الأمة » ، قدم سيد قطب ، كبديل ، « خلافة » : « الجماعة : التنظيم » ، التى انفردت وتنفرد بالاسلام من دون الناس .. والتى عليها أن تبدأ من الصفر ، كما صنع الرسول عليه الصلاة والسلام ، و« جيل الصحابة الفريد » !..

إن « خلافة الأمة عن الله » ، لم تكن تمنع قيام « الجماعة ـــ الطليعة ـــ المنظمة » ، للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾[٤] .. ولكن هذه

(٤) آل عمران : ١٠٤ .

« الجماعة ــ الطليعة ــ المنظمة » كانت جزءا من « الأمة المسلمة » ، أما والأمة ــ فى فكر هذا التيار الجديد ــ قد « كفرت » وارتدت إلى « جاهلية أظلم » من الجاهلية التى عاصرها الاسلام الأول[٥] .. فلقد انعدم الرباط الايمانى الذى يصل هذه « الجماعة ــ الطليعة ــ المنظمة » بـ « الأمة » ... فغدا « التنظيم الجديد » ، وحده : الأمة المسلمة ، بالانفصال عن الجاهلية والاستعلاء على الكفار ، والسعى ــ من نقطة الصفر ــ إلى بناء « العقيدة » ، وتجسيدها « بالحركة » فى « الجماعة » ، التى عليها أن تقيم « المجتمع المسلم » ، وبنفس النهج والخطوات التى تمت فى « الحقبة المكية » من دعوة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، إلى الاسلام !..

ذلك هو « عنوان » الدعوة التى دعا إليها تيار [الفصام الكامل مع الواقع] ..

الحاكمية الإلهية :

لم يختلف موقف سيد قطب ــ فى الجوهر ــ عن موقف المودودى فى نظرية « الحاكمية » الالهية ، فهى بمقتضى « لا إله إلا الله ــ كما يدركها العربى العارف بمدلولات لغته ــ : لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله »[٦] ... والحاكمية الالهية عامة ، فى الجانب « الإرادى » من حياة الانسان ، كما هى فى الجانب « الفطرى » و« الوجودى » ، شاملة لماهو « دنيوى » شمولها لماهو « دينى » ، عامة فيماهو « سياسة » عمومها فيماهو « عبادة » ، وهى ، عند المسلم ، المعيار الموجه فى « التطبيق » وفى « المعرفة والفكر والنظريات » على حد سواء .. فكما أن الحاكمية هى السائدة فى « الكون » ، كذلك يجب أن تسود فى « عالم الانسان » .. فلقد « جاء الاسلام .. ليرد الناس إلى حاكمية الله ، كشأن الكون كله ، الذى يحتوى الناس ، فيجب أن تكون السلطة التى تنظم حياتهم هى السلطة التى تنظم وجوده ... »[٧] ويجب « أن تعود حياة البشر ، بجملتها ، إلى الله ، لا يقضون هم فى أى شأن من شئونها ، ولا فى أى جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .. »[٨]

وحاكمية الله تتمثل فى « شريعته » ، التى « تعنى كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية ..

---

(٥) سيد قطب [معالم فى الطريق] ص ٢١ . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠ م .

(٦) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(٧) المرجع السابق . ص ٥٣ .

(٨) المرجع السابق . ص ٥٥ .

وهذا يتمثل فى : أصول الاعتقاد ، وأصول الحكم ، وأصول الأخلاق ، وأصول السلوك ، وأصول المعرفة أيضا .. »[9] ... فعموم « الشريعة » يبلغ الحد الذى يجعلها ـــ فى نص سيد قطب هذا ـــ شاملة « للعقيدة » أيضا ؟!..

وليس بمستساغ الخروج على « الشرع » ـــ أى « الحاكمية » ـــ بدعوى التعارض بين « الشرع » وبين « مصلحة البشر » .. « فمصلحة البشر مُتَضَمَّنَة » فى شرع الله ... فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم فى مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم :أولا : « واهمون » ... وهم ـــ ثانيا ـ: « كافرون » .. فما يدعى أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين !.. »[10]

وإذا كان غير المؤمن بحاجة إلى أن نظهر له محاسن الشرع وحسناته ، فإن المؤمن لا حاجة له إلى شيء من ذلك .. فقبول الشرع هو « الاسلام » « ومن رغب فى الاسلام فقد فصل فى القضية ، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته .. فهذه إحدى بديهيات الايمان !.. »[11]

وعودة البشر إلى « الحاكمية الالهية » تعنى العودة إلى العقيدة ، التى تتجسد فى المجتمع ، الذى هو « دار الاسلام » .. وفى ذلك الرفض لرموز « الشرك » والخروج على « الحاكمية » من دعوات « قومية » و« وطنية » و« اجتماعية » .. الخ[12]..

لكن اختصاص الله بالحاكمية ، وشمول شرعه لكل أصول الفكر ، وتضمنه لجميع المصالح ، لا ينفى حق البشر فى « الاجتهاد » ـــ بشروطه وفى ظل سيادة الحاكمية ـــ فيما لا نص فيه .. « فإذا كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص ، فهنا يجيء دور الاجتهاد ـــ وفق أصوله المقررة فى منهج الله ذاته ، لا وفق الأهواء والرغبات ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[13] .. وليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه ، لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله ... »[14]

---

(٩) المرجع السابق . ص ١٣٦ .

(١٠) المرجع السابق . ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١١) المرجع السابق . ص ٤٢ .

(١٢) المرجع السابق . ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(١٣) النساء : ٥٩ .

(١٤) [معالم فى الطريق] . ص ١٠٥ .

وكذلك .. فإن « الحاكمية الالهية » لا تعنى أن « الاجتهاد » هو مهمة فئة أو طبقة تماثل [الأكليروس] فى المسيحية ، و« الثيوقراطية » و« الحكم المقدس » فى الحضارة الأوربية ، قبل عصر نهضتها .. « فالسلطة الدينية » فى الاسلام هى « للنص الالهى » ، لا « للإنسان » !.. **فالتشريع بالاجتهاد « لا يمكن أن يكون لمن يدعى سلطانا باسم الله ، كالذى عرفته أوربا ذات يوم باسم : « الثيوقراطية » أو « الحكم المقدس » ، فليس شيء من هذا فى الاسلام ، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ، ﷺ ، وإنما هناك نصوص معينة هى التى تحدد ما شرع الله ...[15] ومملكة الله فى الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال بأعيانهم ــ هم رجال الدين ــ كما كان الأمر فى السلطة الكنسية ... ولكن تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمة ... »[16]**

ذلك هو مفهوم سيد قطب « للحاكمية الالهية » : العبودية لله وحده ، والتحرر من كل سلطة سوى السلطة الالهية ، كما تحددت فى « الشريعة » الشاملة لكل مناحى الحياة .. وحيث لا نص فى الشريعة فالاجتهاد وارد ، لكن مشروعيته مرهونة بسيادة نظرية الحاكمية وهيمنتها .. وهو حق لمن يفى بشروطه ، ولا يكسب صاحبه قداسة تدخلنا فى إطار « الثيوقراطية الكنسية » !..

- ومفهوم « الحاكمية » هذا قد تابع فيه سيد قطب أثر المودودى .. وإن يكن ــ رغم اشارته للاجتهاد ــ قد أهمل ما ذكره المودودى من وجود « **حاكمية بشرية مقيدة** » فيما لا نص فيه ، وهو المجال الأوسع فى مساحة الشريعة ــ لتناهى النصوص وعدم تناهى الحادثات ــ ولوقوف الشريعة عند الكليات ، مع ضرب الأمثلة لنماذج التطبيق ، وترك الجزئيات والتفاصيل للاجتهاد ، وفق تغير المصالح بتغير الزمان والمكان ــ أهمل سيد قطب الحديث عن هذا الجانب الذى « يزن » صورة « الحاكمية » عندما يستكمل ملامح صورتها ! ــ وإن كنا لا نعتقد أن الاستاذ سيد قطب كان ممن يمارى فى هذه البديهة الاسلامية ــ لكنه ركز أضواءه على جانب نزع السلطة من غير الله .. ربما لاعتقاده أن الظرف الذى كتب فيه قد مالت فيه الموازين ميلا شديدا ، حتى لقد انفرد الطواغيت بالسلطة والسلطان جميعا من دون الله ؟!..

لكن القضية التى نقلت سيد قطب خطوات أبعد مما بلغ المودودى بنظرية الحاكمية ــ وهى وثيقة الصلة ــ بملاحظتنا الأخيرة ــ هى تشخيصه للإسلام و« المسلمين » فى عصره ، بل وفيما قبل عصره بقرون ..

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

لقد كان حسن البنا يتحدث عن مصر التى « اندمجت بكليتها فى الاسلام بكليته .. عقيدته ولغته وحضارته .. فمظاهر الاسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب حياتها .. أسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء .. وهذه المشاعر لا تهتز لشىء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالاسلام ... »

وكانت دعوته متوجهة إلى تخليص هذا الاسلام مما شابه من موروث أضاف أو انتقص من الاسلام ، بالابتداع ، أو وافد غربى سعى ويسعى لاقتلاع الاسلام من حياة الأمة ، فأحدث بوجوده ثنائية فى الفكر والسلوك[١٧]..

وكان المودودى ــ رغم ريادته ــ فى العصر الحديث ــ الحديث عن « الحاكمية » و« التكفير » و« الجاهلية » ــ قد وقف عند القول « بارتداد » المجتمع ، دون « الأمة » ، ولذلك كانت « الديمقراطية » الانتخابات سبلا ، عنده ، للاصلاح المنشود .. فالأمة لم تكفر فى نظره ، ومن ثم والاحتكام إليها سبيل لتخليص الاسلام من « الجاهلية » الموروثة ومن جاهلية التغريب[١٨]...

أما سيد قطب فلقد شخص حال الأمة فرآها قد دانت بحاكمية غير الله .. لا بمعنى أنها ركعت وسجدت لغير الله ، ولكن لأنها تلقت عن حاكمية الطواغيت « كل مقومات حياتها تقريبا » ؟! ومادامت قد أخذت « كل مقومات حياتها » عن الطواغيت ، فلقد « كفرت » بالاسلام كفرانا مبينا ؟! ..

يقول سيد قطب ، فى الحديث عن المجتمعات الاسلامية المعاصرة : « يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى ، تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها انها « مسلمة » !.

وهذه **المجتمعات** لا تدخل فى هذا الاطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل فى هذا الاطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها ، فهى ــ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ــ **تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية : نظامها ، وشرائعها ، وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها ، وكل مقومات حياتها تقريبا !.** »[١٩]

---

(١٧) حسن البنا : [دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١٨) المودودى[موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٩) [معالم فى الطريق] ص ١٠١ .

هنا ، وبهذا التشخيص ، تجاوز سيد قطب موقع المودودى على درب « تجهيل » المجتمع و« تكفيره » .. ثم استمر به السير حتى صرح بما لم يصرح به المودودى ، فحكم « بكفر » « الأمة » ، لا « المجتمع » و« الدولة » فقط ... وقطع فى هذا الحكم قطع الواثق المستيقن .. بل لقد حكم بكفر هذه الأمة منذ قرون وقرون !..

فبعد أن حكم على كل المجتمعات بالارتداد عن « الشريعة » ، إذ « ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها .. »(٢٠) .. تقدم فحكم بانعدام وجود الأمة المسلمة ، لا فى عصرنا وحده ، بل ومنذ قرون كثيرة .. « **فوجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة** ... فالأمة المسلمة ليست « أرضا » كان يعيش فيها الاسلام . وليست « قوما » كان أجدادهم فى عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الاسلامى .. إنما « الأمة المسلمة » جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الاسلامى .. وهذه الأمة ـــ بهذه المواصفات ـــ قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعا !.. »(٢١)

وفى مكان آخر ، يزيد هذا الحكم تأكيدا فيقول : « إن موقف الاسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد فى عبارة واحدة : **إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها** وشرعيتها فى اعتباره .. »(٢٢) !

ومثل « المجتمعات » « الناس » ، أفرادا وجماعات .. فهم غير مسلمين ، ولابد من دعوتهم للدخول فى الاسلام من جديد .. « فالمسألة فى حقيقتها هى مسألة كفر وإيمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام ، وهذا ما ينبغى أن يكون واضحا .. إن الناس ليسوا مسلمين ـــ كما يدعون ـــ وهم يحيون حياة الجاهلية .. **ليس هذا إسلاما ، وليس هؤلاء مسلمين ، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الاسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد** .. »(٢٣) !

وهذا الكفر الذى عم الأمة ، لم يقف عند كفر « الشريعة » وحدها .. بل إن للأستاذ سيد قطب إشارة إلى أن الأمة قد كفرت « بالعقيدة » أيضا .. فهو يقول : « **ينبغى أن يكون**

---

(٢٠) المرجع السابق . ص ٣٩ .

(٢١) المرجع السابق . ص ٨ .

(٢٢) المرجع السابق . ص ١٠٣ .

(٢٣) المرجع السابق . ص ١٧٣ .

مفهوما لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة ــ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون !... فإذا دخل فى هذا الدين .. عصبة من الناس .. فهذه العصبة هى التى يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم » .. »[٢٤]

لقد كفرت الأمة ــ فى رأى سيد قطب ــ عندما خرجت على « الحاكمية » الالهية ... كفرت « المجتمعات » .. وكفر « الناس » .. إلا الجماعة الجديدة ، التى تبدأ الدعوة إلى الاسلام من جديد !..

وعموم الجاهلية :

ولما كان « الكفر » هو نقيض « الاسلام » .. ولما كان « الاسلام » هو النقيض « للجاهلية » ــ لأنه هو الذى نسخها وأخرج الناس من ظلماتها إلى نوره وتنويره ــ فإن الأمة ومجتمعاتها قد ارتدت ، بكفرها ، إلى « الجاهلية » ، بل إلى « جاهلية » أظلم من الجاهلية الأولى التى عاصرها الاسلام الأول !... « إن الاسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات .. مجتمع إسلامى ، ومجتمع جاهلى[٢٥]... والجاهلية ليست فترة من الزمان ، وإنما هى حالة تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الاسلام ، فى الماضى والحاضر والمستقبل على السواء[٢٦]... ولذلك **فإن العالم يعيش اليوم كله فى « جاهلية »** ، من ناحية الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها . جاهلية لا تخفف منها شيئا التيسيرات المادية الهائلة ، وهذا الابداع المادى الفائق ![٢٧]... **فنحن اليوم فى جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الاسلام أو أظلم ، كل ماحولنا جاهلية** .. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم ، **حتى الكثير** مما نحسبه ثقافة إسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيرا إسلاميا ... هو كذلك من صنع هذه الجاهلية[٢٨] !!.. »

وكما جاء الاسلام ، أول ما جاء ، ليهدم الجاهلية ، وينسخ نظمها وتصوراتها .. وكما رفض المسلمون الأوائل أية مصالحة مع الجاهلية ، وكل الحلول الوسط مع تصوراتها

---

(٢٤) المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٢٥) المرجع السابق . ص ١١٦ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ١٨٢ .

(٢٧) المرجع السابق . ص ١٠ .

(٢٨) المرجع السابق . ص ٢١ .

ونظمها وقيمها ، سواء أكانت جاهلية مشركى العرب فى شبه الجزيرة أم جاهلية الشرق الفارسى أو الغرب البيزنطى .. كذلك يجب على الجماعة المسلمة الجديدة أن تصنع .. « فنحن نرفض هذه الأنظمة فى الشرق أو فى الغرب سواء ... نرفضها كلها ، لأنها منحطة ومتخلفة بالقياس إلى مايريد الاسلام أن يبلغ بالبشرية إليه . »[٢٩]

فالشيوعية ، التى بشرت بمجتمع يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون .. قد انتهى بها المطاف إلى إقامة مجتمعها على قاعدة غير « إنسانية » ، لأنها ، وقد رفضت طبقة « البرجوازية » قاعدة للمجتمع ، قد أقامت مجتمعها على قاعدة طبقية — أى غير « إنسانية عامة » — أساسها طبقة العمال « فتجمع الشيوعية هو الوجه الآخر للتجمع الرومانى القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » ، وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ... » وغياب « القاعدة الانسانية العامة » لهذا المجتمع ، جعل السيادة فيه « لعاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى !.. وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما فى الكائن الانسانى .. فهو ، ابتداء ، قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها ، باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هى : « الطعام والمسكن والجنس » — وهى مطالب الحيوان الأولية — وباعتبار أن تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!! .. »[٣٠]

وكما نرفض هذا الوجه من وجهى « عملة الجاهلية الغربية » ، القائم على قاعدة غير إنسانية ، لتأسسه على قاعدة طبقة « الصعاليك » .. كذلك نرفض الوجه الآخر لعملة الجاهلية هذه ، ذلك الذى أسس مجتمعه ، هو الآخر على قاعدة غير إنسانية .. قاعدة الطبقة الثرية وحدها .. لقد انتهى دور هذا المجتمع الغربى ، ودور حضارته ، ودور نهضته العلمية ، ودور الرموز التى صاغها وعبدها ، من مثل « الوطنية » و« القومية » ... وانتهت حقبة قيادة الرجل الغربى للبشرية ، لا لقصور فى حضارته عن أن تشبع الحاجات المادية للإنسان ، وإنما لعجزها عن أن تحقق إنسانيته ، بافتقارها إلى « القيم » ... وجاء دور قيادة الاسلام للعالم ، بالحفاظ على ما أبدعت الحضارة الغربية على جبهة التقدم المادى ، وإضافة « القيم الاسلامية » لهذا الصرح المادى ، كى تتزن الحضارة وتتوازن ، فتشبع حقا مطالب الانسان ، من حيث هو « إنسان » !..

على هذا النحو الجيد ، فى مجمله ، تصور سيد قطب المواجهة بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .. فعنده « أن النهضة العلمية الأوربية قد أدت دورها .. هذا الدور الذى

---

(٢٩) المرجع السابق . ص ١٧٢ .

(٣٠) المرجع السابق . ص ٦٠ .

بدأت مطالعه مع عصر النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى ، ووصلت إلى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ... ولم تعد تملك رصيدا جديدا[٣١] ... »

وعلى عكس حسن البنا ، الذى احتضن « الوطنية » و« القومية » ، ورآها حلقات ودوائر ومراحل تفضى إلى الجامعة الاسلامية ، فالعالمية الانسانية[٣٢]... بل وعلى عكس المودودى الذى جعل الحفاظ على « القومية الحضارية » ، إسلامية أو غير إسلامية ، الأساس الذى سعى لبناء مستقبل الهند وفق معاييره[٣٣]... على العكس من البنا والمودودى ، لم يذكر سيد قطب « الوطنية » أو « القومية » بأى خير .. بل لقد رآهما ، مع « التجمعات الاقليمية عامة » ، رموزا ودعوات « أدت دورها .. ولم تعد تملك هى الأخرى رصيدا جديدا[٣٤] ... »

وإذا كان الطابع المادى الالحادى للحضارة الغربية ، قد حرمها « التوازن » ، فأفقدت إنسانها الاتزان ، عندما أتخم ماديا ، بينما ظل داخله من الروحية والقيم خواء .. فإن الاسلام ، كتصور مستقل للكون والحياة ، وكحضارة متميزة ، امتازت بإعلاء كل ماهو إنسانى ، دون أن ترفض المادة .. هذا الاسلام هو المرشح لقيادة العالم الآن !..

« إن الاسلام : تصور مستقل للوجود والحياة ، تصور كامل ذو خصائص متميزة ، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتى مستقل للحياة كلها ، بكل مقوماتها وارتباطاتها ، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة ... »[٣٥]

والحضارة الاسلامية ، من ثم ، متميزة بالتبعية لتميز الاسلام ـــ لأن الاسلام هو حضارته ـــ بل هو الحضارة .. وماعداه فجاهلية ! ـــ .. **وتميز الحضارة الاسلامية يظهر ويتأكد فى « ثبات الأصول والقيم » فيها ، رغم تعدد وتطور « تركيبها المادى والتشكيلى » ... وأصولها وقيمها الثابتة تدور حول عبودية الانسان لله وحده ـــ ومن ثم تحرره من كل الطواغيت ـــ وإعلاء كل مايؤكد إنسانية الانسان ، ويجعلها فوق النزعات المادية والحيوانية ... فثوابت هذه الحضارة ، هى مقوماتها .. من مثل « العبودية لله**

(٣١) المرجع السابق . ص ٦ .

(٣٢) [دعوتنا] مجموعة الرسائل . ص ١٧ . و[دعوتنا فى طور جديد] مجموعة الرسائل ص ١١٢ - ١١٥ . و[رسالة المؤتمر الخامس] مجموعة الرسائل . ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٣٣) [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣

(٣٤) [معالم فى الطريق] ص ٦ ، ٧ .

(٣٥) المرجع السابق . ص ١٦٢

وحده ، والتجمع على آصرة العقيدة فيه ، واستعلاء إنسانية الانسان على المادة ، وسيادة القيم الانسانية التي تنمي إنسانية الانسان لا حيوانيته .. وحرمة الأسرة .. والخلافة .. في الأرض — [عن الله] — على عهد الله وشروطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شئون هذه الخلافة[٣٦].... وفي هذه الحضارة الاسلامية ، وحين تكون « إنسانية » الانسان هي القيمة العليا في المجتمع ... يكون هذا المجتمع متحضرا .. أما حين تكون « المادة » — في أية صورة — هي القيمة العليا .. سواء في صورة « النظرية » كما في التفسير المادي للتاريخ أو في صورة « الانتاج المادي » كما في امريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الانتاج المادي قيمة عليا ... فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا ... أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعا جاهليا !...

والمجتمع المتحضر .. الاسلامي .. لا يحتقر المادة ، لا في صورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون ، الذي نعيش فيه ، ونتأثر به ونؤثر فيه أيضا) ولا في صورة « الانتاج المادي » ، فالانتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله .. ولكنه ، فقط ، لا يعتبرها هي القيمة العليا ، التي تهدر في سبيلها خصائص « الانسان » ومقوماته !....

والقيم الانسانية والأخلاق الانسانية — [التي هي من ثوابت حضارتنا] — ليست مسألة غامضة مائعة ، وليست كذلك قيما « متطورة » متغيرة متبدلة ، لاتستقر على حال ولا ترجع إلى أصل ، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ !.. إنما القيم والأخلاق التي تنمي في الانسان خصائصه التي يتفرد بها دون الحيوان[٣٧] ! »

وأمام تميز الحضارة الاسلامية وامتيازها .. وفي مواجهة « الجاهلية الغربية » ، بشقيها « الليبرالي — الرأسمالي » و« الشمولي — الشيوعي » ، فإن لواء قيادة العالم معقود للإسلام والمسلمين .. « إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال .. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديا ، أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية .. ولكن ، لأن النظام الغربي قد انتهى دوره ، لأنه لم يعد يملك رصيدا من « القيم » يسمح له بالقيادة . فلابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية ، عن طريق العبقرية الأوربية في الابداع المادي ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدة كاملة — بالقياس إلى ما عرفته البشرية — وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي في الوقت ذاته . والاسلام — وحده — هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج ... »[٣٨]

---

(٣٦) المرجع السابق . ص ١٣٢ .

(٣٧) المرجع السابق . ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣٨) المرجع السابق . ص ٦ .

فالمطلوب ، إذن ، هو :

- إدراك الخصائص التى تتميز بها الحضارة الإسلامية وتمتاز عن جاهلية الغرب .. والحرص على نقاء هذه الخصائص .. وتنقيتها مما ران عليها فى ظل الجاهلية التى عمت وضربت أطنابها ...
- وتمييز علوم التقدم المادى التى أبدعها الغرب عن تصوراته الفلسفية والفكرية والأخلاقية الجاهلية .. وضم علوم التقدم المادى إلى «قيم» الحضارة الإسلامية .. فبهما تجتمع مؤهلات القيادة العالمية الجديدة ... ولذلك ، كان من الأهمية بمكان تحديد : ماذا نرفض من الغرب ؟.. وماذا نأخذ عنه ؟..

ولقد أدرك سيد قطب أن هزيمتنا الروحية أمام الغرب ـ بعد هزيمتنا العسكرية والسياسية ـ قد أصبحت خطرًا محدقًا على ما يتميز به الإسلام ويمتاز فى ميدان «القيم» و «التصورات» ، فدعا إلى تحديد الحدود والفواصل ، بحسم ووضوح ، بين خصائصنا وبين «الحضارة الجاهلية»[39] .. ودعا إلى الانسلاخ عن «فكرية التغريب» التى جاءت فى ركاب الغزوة الاستعمارية ، ثم باضت وأفرخت فى عقولنا وقلوبنا حتى أفسدت علينا الكثير من العقائد والقيم والمعايير والأخلاق والتصورات ..

ولقد ضرب سيد قطب المثل بنفسه .. فهو قد عاش أربعين عاما «تغبش تصوراته ورؤاه هذه التأثيرات الجاهلية .. وذلك على الرغم من انتمائه الإسلامى وكتاباته الإسلامية طوال تلك السنوات .. ـ فما بالك بمن لم تكن له هذه الحصيلة الإسلامية ؟! ـ .. وها هو يدعو إلى الانسلاخ عن جاهلية الغرب ، كما انسلخ هو عنها ، وإلى إدانة حقبة التغريب وإسقاطها من عمرنا ، كما أدانها هو وأسقطها من عمره ... إنه يحدثنا بلغة «النقد الذاتى» و«الاعتراف» ، فيقول : «**إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الانسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره ، فإذا هو يجد كل ما قرأ ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم ـ وما كان يمكن إلا أن يكون كذلك ـ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره ، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها ، وعلى قزامتها .. وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها وادعائها كذلك ! ! ! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى ! ! !**»[40] .... وعلى الرغم من اتجاهى الاسلامى فى ذلك الحين ، إلا أن

---

(٣٩) المرجع السابق . ص ١٧٤ .

(٤٠) المرجع السابق . ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

هذه الرواسب كانت تغبش تصورى وتطمسه ! . كان تصور « الحضارة » ـــ كما هو الفكر الأوربى ـــ يخايل لى ، ويغبش تصورى ، ويحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة »[41]

تلك كانت تجربة سيد قطب مع « رواسب التغريب » .. ولقد انسلخ عنها ، وواجهها فى حسم ، وبرؤية شديدة الوضوح .. ودعا إلى أن يسلك الناس هذا السبيل !..

لكن الرجل ـــ كما أشرنا ـــ لم يكن رافضا لكل ما أنتجته النهضة الأوربية .. فعلومها فى الطبيعة والتقدم المادى ، التى أثمرت تلك الحضارة المادية ، والتى أثمرتها هذه الحضارة المادية ، يعتبرها وليدة « العبقرية الأوربية فى الابداع المادى » .. وهو لا يرفضها ، وإنما يطلب أن تزامل « قيم » الاسلام « وتصوراته الايمانية » للكون والحياة و« أخلاقياته » ، تلك التى تعلى من « إنسانية الانسان » فوق « المادة » ، نظرية كانت أو إنتاجا .. وذلك حتى تتكامل للحضارة الساقان اللتان تستطيع إذا هى سارت عليهما تهيئة المناخ الصالح للإنسان السوى .. ولذلك دعا المسلمين إلى أن يأخذوا عن الغرب « العلوم البحتة » ، فى الوقت الذى يجب أن يرفضوا فيه « الالهيات » و« الفلسفة » و« الانسانيات » ، « **إذ المسلم لا يملك أن يتلقى ، فى أمر يختص بحقائق العقيدة ، أو التصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، أو يختص بالمبادىء والأصول فى النظام السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة التاريخ الانسانى .. إلا من ذلك المصدر الربانى . ولا يتلقى فى هذا كله إلا عن مسلم ، يثق بدينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته فى واقع الحياة ..**

لكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والصناعة ، والزراعة ، وطرق الإدارة ـــ من الناحية الفنية الادارية البحتة ـــ وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال ـــ من الجانب الفنى ـــ إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم ... ويجوز أن يشتغل فيها المسلم وغير المسلم ، لأنها من الأمور الداخلة فى قول رسول الله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[42] ... ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ العقيدة ، أو ارتداده إلى الجاهلية[43] .... »

أما جانب العقائد والالهيات والفلسفة والأخلاق وتصورات الكون والحياة والعلاقة

---

(41) المرجع السابق . ص ١١٨ .

(42) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

(43) المرجع السابق . ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

بين القيم الانسانية وبين المادة .. أما هذا الجانب الذى تتكون منه « الثقافة » ، فإن سيا قطب لا يمنع فيه « الاطلاع » على إنتاج الجاهلية الغربية ، لا لنتخذ منه مصدرا لثقافتنا ، بدعوى أن « الثقافة تراث إنسانى » ـــ وهى دعوى كاذبة عند الإطلاق ـــ وإنما يكون الاطلاع بهدف النقد وكشف ما فى هذا الجانب من فكر الغرب من ضلال ... **فالمسلم « قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلى ، ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته فى هذه الشئون كلها ، وإنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الانحرافات البشرية ، بردها إلى أصولها الصحيحة فى مقومات التصور الاسلامى ، وحقائق العقيدة** الاسلامية ... **إن حكاية أن « الثقافة تراث إنسانى » لا وطن له ولاجنس ولا دين .. هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية ـــ دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الانسان ونشاطه وتاريخه ، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعا** ، ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهودية العالمية ، التى يهمها تمييع الحواجز كلها ـــ بما فى ذلك ، بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور ـــ لكى ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، يزاولون فيه نشاطهم الشيطانى[44] ا.. »

ولقد ضرب سيد قطب المثل على إمكانية وضرورة التمييز بين علوم الغرب البحتة وتطبيقاتها ـــ وهى ما يمكن أخذها عنه ـــ وبين فلسفته وإنسانياته ـــ وهى مايجب الحذر منها .. والتصدى لها ـــ .. ضرب المثل بما صنعت أوربا ، عندما أرادت أن تنهض ، مع حضارتنا الاسلامية .. لقد أخذت عنا « **الاتجاه التجريبى** » الذى أقامت عليه حضارتها الصناعية ، وفى ذات الوقت رفضت « **التصورات الاسلامية والأصول الاعتقادية الاسلامية** » ، التى كان هذا « الاتجاه التجريبى » وثيق الصلة بها فى الحضارة الاسلامية .. لقد أخذت ما لاءم الطابع المادى لحضارتها ، وتركت ما كان ، لو أخذته ، كفيلا بإحداث تغير جذرى فى طابع تلك الحضارة وطبيعتها .. فعلينا نحن أن نعى هذا الدرس التاريخى فى الأخذ والعطاء بين الحضارات .. فنأخذ عن الغرب مايلائم طابعنا الحضارى ، وندع ، بل ونحذر ، تلك الجوانب الكفيلة بتغيير الطابع الإنسانى المؤمن لحضارتنا ، وقلبها حضارة مادية ، كما هو الحال فى الجاهلية الغربية ... « إن الاتجاه التجريبى ، الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء فى أوربا ، وإنما نشأ فى الجامعات الاسلامية فى الأندلس والمشرق ، مستمدا أصوله من التصور الاسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ، ومدخراته وأقواته ... ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله .. »[45]

(٤٤) المرجع السابق . ص ١٣٩ – ١٤١ .

(٤٥) المرجع السابق . ص ١٤٢ .

بل إن علينا أن لا نفقد الحذر أو نتخلى عن الاحتياط ونحن نأخذ عن الغرب « العلوم البحتة » ، التي نحن مضطرون ــ في وضعنا الراهن ــ لأخذها عنه .. فهناك « ظلال فلسفية » لهذه « العلوم البحتة » ، في فكرية الغرب ، كفيلة ، إذا نحن تركناها تتسرب إلى فكريتنا ، بتلويث صفاء نبعنا الفكرى الاسلامى « لأن هذه الظلال معادية فى أساسها للتصور الدينى جملة ، وللتصور الاسلامى بصفة خاصة »[٤٦]

فيجب علينا ألا ننسى ــ ونحن مضطرون لنأخذ عن الغرب علومه البحتة ــ أننا أبناء « حضارة مؤمنة » ، ارتبطت فيها العلوم جميعا ، بما فيها « العلوم البحتة » ، بالقاعدة الايمانية ... إننا أبناء « الحضارة المؤمنة » ، التى يذكر فيها اسم الله فى كل شىء ، وبكل مجال وميدان ... نستفتح الأكل باسم الله .. ونختتمه بحمده .. ونهل بذكره على الذبائح .. ونلجأ إليه عند الحزن ، وعند السرور .. فى وقت الضحك ، وساعة البكاء .. كل مسعى الانسان عبادة ، حتى ترويحه عن النفس .. بل ومباشرته متع الجنس المشروع !.. إنها الحضارة التى قال الإمام الغزالى [٤٥٠ – ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ – ١١١١ م] عن غاية العلماء من العلم فيها : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ؟! .. » .. فإذا كتب التيفاشى [٥٨٠ – ٦٥١ هـ ١١٨٤ – ١٢٥٣ م] فى طبيعة الأرض ــ الجيولوجيا ــ كتابه [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] افتتحه بـ « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين »[٤٧] كما يصنع الفقهاء فى استهلال مصنفات الفقه الاسلامى ؟!... وإذا صنف ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ – ٤٥٦ هـ ٩٩٤ – ١٠٦٤ م] فى « الحب » كتابه [طوق الحمامة فى الألفة والألاف] فإنه يفتتحه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين ... أفضل ما أبتدىء به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع انبيائه عامة .. »[٤٨].. وفى ختام كتابه هذا عن « الحب » يقول لقارئه : « جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .. »[٤٩] فكأنه يصنف فى الالهيات ؟!..

إن حضارة هذه هى الصلة بين سائر علومها وبين القاعدة الايمانية ــ التى هى محورها ــ لابد وأن يحذر أهلها وهم يأخذون من حضارة الغرب علومها البحتة من « الظلال

---

(٤٦) المرجع السابق . ص ١٤٨ .

(٤٧) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة ــ هيئة الكتاب ــ سنة ١٩٧٧ م . وهو بتحقيق : د . محمد يوسف حسن ود . محمود بسيونى خفاجى .

(٤٨) انظر [رسائل ابن حزم] جـ١ ص ٨٤ . تحقيق : د . احسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨٠ م .

(٤٩) المصدر السابق . ص ٣١٠ .

الفلسفية » الضارة بالقاعدة الايمانية .. « فالعلم الذى ينقطع عن قاعدته الايمانية ليس هو العلم الذى يعنيه القرآن ويثنى على أهله .. إن هناك ارتباطا بين القاعدة الايمانية وعلم الفلك ، وعلم الأحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم طبقات الأرض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ، والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدى إلى الله ، حين لايستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله ـ كما اتجه المنهج الأوربى فى النهضة العلمية ـ مع الأسف ـ بسبب تلك الملابسات النكدة التى قامت فى التاريخ الأوربى خاصة بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة !.. »[٥٠]

فحتى لاتتكرر مأساة الفصام النكد بين « العلم » وبين « القاعدة الايمانية » علينا أن نحذر ، ونحن نأخذ عن جاهلية الغرب « علومها البحتة » أية ظلال فلسفية إلحادية ارتبطت هناك بتلك العلوم .. فبذلك .. وبذلك وحده .. نضمن إعادة هذه العلوم ، فى مناخنا الحضارى ، لترتبط بالقاعدة الايمانية مرة أخرى .. فتصبح « لله » ، بعد أن طلبوها هناك « لغير الله » ، بل وربما « للتخلص من الايمان بالله » !.. وبذلك يتم الاتساق بين هذه العلوم وبين عقيدتنا وتصوراتنا للكون ، وقيمنا الانسانية وأخلاقياتنا .. فتتكامل للإسلام والمسلمين مؤهلات القيادة العالمية ، بعد أن دخلت الجاهلية الغربية مأزقها التاريخى ، واصطدمت بسور من الافلاس ليس إلى تجاوزه من سبيل !..

السبيل إلى البعث الإسلامى :

وأمام « عموم البلوى » ، « كفرا » ارتدت به الأمة ومجتمعاتها ، منذ قرون كثيرة ، إلى « جاهلية » أظلم من تلك التى عاصرها الاسلام زمن البعثة ... أمام هذه البلوى التى عمت وطمت .. وفى ظروف « محنة » الاسلاميين بمصر ، وماتميزت به هذه « المحنة » من قهر ينهال عليهم من الخارج ، وخلخلة تفت فى عضدهم من داخل صفوفهم !... أمام هذا الوضع ، بما هو « واقع » منه ، وبما هو « تصور » ؟!.. تساءل الأستاذ سيد قطب :

« ... **فكيف تبدأ عملية البعث الاسلامى ؟**»[٥١] .

ولقد أجاب على هذا السؤال على النحو الذى أجاب به ، من قبل ، الأستاذ المودودى .. فما دمنا قد وصلنا إلى عموم « الكفر والجاهلية » ، على النحو الذى شهده

---

(٥٠) [معالم فى الطريق] ص ١٤٧ .

(٥١) المرجع السابق . ص ١١ .

المسلمون الأولون ، فلابد وأن يكون طريقنا للبعث الاسلامى الجديد هو نفس طريقهم للبعث الاسلامى الأول .. فنحن نبدأ من أول الطريق ، كما بدأوا .. ونسلك نفس النهج .. ونعبر ذات المراحل .. لنصل إلى البعث الإسلامى الجديد ..

- فالخطوة الأولى هى تكوين « الجماعة المؤمنة » ، بداية من الفرد الواحد .. والبداية بالعقيدة ، والعقيدة وحدها فى هذه المرحلة ، التى تشبه من كل الوجوه « المرحلة المكية » من حياة الاسلام الأولى .. إنها « مرحلة الحضانة والتكوين » !..

- وليس المطلوب « دراسة » للعقيدة ، تقف عند حدود « الدراسة » و« النظر » ، وإنما الأهم هو تجسيد العقيدة فى « الجماعة » ، بواسطة « الحركة » ، حتى تتحول هذه الجماعة إلى « مجتمع » تتجسد فيه هذه « العقيدة » .. « مجتمع » ، ليس بمعنى « الدولة » و« السلطة » ، وإنما بمعنى « الجماعة المؤمنة » ، حتى ولو كانت فردا أو بضعة أفراد .. « فحين يؤمن الانسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الاسلامى (حكما) ... وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ... يكون المجتمع الاسلامى قد وجد (فعلا) .. والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مائة ، والمائة يصبحون ألفا ، والألف يصبحون اثنى عشر ألفا .. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى !.. »[٥٢]

- وفى مرحلة « الحضانة والتكوين » هذه ، لابد وأن يكون النهج ، نهج « التكوين العقيدى » هو ذات النهج الذى سلكته الجماعة الاسلامية الأولى ، فى المرحلة المكية ... فلابد من رفض كل المنابع الجاهلية ، **والاقتصار ، فقط ، وفى هذه المرحلة بالذات ، على نبع واحد هو : القرآن الكريم** .. فجميع ماحولنا جاهلى .. ثم إن نقاء المنبع — وهو الذكر الذى حفظه الله — بالغ الأهمية فى مرحلة « الحضانة والتكوين » ، كى لا يتسمم الكيان الوليد فى هذا الطور الحديث ... « لقد اختلطت الينابيع » ... ومن ثم فلابد من التأسى بجيل الصحابة « الذى استقى من النبع القرآنى وحده ، فكان له فى التاريخ ذلك الشأن الفريد ... »[٥٣]

وهذا التلقى للعقيدة ، ليس يكفى فيه « وحدة المنبع » ، على نحو ما فعل جيل الصحابة ، بل لابد ، من أن يكون تلقينا كتلقيهم « للتنفيذ » لا لمجرد « البحث والدراسة والمتعة الفكرية » !.. فالجماعة المؤمنة : كتيبة منظمة تتلقى العقيدة من القرآن وحده ، تلقى الجندى لأمر القائد .. للتنفيذ .. لا لمجرد « العلم » !.. « إن منهج التلقى للتنفيذ والعمل هو

(٥٢) المرجع السابق . ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٥٣) المرجع السابق . ص ١٧ .

الذى صنع الجيل الأول . ومنهج التلقى للدراسة والمتاع هو الذى خرج الأجيال التى تليه .. ولقد كان ذلك عاملا أساسيا فى اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد ... **فلابد ، إذن ـــ فى منهج الحركة الاسلامية ـــ أن تتجرد ، فى فترة الحضانة والتكوين ، من كل مؤثرات الجاهلية التى نعيش فيها ، ونستمد منها ، لابد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذى استمد منه أولئك الرجال ـــ [جيل الصحابة الفريد] ـــ .. ولابد أن نرجع إليه ـــ حين نرجع ـــ بشعور التلقى للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع !.. »**[54]

- وفى مرحلة « التكوين العقيدى » هذه ، يمتزج « التكوين العقيدى » بـ « التكوين العملى للحركة » ، لأن العقيدة ، هنا لا تقف عند حدود « الدراسة النظرية » ، بل تتحول « حركة » المؤمن بالعقيدة إلى « عقيدة متحركة » .. جماعة تحيا القرآن ، ويتجسد فيها نورا يمشى على الأرض ويسعى بين الناس !.. الأمر الذى يمزج هذا المزيج « بالبناء الواقعى للجماعة المسلمة » ... « عقيدة » تتجسد « بالحركة » فى المؤمنين بها ، لا كأفراد ، وإنما « كجماعة مسلمة » .. تتلقى من النبع الصافى الوحيد ـــ القرآن ـــ تلقى الجند أمر القائد للعمل والتنفيذ ! .. ولقد كان ذلك ، أيضا ، من خصائص « العهد المكى » .. ففيه « **لم تكن مرحلة بناء العقيدة .. منعزلة عن مرحلة التكوين العملى للحركة الاسلامية ، والبناء الواقعى للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقى « النظرية » ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدى للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلى معا .. وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى !.. »**[55]

- وعندما تتكون هذه « الطليعة ، التى تعزم هذه العزمة ، وتمضى فى الطريق » إلى البعث الاسلامى الجديد .. فعليها أن تحدد طبيعة « العلاقة » بينها وبين « الجاهلية » المحيطة بها ، فى هذه « المرحلة المكية » ، مرحلة « الحضانة والتكوين » ..

فلابد لهذه « الطليعة » من الانسحاب من النسيج الداخلى للمجتمع الجاهلى ، حتى لا « يقومون « فعلا » بتقوية المجتمع الجاهلى .. بدلا من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويضه .. لإقامة المجتمع الاسلامى[56] !.. » فحتى فى هذه المرحلة لا مهادنة ولا تصالح مع الجاهلية ، ولو جزئيا ...

---

(٥٤) المرجع السابق . ص ١٧ ، ١٩ ، ٢١ .

(٥٥) المرجع السابق . ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٦) المرجع السابق . ص ٥٥ ، ٥٦ .

لكن هذه « الطليعة » ، فى مرحلة « الحضانة والتكوين » — [المكية] — هذه لا تستطيع أن تقطع كل الصلات بالمجتمع الجاهلى ، بل هى مضطرة لإقامة بعض الصلات معه ، بل إن قدرا من هذه الصلات مطلوب لتوسيع دائرة هذه « الطليعة » ؟!.. فالمطلوب ، إذن ، هو إقامة قدر من « العزلة » وقدر من « الاتصال » !... **إن هذه « الطليعة تمضى فى خضم الجاهلية .. وهى تزاول نوعا من العزلة من جانب ، ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة[٥٧].. إنها المخالطة مع التميز ، والأخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق فى مودة ، والاستعلاء بالإيمان فى تواضع !.. »**[٥٨]

● وفى مرحلة « الحضانة والتكوين » هذه .. فإن « الطليعة » ليست مطالبة بتفصيل البرامج والتصورات للدولة الاسلامية التى تسعى لإقامتها ... فلم يكن ذلك واردا — وهو لم يحدث — فى « العهد المكى » من تاريخ الاسلام الأول .. وعلى الجماعة المؤمنة أن لا تستجيب لتحدى الجاهلية التى تتساءل عن ملامح « البديل الاسلامى » .. فخطوات البعث الاسلامى الجديد ومراحله حددتها ، سلفا ، خطوات البعث الاسلامى الأول ومراحله ... ففى مكة ، وعلى امتداد ثلاثة عشر عاما ، كانت المهمة العظمى والأولى والوحيدة ، هى تأسيس العقيدة ، وتجسيدها ، بالحركة ، فى الجماعة المؤمنة .. فلما قامت « الدولة » ، بالمدينة ، بعد الهجرة ، ارتبطت التصورات والبرامج بظهور المشكلات الواقعية ، ولم تدبج هذه البرامج ، سلفا ، قبل ظهور المشكلات ، ولا قبل قيام السلطة التى يطلب منها حكم الواقع ومواجهة مشكلاته بالحلول الاسلامية ... فيجب على الجماعة المؤمنة أن لا تقع فى « الفخ » ، **فتمكن « الجاهلية من أن تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الاسلامية ، فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الاسلامى ... أو تحرجهم فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه ؟** وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن دراسات ومن فقه مقنن على الأصول الحديثة !.. كأن الذى ينقص الناس ، فى هذا الزمان ، لإقامة شريعة الاسلام فى الأرض هو مجرد الأحكام الفقهية والبحوث الفقهية الاسلامية ؟! وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله ، راضون بأن تحكمهم شريعته ، ولكنهم فقط لا يجدون من « المجتهدين » فقها مقننا بالطريقة الحديثة !. وهى سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذى قلب يحس لهذا الدين بحرمة !.

إن الجاهلية لا تريد بهذا الإحراج إلا أن تجد لنفسها تعلّة فى نبذ شريعة الله ،

(٥٧) المرجع السابق . ص ١١ ، ١٢ .

(٥٨) المرجع السابق . ص ١٧٦ .

واستبقاء عبودية البشر للبشر .. وإلا أن تصرف العصبة المسلمة عن منهجها الربانى ، فتجعلها تتجاوز مرحلة بناء العقيدة فى صورة حركية ، وأن تحول منهج أصحاب الدعوات الاسلامية عن طبيعته التى تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، وتتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة ، وتسن فيها التشريعات فى مواجهة الحياة الاسلامية الواقعية بمشكلاتها الحقيقية !.. »[٥٩]

فللبعث الاسلامى — فى هذه المرحلة التكوينية — مراحله ومناهجه .. وطالما لم تُقم « الطليعة » بعد المجتمع الذى تحكمه « الحاكمية الالهية » ، فلا ضرورة لتفصيل البرامج والتصورات لواقع لسنا مسئولين عنه ، ولا نملك القضاء فى مشكلاته وأمراضه بالاصلاح والعلاج .. « **وحين يقوم هذا المجتمع ، بالفعل ، يبدأ عرض أسس النظام الاسلامى عليه ، كما يأخذ هذا المجتمع فى سن التشريعات التى تقتضيها حياته الواقعية ، فى إطار الأسس العامة للنظام الاسلامى .. فهذا هوالترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامى الواقعى العملى الجاد .. »[٦٠]**

تلك هى الخطوات الأولى للبعث الاسلامى الجديد ... والمهام الأساسية للمرحلة المناظرة « للعهد المكى » .. والسبيل لبلورة أداة هذا البعث : « الطليعة ، التى تعزم هذه العزمة .. وتمضى فى الطريق »[٦١]

* * *

وعندما تمضى « الطليعة — المؤمنة » فى طريقها ، فتتجاوز مرحلة « الحضانة والتكوين » العقيدى ، وتقيم « المجتمع الفعلى » ، الخاضع للحاكمية الالهية ، والمنظمة جميع شئونه وفق شريعة الاسلام ... فإن هذا المجتمع سيكون « مجتمع العقيدة » ، تتجسد فيه ، وتحدد له فلسفته وتصوراته وتطبيقاته وعلاقاته .. وترسم له الحدود . وتعين له الهوية .. والرعية .. سيقوم « على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة والحدود الاقليمية السخيفة ؟!. »[٦٢] .. المجتمع الذى هو « دار الاسلام » .. ورعيته « كل من يدين بالاسلام عقيدة ، ويرتضى شريعته شريعة . وكذلك كل من يرتضى شريعة الاسلام نظاما — ولو لم يكن مسلما — كأصحاب الديانات الكتابية

---

(٥٩) المرجع السابق . ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٦٠) المرجع السابق . ص ٤١ .

(٦١) المرجع السابق . ص ١١ .

(٦٢) المرجع السابق . ص ٥٨ .

الذين يعيشون فى « دار الاسلام » ... »[٦٣]

و« دار الاسلام » هذه ليست إقليما ولا وطنا ولا دولة ، فقط ... فكما أن الاسلام هو إعلان تحرير للإنسان — كل إنسان — من عبودية غير الله .. فإن أرضه هى كل الأرض .. وداره هى كل الديار ؟!.. ولذلك فإن على المسلمين ، من أهل « دار الاسلام » ، أن ينطلقوا ، بالجهاد ، لإزالة كل صور العقبات والضغوط ، التى تمثلها الحكومات والنظم الجاهلية ، والتى تحول بين شعوبها وبين الاستماع إلى « بيان الاسلام » وحجة دعوته ، والاختيار الحر أمام « عقيدة » هذا « الدين !..

إن سيد قطب — متابعة للمودودى — يرى أن الجهاد الاسلامى ليس ، فقط ، دفاعا عن الدعوة فى وطن بعينه .. بل هو أيضا هجوم على « النظم والحكومات » التى لا تدين بالحاكمية الالهية .. ومهمة الجهاد الاسلامى وأهله هى :

١ – إزالة هذه النظم والحكومات ، بالوسائل المكافئة لما تتصدى به لهذا الجهاد الاسلامى !..

٢ – وتطبيق الحاكمية الالهية فى كل مجتمعات الأرض ، أى حكمها بمنهج الاسلام وشريعته ..

٣ – وعرض الاسلام ، كعقيدة — وهى عنده أخص من الدين كمنهج وشريعة ؟!! — عرضه على شعوب الأرض ، بالبيان والحجة ، مع ترك الحرية لها تؤمن بالعقيدة الاسلامية أو لا تؤمن بها ، وفق مبدأ [لا إكراه فى الدين][٦٤] .. فمن آمن انضم للأمة المؤمنة ، ومن آثر البقاء على ديانته ، وسالم الاسلام كعقيدة ، وخضع لنظامه ومنهجه وشريعته — [الحاكمية] — فهو فى كنف الاسلام والمسلمين ..

« إن الاسلام إعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للإنسان .. ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا — بالفعل — فى اختيار العقيدة .. بعد رفع الضغط السياسى عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ... إن النظام الذى يحكم البشر فى الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقى الشرائع منه وحده ، ثم ليعتنق كل فرد — فى ظل هذا النظام العام — ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله .. **إن مدلول « الدين » أشمل من مدلول « العقيدة » ، إن الدين هو المنهج والنظام الذى يحكم الحياة ، وهو فى الاسلام يعتمد على العقيدة ، ولكنه فى عمومه أشمل من العقيدة** .. وفى الاسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام ، الذى يقوم على أساس

(٦٣) المرجع السابق . ص ١٥١ ، ١٥٧ .

(٦٤) البقرة : ٢٥٦ .

العبودية لله وحده ، ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام .والذى يدرك طبيعة هذا الدين ـــ على النحو المتقدم ـــ يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلام ، فى صورة الجهاد بالسيف ـــ إلى جانب الجهاد بالبيان ـــ .. ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية فقط .. وإنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الانسان » فى « الأرض » .. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشرى ، وفى مراحل محددة ، لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة ... إن دعوة الاسلام تجاهد باللسان والبيان حينا يخلى بينها وبين الأفراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع المؤثرات .. فهنا « لا إكراه فى الدين » .. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلابد من إزالتها أولا بالقوة ، للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله ، وهو طليق من هذه الأغلال ! .. »[٦٥].. فلابد أولا من « تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة ، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها ... »[٦٦].. فالاسلام لن يتخلى عن الجهاد بالسيف ـــ الطرق والوسائل المكافئة ـــ ويترك النظم التى لا تدين بالحاكمية الالهية وشأنها ، حتى لو سالمته وكفت عدوانها عن داره « **فالمعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الاسلام ، إذا تركها الاسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ، ورضى أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريرى العام !. ولكن الاسلام لا يهادنها ، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة أداء الجزية ، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها** »[٦٧] ؟!..

تلك هى مقولة الأستاذ سيد قطب ـــ المأخوذة عن الاستاذ المودودى ـــ فى الجهاد الاسلامى ـــ وهى مقولة لا أعتقد أنهما قد سُبِقَا إليها من أحد تقدمهما ؟!.. وهى مقولة تثير الكثير من الجدل والخلاف ...

- فلقد يقال ـــ مثلا ـــ إن المطلوب هو تأمين الحرية والاستقلال لدار الاسلام .. وتأمين حرية الدعوة والدعاة ، وإزالة العوائق من سبيلهما ، على النطاق العالمى .. فإن تحقق ذلك سلما فلا ضرورة للقتال ضد النظم التى لا تدين ، فى مجتمعاتها ، بالحاكمية الالهية ! ..

- ولقد يقال ـــ أيضا ـــ إن معنى [ويكون الدين كله لله] ليس القتال حتى تستسلم كل النظم فى جميع أرجاء الأرض ، ويحكمها المسلمون بالحاكمية الالهية ، ذلك لأن حديث

---

(٦٥) [معالم فى الطريق] . ص ٧١ - ٧٤ .

(٦٦) المرجع السابق . ص ٦٥ .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٨٧ .

الآية هو عن « المشركين » فى مكة ، وليس عن « أهل الكتاب » .. ثم إن الآية تقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾[٦٨] .. فالقتال أساسا لمنع فتنة المشركين للمؤمنين عن دينهم ، أى تعذيبهم حتى يرتدوا .. ومنع الفتنة يعنى حرية العقيدة ، فيكون الدين لله ، عندما تنتفى ضغوط الفتنة على الضمير ... وهذه الفتنة عن الدين قد وصفها القرآن بأنها ﴿ أشد من القتل ﴾[٦٩] ؟!.. وليس معنى كون الدين كله لله هو عموم الحاكمية أى « الدين » الاسلامى كل أرجاء الأرض ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾[٧٠] والأمة هنا : الدين والملة .. والاختلاف فيه حكمة إلهية ، وحكم إلهى[٧١] .. وكذلك الاختلاف فى « الشريعة » .. فبعد أن طلب القرآن — أولا — من اليهود أن يتحاكموا إلى « التوراة » : ﴿ وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٧٢] .... وبعد أن طلب القرآن — ثانيا — من النصارى التحاكم إلى الانجيل : ﴿ وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[٧٣] .. وبعد أن طلب — ثالثا — من المؤمنين أن يتحاكموا إلى القرآن الكريم : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. ﴾ ... عقب القرآن بما يقطع بأن إرادة الله ومشيئته هى « تعدد الشرائع » و« المناهج » .. فقال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[٧٤]

فالاختلاف والتعدد فى الشريعة والدين إرادة إلهية ومشيئة إلهية ... فقط يجب :

---

(٦٨) الأنفال : ٣٩ .

(٦٩) البقرة : ١٩١ .

(٧٠) هود : ١١٨ .

(٧١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ . طبعة دار الكتب المصرية .

(٧٢) المائدة : ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٣) المائدة : ٤٧ .

(٧٤) المائدة : ٤٨ .

١ – أن تسود « دار الاسلام » شريعة قانونية واحدة .. هى القانونى الاسلامى — فقه المعاملات — لأن أهل الكتاب فى « دار الاسلام » ليست لديهم « شريعة » مناظرة فى تنظيم شئون الدنيا .. وارتضاؤهم القانون الاسلامى — من منطلق قومى وحضارى — أولى لهم من ارتضاء فلسفة الغزاة فى القانون !..

٢ – أن تقف الدعوة للإسلام ، خارج « دار الاسلام » ، عند حدود « البيان والحجة » ، طالما رفعت النظم والحكومات غير الاسلامية من أمام الدعوة والدعاة ، ومن أمام ضمائر شعوبها ضغوط القهر والحواجز والعقبات ..

فالجهاد الاسلامى قد يكون دفاعيا .. وقد يكون « هجوميا » .. لكن فى هذا الاطار .. الذى إن تأملناه جيدا فإنا واجدوه ، دائما وابدا : **دفاعا عن حرية « دار الاسلام » واستقلالها ، ودفاعا عن « حرية » الدعوة والدعاة إلى الاسلام !..**

● ولقد يكون مفيدا — أيضا — أن ننبه إلى الخطأ القائم فى تمييز الاستاذ سيد قطب بين « الدين » وبين « العقيدة » .. وجعله « الدين » أشمل من « العقيدة » ، وتحديده لمعنى « الدين » بأنه « المنهج والنظام » — أى [الحاكمية] ... فالحق :

١ – أن « الدين » يشمل : « العقيدة » و« الشريعة » .. فالمنهج والنظام — [الحاكمية] — ليس هو « الدين » ، وإنما هو « الشريعة » ....

٢ – ثم لو كان « الدين » هو [الحاكمية] التى يجب أن نُكْرِه عليها أهل الأرض جميعا ، مع ترك الحرية لهم فى « العقيدة » — كما قال الاستاذ سيد قطب — لقال الله فى قرآنه : لا إكراه فى « العقيدة » .. ولما قال ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ ؟!!...

* * *

هكذا — وبعد هذه « الجملة الاعتراضية » على تصور « الجهاد الاسلامى » عند سيد قطب — وهو التصور الذى تابع فيه المودودى — ... هكذا شخص سيد قطب « الواقع » .. وحدد السبيل إلى « البعث الاسلامى الجديد » ...

● لقد انطلق من حكم المودودى « بكفر المجتمع » .. فشمل « بالكفر » « الأمة » أيضا ..

● وأعلن ، فى حسم ووضوح رؤية ، أن سبيل « البعث الاسلامى الجديد » هو رفض الجاهلية العامة الشاملة .. والبدء — كما صنع المسلمون الأوائل فى العهد المكى — من جديد !..

وحتى يبث فى الصورة « الأمل » الذى يغرى بسلوك هذا السبيل الوعر والشاق ،

ذكّر الناس بحال الدعوة الأولى ، عندما هبط بها الوحى وَسط الشرك المحيط والجاهلية المسيطرة ... « **فلم تكن الدعوة فى أول عهدها فى وضع أقوى ولا أفضل منها الآن .. كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية ، وكانت محصورة فى شعاب مكة ، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها ، وكانت غريبة فى زمانها فى العالم كله ، وكانت تحف بها امبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها ، ولكنها ، مع هذا كله ، كانت قوية ، كما هى اليوم قوية ، وكما هى غدا قوية ؟!..** »[٧٥]

بل إننا نستطيع أن نقول : إن الرجل لم يرهب المصير الذى انتهى إليه .. بل لقد تنبأ به .. ومع ذلك سار على الدرب الذى حدده للبعث الاسلامى ، وارتضاه ... فكأنما كان يستشرف المستقبل عندما كتب :

« **وتتبدل الأحوال ، ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وينظر إلى غالبه من عل مادام مؤمنا ، ويستيقن أنها فترة وتمضى ، وأن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية ، فإنه لا يحنى لها رأسا**

إن الناس كلهم يموتون ، أما هو فيستشهد ، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة ، وغالبه يغادرها إلى النار ، وشتان شتان ، وهو يسمع نداء ربه الكريم : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾[٧٦] ... »[٧٧] ؟!!

نعم ... لقد تنبأ بما انتهت إليه حياته ... ولم تتعد ثقته فى « قوة الدعوة » الحدود .. فما خطه سيد قطب فى [معالم الطريق] تختلف فيه وحوله الآراء اختلافا شديدا .... لكن الذى لا خلاف عليه أن هذا التصور والنموذج « للبعث الاسلامى الجديد » ، قد تحول إلى « العباءة » التى خرجت من داخلها فصائل كثيرة ، تملأ سمع الدنيا وبصرها ، فى تيار « الصحوة الاسلامية » التى تقض مضاجع الأعداء ، الذين فرضوا على أمتنا التحديات ، التى لا سبيل لمواجهتها وقهرها إلا بالاسلام !..

قد لا تكون كثير من الفصائل الاسلامية ، التى انطلقت من « خصام » سيد قطب لـ « الواقع » و« الفصام » معه ، على المستوى المطلوب لمواجهة « التحدى الحضارى »

---

(٧٥) [معالم فى الطريق] ص ١٧٠ .

(٧٦) آل عمران : ١٩٦ - ١٩٨ .

(٧٧) [معالم فى الطريق] ص ١٨٤ .

المحدقة مخاطره بكيان الأمة وذاتيتها الحضارية الاسلامية ... لكنه المخاض ، الذى يدعو إلى ائتلاف « الفكر » و« الحركة » .. « تطويرا » و« تثويرا » للفكر الاسلامى ... و« ترشيدا » « للحركة » الاسلامية .. فلعل فى ذلك ما يفيد فى تجاوز « المخاض » إلى وحدة الحركة الاسلامية ، المسلحة بالاسلام .. إسلام « العدل » و« القوة » و« الثورة » ، سعيا لأسلمة الحياة التى يحياها المسلمون !.

وبعـــــد

فإن « نظرة راصدة » على المعالم البازة فى تيار « الصحوة الاسلامية » ــ وفى نطاق تصديه « للتحدى الحضارى » ، الذى فرض على أمتنا ــ وعبر قرنين من عمر هذا التيار ــ تستطيع أن ترصد عددا من الحقائق ذات الدلالة ــ وذات النفع أيضا ! ــ فى هذا الميدان :

● فإذا كان [**تيار الجامعة الاسلامية**] قد مثل أعظم تيارات « الصحوة الاسلامية » ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .. وأول تيار يعم بدعوته وحركته كل ديار الاسلام .·. فإن هذا التيار قد صنع أعظم إنجازاته فى :

١ – التذكير بثورية الاسلام .. وتأكيد هذه القسمة من قسماته .. فهو دين العدل والحق والقوة والثورة ..

٢ ــ المواجهة الكبرى مع « التخلف الموروث » بالاجتهاد والتجديد والتنوير ...

٣ ــ إبراز الهوية الحضارية الاسلامية المتميزة ، كسلاح فى نضال الأمة ضد تيار « التغريب » ..

٤ ــ وقوف « التنظيم » ــ عند هذا التيار ــ بإطار « الصفوة » غالبا .. سواء أكان ذلك فى جمعية [العروة الوثقى] أو [أم القرى] أو [جمعية العلماء] بالجزائر ...

● أما جماعة [**الاخوان المسلمين**] .. فلقد تميزت بـ :

١ ــ جماهيرية التنظيم .. مع الأخذ بنظام « المراتب » ، القائمة على المعايير « النضالية » لا « الفكرية » ..

٢ ــ تقلص الابداع التجديدى ــ إذا ما قيس بإبداع [الجامعة الاسلامية] فى التجديد ــ .. مع اختصاص مرشدها العام الأول بمهمة « التفكير » للجماعة تقريبا ؟!..

٣ – التركيز على تخليص الموروث من الازدواجية .. بتنقيته ــ بالسلفية ــ من الشوائب غير الاسلامية .

٤ – والتصدى للتغريب .. كى لا تفقد الأمة الهوية الاسلامية التى تميزها ..

٥ – والاستفادة من علوم الغرب ، الضرورية لقوتنا ونهضتنا ، والتى لا تشوه تميزنا الحضارى .

● أما [**الجماعة الاسلامية**] فلقد تمثل إبداعها الأساسى فى :

١ – نقد الموروث .. وتخليص « بقايا الاسلام » فيه من « الجاهلية » التى غلبت عليه حتى جعلت « المجتمع » مرتدا عن الاسلام ، لغياب [الحاكمية الإلهية] ..

٢ – التصدى « للتغريب » .. كى لا تفقد الأمة هويتها الحضارية التى تميزها عن غيرها من الحضارات .

٣ – الاستفادة من علوم الغرب ــ وخاصة البحتة ــ التى تزيد قوة المسلمين ، ولا تشوه تميزهم الحضارى .

● أما تيار [**الرفض الكامل والثورى للواقع**] فلقد تبلورت مقولاته فى :

١ – العودة ــ من جديد ــ للمنبع الأول ــ القرآن ــ وحده .. لأن تواصل الأمة ، فكريا ، قد انقطع تماما .. فكفرت « الأمة » و« المجتمع » ، وارتدا إلى « الجاهلية » ثانية .. ومنذ قرون .

٢ – والتصدى للغرب .. فقد انتهى دوره ، وأفلس فى « القيم » .. والاسلام هو المرشح للقيادة العالمية الآن ، بقيمه .. وبثمرات الابداع الأوربى فى التقدم المادى ..

٣ – والاستفادة من علوم الغرب البحتة .. والحذر والرفض لفلسفاته وتصوراته وإنسانياته ، التى تشوه تميزنا الحضارى .

* * *

لقد أجمعت كل فصائل « الصحوة الاسلامية » على أن النهضة ، وتجاوز المأزق الذى انحدرت الأمة إليه ، وخاصة بعد الغزوة الاستعمارية الحديثة ، رهن بتجديد الدين ، بالسلفية ، لتنقيته من البدع والإضافات ... وتجديد الدنيا بالدين ، لا « بالتغريب » ، الذى يمثل الخطر الأكبر على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية وشخصيتها القومية ... ثم اختلفت هذه الفصائل فى « جزئيات » .. وفى درجة التركيز على بعض القضايا والمجالات ...

ولقد كان عنف التغريب واشتداد الخطر على الذاتية الحضارية للأمة وراء عنف الصياغات وحدة الأحكام التى قدمتها بعض فصائل الصحوة على « الفكرية » التى امتزج فيها « التغريب » بالاسلام !..

وإذا كانت هذه الصحوة قد بدأت ـــ عند تيار [الجامعة الاسلامية] ــ: « ثورة اجتهاد وتجديد » فى الأساس والغالب .. وتنظيم « صفوة » بالدرجة الأولى ... فإنها قد وصلت عند تيار [الرفض الكامل والثورى للواقع] : « حركة جمهورية » تستقطب جمهورا كبيرا من أبناء الأمة لـ « الحركة » و« العمل » فى سبيل الاسلام .. على حين تقلص « الاجتهاد والتجديد » فى هذا التيار إلى حد كبير .. إما إهمالا غير مقصود .. وإما تأجيلا له حتى تقام الدولة الاسلامية ، وتقوم ضرورات الاجتهاد ـــ كما يقال أحيانا ؟! ـــ .. الأمر الذى جعل « الحركة » الاسلامية المعاصرة مهددة بوضع الذى يمشى على ساق واحدة !..

والذين يعون ، جيدا ، مخاطر « التحدى الحضارى » على ذاتية الأمة المستقلة ، وهويتها الحضارية المتميزة ، ومستقبلها المسلم ، يدركون الأهمية البالغة لوقوف « الحركة الأسلامية » ونموها وتقدمها على الساقين الاثنتين :

ا ـــ إبداع الصفوة المجتهدة المجددة ...

ب ـــ والتنظيم الجماهيرى ، المستوعب لجيش العاملين لعودة حكم الاسلام ...

فبذلك تجمع الحركة المعاصرة ميزات تيار « الصحوة الاسلامية » على امتداد القرنين الماضيين ....

وبذلك وحده تستطيع التصدى لأعدائها ـــ الداخليين والخارجيين ـــ ... وفى ذلك نصر الاسلام والمسلمين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1]

صدق الله العظيم

(١) محمد : ٧ .

المصــــادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة النبوية الشريفة :

[صحيح البخارى] طبعة دار الشعب . القاهرة .
[صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
[سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
[سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
[سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
[سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
[سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
[مسند الامام أحمد بن حنبل] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ .
[موطأ الامام مالك] طبعة دار الشعب . القاهرة .

ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] إعداد وتصنيف : د . عمار طالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

ابن حزم الأندلسى : [رسائل ابن حزم] تحقيق : د . إحسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨٠ م .

ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق .

ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .

أبو يعلى الفراء : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
[كتاب الإمامة] طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة نشرها : د . يوسف أيبش . تحت عنوان : « نصوص الفكر السياسى الاسلامى ــ الإمامة عند السنة » سنة ١٩٦٦ م .

أحمد بن زينى دحلان : [رسالة فيما يتعلق بأدلة التوسل بالنبى وزيارته] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥هـ .

الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م وبيروت سنة ١٩٨١ م .

التيفاشى : [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] تحقيق : د . محمد يوسف حسن ، د . محمود بسيونى خفاجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

جمال البنا : [الدعوات الاسلامية المعاصرة . مالها وماعليها] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

حسن البنا : [مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا] ـــ طبعة دار الشهاب ـــ القاهرة .. وفيها : [دعوتنا] و[إلى أى شىء ندعو الناس] و[نحو النور] و[إلى الشباب] و[الاخوان المسلمون تحت راية القرآن] و[دعوتنا فى طور جديد] و[بين الأمس واليوم] و[رسالة المؤتمر الخامس] و[مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى] و[نظام الحكم] و[النظام الاقتصادى] و[رسالة الجهاد] و[رسالة التعاليم] و[نظام الأسر] و[العقائد] و[المأثورات]

خورشيد أحمد (دكتور) : [نموذج المودودى للبعث الاسلامى] مجلة « المسلم المعاصر » عدد ٣١ . رمضان سنة ١٤٠٢ هـ .

الدجانى (أحمد صدق ـــ دكتور) : [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

زكريا سليمان بيومى (دكتور) : [الاخوان المسلمون والجماعات الاسلامية فى الحياة المصرية سنة ١٩٢٨ - ١٩٤٨ م] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

سمير عبد الحميد ابراهيم (دكتور) : [أبو الأعلى المودودى . فكره ودعوته] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م .

سيد قطب : [معالم فى الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م .

علوى بن أحمد بن حسن ابن قطب الحداد : [كتاب مصباح الأنام وجلاء الظلام فى رد شبه البدعى النجدى الذى أضل العوام] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥هـ .

القرطبى : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية .

الكواكبى (عبد الرحمن) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

لوثروب ستودارد : [حاضر العالم الاسلامى] ترجمة : عجاج نويهض . تعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

محمد رشاد خليل (دكتور) : [شخصية مصر التاريخية] مجلة « الدعوة » عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٨هـ مارس سنة ١٩٧٨ م .

محمد زكريا الكاندهلوى : [المودودى . ماله وماعليه] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩ م .

محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .

محمد عبده (الأستاذ الامام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عبده (وآخرين) : [الاسلام والرد على منتقديه] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

محمد عمارة (دكتور) : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م والقاهرة وبيروت سنة ١٩٨٢ م .

: [تيارات الفكر الاسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

: [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

: [كتاب الاسلام وأصول الحكم ، لعلى عبد الرازق ، دراسة ووثائق] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

: [الاسلام والثورة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م وبيروت سنة ١٩٨٠ م .

: [الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

: [العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

: [عمر بن عبد العزيز] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م وبيروت سنة ١٩٧٩ م .

محمد مختار باشا المصرى : [كتاب التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٤٠٠ هـ سنة ١٩٨٠ م .

المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهدية] تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

المودودى (أبو الأعلى) : [الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

: [الاسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٣٧٩هـ سنة ١٩٧٨ م .

: [الأمة الاسلامية وقضية القومية] ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١ م .

: [تدوين الدستور الاسلامى] ترجمة : محمد عاصم الحداد .

طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩م .
: [تذكرة دعاة الاسلام] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .
: [تفسير سورة الأحزاب] ترجمة : أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠ م .
: [تفسير سورتى الكهف ومريم] ترجمة : أحمد ادريس . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨٠ م .
: [تفسير سورة النور] طبعة القاهرة ــ بدون تاريخ ــ توزيع دار المسلم .
: [الجهاد فى سبيل الله] طبعة القاهرة ــ ضمن مجموعة بنفس العنوان ــ سنة ١٩٧٧ م .
: [الحجاب] طبعة القاهرة . دار الأنصار . بدون تاريخ .
: [حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية] ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
: [الحكومة الاسلامية] ترجمة : أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .
: [الربا] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة القاهرة . دار الأنصار . بدون تاريخ .
: [الطريق إلى وحدة الأمة الاسلامية] ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ .
: [القانون الاسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .
: [اللباس] . طبعة بدون تاريخ . وبدون تحديد لمكان الطبع .
: [المبادىء الأساسية لفهم القرآن] ترجمة : خليل أحمد الحامدى . طبعة الكويت سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١ م .

: [مبادىء الاسلام] طبعة القاهرة . دار الأنصار . بدون تاريخ .

: [المرأة ومناصب الدولة فى نظام الاسلام] ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .

: [مسألة ملكية الأرض فى الاسلام] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة الكويت سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .

: [المسلمون والصراع السياسى الراهن] ترجمة : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١ م .

: [مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة] طبعة الكويت . سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧ م .

: [المفهوم الحقيقى لكلمة المسلم] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠ م .

: [منهاج الانقلاب الاسلامى] ترجمة : مسعود الندوى . طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .

: [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ترجمة : محمد كاظم سباق . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .

: [نظرية الاسلام السياسية] ترجمة : خليل حسن الاصلاحى . طبعة بيروت ــ ضمن مجموعة عنوانها : « نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون » ــ سنة ١٣٨٩هـ سنة ١٩٦٩ م .

: [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ترجمة : محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥ م .

ميتشل (ريتشارد . ب) : [الاخوان المسلمون] ترجمة : عبد السلام رضوان . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

ونسنك (ا . ى) وآخرين : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ - سنة ١٩٦٩ م .

للمؤلف

ا – تأليف :

١ – الإسلام وفلسفة الحكم
٢ – الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية
٣ – الاسلام وأصول الحكم [دراسة ووثائق]
٤ – الاسلام والسلطة الدينية
٥ – نظرية الخلافة الاسلامية
٦ – الإسلام والحرب الدينية
٧ – الاسلام والعروبة والعلمانية
٨ – الاسلام والوحدة الوطنية
٩ – الاسلام وقضايا العصر
١٠ – الاسلام والثورة
١١ – الاسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده
١٢ – المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية
١٣ – مسلمون ثوار
١٤ – ثورة الزنج
١٥ – تيارات الفكر الاسلامى
١٦ – تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة
١٧ – العرب والتحدى [تحديات لها تاريخ]
١٨ – الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب
١٩ – العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب
٢٠ – عمر بن عبد العزيز ـــ خامس الخلفاء الراشدين .
٢١ – نظرة جديدة الى التراث
٢٢ – التراث فى ضوء العقل
٢٣ – دراسات فى الوعى بالتاريخ
٢٤ – عندما أصبحت مصر عربية
٢٥ – معارك العرب ضد الغزاة
٢٦ – الامام محمد عبده ـــ مجدد الاسلام
٢٧ – تجديد الفكر الاسلامى ـــ محمد عبده ومدرسته

٢٨ – الامام محمد عبده ــ سيرته وأعماله
٢٩ – قاسم أمين وتحرير المرأة
٣٠ – المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد
٣١ – القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب
٣٢ – فجر اليقظة القومية
٣٣ – العروبة فى العصر الحديث
٣٤ – الأمة العربية وقضية الوحدة
٣٥ – اسرائيل .. هل هى سامية ؟
٣٦ – ماذا يعنى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الاسلامية ؟
٣٧ – الفكر القائد للثورة الايرانية
٣٨ – كتاب الفريضة الغائبة .. عرض .. وحوار .. وتقييم
٣٩ – الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى .
٤٠ – رفاعة الطهطاوى
٤١ – على مبارك
٤٢ – جمال الدين الأفغانى
٤٣ – عبد الرحمن الكواكبى
٤٤ – التراث الاسلامى والمستقبل
٤٥ – الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل .

ب – دراسة وتحقيق :

٤٦ – الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى جـ١ – جـ٦
٤٧ – الأعمال الكاملة لعلى مبارك جـ١ – جـ١٠
٤٨ – الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى جـ١ – جـ٣
٤٩ – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ١ – جـ٦
٥٠ – الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى
٥١ – الأعمال الكاملة لقاسم أمين جـ١ ، ٢
٥٢ – رسائل العدل والتوحيد جـ١ ، ٢
٥٣ – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ــ لابن رشد
٥٤ – رسالة التوحيد ــ للإمام محمد عبده
٥٥ – التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ــ لمحمد مختار باشا المصرى جـ١ ، ٢ .

الفهـــــرس

الموضوع	صفحة
تمهيد	٥
الفصل الأول : الصحوة الإسلامية	١٣
● الوهابية	١٨
● والسنوسية	٢٠
● والمهدية	٢١
الفصل الثانى : الجامعة الاسلامية	٢٣
● نقد التخلف العثمانى	٢٦
● والتصدى للتغريب	٣٠
● ونهضة حضارية متميزة	٣٧
الفصل الثالث : جماعة الاخوان المسلمين	٤١
● التصدى للتغريب	٤٧
● والتخلف الموروث	٥٤
● البراءة من الغلو	٥٩
● الاستقلال الحضارى	٦٠
● والتفاعل الحضارى	٦٨
● الاسلام .. والوطنية والقومية	٧٤
● وسبل التنفيذ	٧٨
الفصل الرابع : الجماعة الاسلامية	٨٥
● فى مواجهة الجاهلية الموروثة	٩٠
● وفى مواجهة الجاهلية الوافدة	٩٨
● التفاعل الحضارى	١١١
● الموقف من القومية .. وعلاقة الديمقراطية بالحاكمية	١١٤
● اداة البعث	١٣٢

الفصل الخامس : تيار : الرفض الكامل للواقع ١٤٣
● الحاكمية الإلهية ١٤٩
● وعموم الجاهلية ١٥٤
● السبيل إلى البعث الاسلامى ١٦٢

وبعد ١٧٣
المصادر ١٧٦

رقم الإيداع : ١٨٣٣ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٠ ــ ٠٠٣٧ ــ ٠٩ ــ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري